أحمد
بهاء
الدين

..وتحطمت
الأسطورة
عند الظهر!



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

الاصدار الاول يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٥٠ - جماد أول - أكتوبر ١٩٩٦ - ON.550-OC-1996

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عادل عبد الصمد سكرتير التحرير

قرش

الأردن ٣٠٠٠ فلس -

سعودية ١٥ ريالا.

وتحطمت الاسطورة عند الظهر

قصة حرب اكتوبر ١٩٧٣

أحمد بهاء الدين

دار الهلال

إهـــــداء

إلى الذين قاتلوا .. ثم صمدوا .. ثم قاتلوا
ومازالوا صامدين !

أحمد بهاء الدين

تقديم

بقلم : مصطفى نبيل

يصدر هذا الكتاب المهم فى مناسبتين ، الأولى الذكرى الثالثة والعشرون لحرب أكتوبر ، والثانية ذكرى الأربعين لرحيل الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين.

ويحاول الكاتب فى هذا الكتاب أن يضع إنتصار أكتوبر ١٩٧٣ وهزيمة يونيو ١٩٦٧ في إطارهما الصحيح، ويقوم الكتاب علي الوقائع الثابتة ، ويقدم صورة متكاملة لمسيرة الحرب من البداية حتى وقف إطلاق النار.

يسجل الكاتب بدقة أبعاد ووقائع الصراع العربى الاسرائيلى ،حتى لاننسى وتطوى الأيام تلك البطولات.

مع حسٍ عالٍ بحركة التاريخ ،في حرب هي أعظم الحروب التى خاضها الانسان المصرى في العصرالحديث .

ويقوم كتابه على تحليل رفيع المستوى ، وفى ذات الوقت غنى بالمعلومات الدقيقة، ويجمع الكتاب بين الرؤية العلمية والتفاصيل الدقيقة .

ونري فى هذا الكتاب ملامح أحمد بهاء الدين كاتباً ومفكراً وصاحب رسالة ، تدعو للحرية والتقدم ، ويقف بحق إلى جانب عمالقة الفكر محمد عبده ولطفى السيد وطه حسين وأحمد أمين وغيرهم .

وإذا كان بهاء يتميز بالسرعة الشديدة فى القراءة، فهو يتميز أيضاً بالسرعة فى الكتابة ، وقد أنجز هذا الكتاب بعد حرب أكتوبر خلال عشرة أيام ..

ويروى أحمد بهاء الدين قصة هذا الكتاب فى كتابه «محاوراتى مع السادات» الذي صدر عام ٨٧ ..

«إنتهت حرب أكتوبر نهايتها المعروفة ، ولا أظننى فى حاجة إلي وصف حالة الفرحة المثيرة ، والابتهاج العام التى كانت تسودنا جميعاً فى كل مكان خصوصاً فى الصحف ، حيث كنا نقيم آناء الليل وأطراف النهار لمجرد إحتمال سماع خبر جديد آت من الجبهة . .

وبعد وقف إطلاق النار بأيام زارنى فى مكتبى فى الأهرام الناشر الكبير المعروف الأستاذ محمد المعلم صاحب «دار الشروق» .

وقال لى : هل تذكر كتاب «وتحطمت الطائرات عند الفجر؟» .

قلت : كيف لا أتذكر ..؟ فبعد هزيمة ١٩٦٧ نشطت المخابرات الأمريكية والإسرائيلية وبعض المخابرات العربية، وجهات سياسية كثيرة ذاقت مرارات الهزيمة على يد جمال عبد الناصر من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٧ ، وتحركت كل تلك الأجهزة التى طالما أصدرت الصحف وطبعت الكتب وأقامت الإذاعات طوال اثنى عشر عاماً مجندة أحياناً أكبر الأقلام والأسماء ، ودافعة الأموال والرشاوي لرؤساء دول ورؤساء وزارات، للنيل من جمال عبد الناصر دون جدوى، تحركت الجهات ودبت فيها الروح بعد أن أصبح الأسد جريحاً ومصر ملقاة علي الأرض ، وتفتحت خياشيمها لرائحة الدم ، وأغرقت الأسواق العربية بمئات الكتب والصحف التى تحاول جعل الهزيمة ضربة قاتلة نهائية، ولم تترك شيئاً من آثار ثورة ٢٣ يوليو إلا تحاول تجريحه ، ولم تترك وسيلة لإثبات عدم جدارة الإنسان المصري بالأحلام التى طافت بمخيلته زمناً، إلا حاولت تدميرها.

كتب تغمر الأسواق بغير مؤلف واضح ولا ناشر معروف .. كلها طبعت في مطابخ المخابرات الدولية والعربية . وكان أقساها وأكثرها إيلاماً وتجريحاً كتاب اسمه «وتحطمت الطائرات عند الفجر» محوره الأساسى

ضربة الطيران الإسرائيلي وتدميره للطيران المصرى والمطارات المصرية فى ساعات قليلة فجر الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، ودور الجاسوسية الناجحة فى هذه الضربة .

ويمضى بهاء فى حكايته ..

كان الناشرالصديق محمد المعلم يمارس نشاطه فى النشر وقتها فى بيروت ، وكنت كلما ذهبت إلى بيروت وجدت كميات جديدة من هذا الكتاب الذي يباع بثمن رمزى مكدسة علي كل رصيف في بيروت حتى لا تفوت أحدا قراءته .

قال لى محمد المعلم : إذا كنت تذكر بشاعة ذلك الكتاب وما كان يسببه لنا من آلام ، فإننى أطلب إليك طلباً محدداً . هو أن تكتب لنا كتابا مضاداً واقترح أن يكون عنوانه رداً على ذلك العنوان «وتحطمت الأسطورة عند الظهر» إشارة إلى عبور الجيش المصرى القناة وتدمير خط بارليف ظهر ٦ أكتوبر١٩٧٣ ..... وأخذ يكرر إن السرعة هنا بالغة الأهمية وان أى كتاب سيظهر الآن من كاتب مصري مثلي عن الحرب سيقرؤه كل عربى .

قلت له : السرعة شيء عظيم لسعة الانتشار

والتوزيع ، ولكنها ليست كل شيء ، إنني مستعد لأن أكتب لك كتابا تحت هذا العنوان خلال عشرة أيام ، ولكنه سيكون كتاباً سياسياً لا وثائقياً ولا معلوماتيا، لن تكون فيه معلومة واحدة زيادة عما نشر فى صحف مصر وإسرائيل والعالم الخارجى ، ولكنه فى أحسن الحالات سيكون كتابا تحليلياً يضع حرب أكتوبر بتفاصيلها التى نعرفها حتى الآن فى إطارها التاريخى الصحيح، والتى قامت كنتيجة لإصرار ولد عقب هزيمة ٥ يونيو مباشرة على رفض الهزيمة وعدم الإستجابة لكلمة ديان الشهيرة .. «لقد إنتهت مرحلة بأكملها ، وأنا جالس بجوار تليفونى مستعد للرد على أول مكالمة من أول عاصمة عربية تريد أن تأتى إلينا» ، وما تلا الهزيمة - بعد أيام من معركة رأس العش كإعلان عن الاصرار على المواجهة ، ثم إغراق البارجة الإسرائيلية إيلات بعد أسابيع من الهزيمة، فإعادة التسليح، فحائط الصواريخ فحرب الإستنزاف ، فقرار الهجوم والعبور.

قال المعلم متحمساً : هذا ما أريده بالضبط، لا أريد أكثر من ذلك، ولكنى أريد أن أصنع كتابا من هذا

العنوان حيث مازالت معروضة بقايا كتاب «وتحطمت الطائرات عند الفجر» على الأرصفة.

وبالفعل كنت أنجز عملى فى الجريدة وأهرع إلى البيت لأعمل فى الكتاب حتى أنجزته فعلا فى عشرة أيام » .

ويعيد أحمد بهاء الدين ، الاعتبار لحرب الاستنزاف التي بدأت فى مارس ١٩٦٩ وانتهت بوقف إطلاق النار فى ٧ أغسطس ١٩٧٠ .

والتى تعرضت مؤخراً لحملة ظالمة .

● ● ●

وإذا بحثت عن سر أحمد بهاء الدين ، أو سعيت للتوصل إلى مفتاح شخصيته، وسبب جاذبيته والقبول والمصداقية التى تتمتع بها كتاباته ، فستجد أنه ذلك المزيج بين الوطنيـة والمعـرفـة ، المزيج بين الحس الوطني العالى والقدرة الفائقة على التحليل والنفاذ، مع مسحـة إنسانيـة، وهى كلها بادية للعيـان فى شخصيته وأعماله ..

ولم يكن غريبا لمن شجت رأسه فى حادث كوبرى عباس يوم ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ ، خلال مشاركته فى مظاهرة تطالب بالجلاء ، أن يكون أول مـانشـره من

كتب ، كتاب عنوانه «الإستعمار الأمريكي الجديد» ، والذى صدر فى منتصف يونيه سنة ١٩٥١ ، ويكتب قائلاً ..«كنا قرأنا تاريخ بلادنا وعرفنا أن الحرب العالمية الأولى أعقبتها الثورة المصرية الأولى على الإستعمار الانجليزى» ثورة ١٩١٩ ، واقتنعنا بأن هذه الحرب العالمية الثانية لابد أن تعقبها ثورة أخرى نخوضها ونكون وقودها..»

وظلت المسألة الوطنية - طوال حياته على رأس اهتماماته ومركز كتاباته.

واحتل مكانته فى الحياة الفكرية والصحفية كالشهاب ، معتمدا على قدراته ومواهبه ، ففى مايو عام ١٩٥٦ ، تقدم «كتب للجميع» بهاء فى كتاب بعنوان «مبادىء وأشخاص» ، وأيامها كان عمره تسعة وعشرين عاماً، ورئيس تحرير مجلة «صباح الخير» ، ونشر بالفعل أربعة كتب هى «الإستعمار الأمريكي الجديد» ، و«فاروق ملكا» و«أيام لها تاريخ» و«شهر فى روسيا» وترجم عن الزعيم الهندى نهرو كتاب «الثورات الكبرى» ، وهذا لا يدل على موهبة فقط ولكن يدل أيضاً على أن مصر عام ١٩٥٦ ، كانت تفتح ذراعيها لأولئك الذين يملكون الموهبة ، وتغلب على

المجتمع روح التشجيع والإحتفاء، من جيل قائم بأجيال جديدة ، وهذا عكس مانشاهده اليوم .

حقا .. إنه من القلائل الذين يملكون شجاعة فكرية كبيرة ، ومن الذين لا تزحزحهم تقلبات الدنيا ، ولا يتنكر لرؤيته وفكره . وعرف عنه أنه الكاتب الذى لا يحركه الهوى ، ويمثل الضمير العام بكل النقاء والإخلاص ، وهو يكتب قصة أكتوبر بقلم فنان . وعاطفة شاعر ، وعقلانية عالم .

وها هو ذا الكتاب الذى خط منذ اثنين وعشرين عاما، مازال كتابا حيا متوهجا، ومن أفضل الكتب التى يجب أن تطلع عليها الأجيال الجديدة .

ويذكرنا بهاء فى مؤلفه أن دافع اسرائيل الحقيقى لقبول التسوية السياسية، هو مالمسته من قدرة الجيش المصرى .

مقدمة

«وتحطمت الطائرات عند الفجر»

لعل عشرات الآلاف من المواطنين العرب مثلى ، ظل هذا العنوان طوال سنوات يبعث القشعريرة فى أبدانهم وأعصابهم ..

كان هذا عنوانا لكتاب لقيط، اسم مؤلفه مزور، واسم مترجمه مجهول، ولكنه كان لا يكف عن غمر الأسواق العربية، مكدسا سنة بعد سنة على أرصفة المدن العربية.. واحدا من تلك الكتب التى دبجتها الدعاية الصهيونية ودستها على العرب بعد هزيمة ١٩٦٧، وكأنها تلاحقهم بالهزيمة ليس على الأرض وحدها، ولكن حتى داخل أعماق نفوسهم ..

«أدب» كثير وغزير، ظهر فى أعقاب النكسة، فى كل كتاب قليل من الحقيقة وكثير من الخيال والتلفيق والتزوير.. يريد أن يحطم فى العربى كرامته، ومعنوياته، وبقايا أمله.. فأرضه أمام إسرائيل عراء، وأسراره لعملائها مكشوفة، وقدرته على القتال أمام عدو أسطورى غير موجودة ..

وكان هذا العنوان «تحطمت الطائرات عند الفجر» عنوان واحد من هذه الكتب، وربما أشهرها، حتى سار رمزا على هذه الأكداس من المؤلفات المدسوسة... خصوصا وأنه كان يستمد عنوانه من حقيقة مرة: فقد تحطمت الطائرات فعلا، بعد الفجر بقليل ....

وكان ذلك بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة بحوالي شهر عندما ذكرني صديق بكتاب «وتحطمت الطائرات عند الفجر».

كيف لا أذكر ؟

وكان الاقتراح: كتاب سريع، يعيد بعض الأمور إلى نصابها، بعد أن ارتفعت الرءوس التي ظلت منكسة لسنوات .

فقد تحطمت الأسطورة عند الظهر، عندما أصدر أنور السادات قراره التاريخي بإطلاق الشرارة !

وكان لابد أن تمر فترة تردد. فالأحداث مازالت قريبة والحرب لم تنته هذه المرة بعد، وأسرارها بالتالي ليست مفتوحة كما حدث بعد ١٩٦٧.

ثم بدأت المحاولة، وكان لابد لها من عنصرين : الايجاز والسرعة .

لماذا السرعة ؟

لأن أداة إسرائيل الدعائية بدأت تعمل لمحاولة التقليل من قيمة العمل الذى قامت به قواتنا المسلحة، بتصوير انتصارها كنوع من الصدفة والايحاء بأنه لو استمر القتال، لأحرزت إسرائيل انتصارا جديدا .

وليس هذا كتاب مغامرات «جيمس بوندية» مزيفة مثل الكتب التي أشرت إليها .. ولكنه محاولة لوضع هذه المرحلة من الصراع العربي الإسرائيلي بحلوها ومرها في إطارها التاريخي الصحيح .. ولهذا كان الاعتماد في أماكن كثيرة على مصادر إسرائيلية وغربية ثابتة .

ان حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة قد هزمت الهزيمة .

وهذا ما ستحاول هذه السطور السريعة أن تشرحه .

أحمد بهاء الدين

حرب ١٩٦٧

لا يمكن الكتابة عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتقدير حجم الانتصار الذى حققته، دون الاشارة فى ايجاز إلى حرب يونيو ١٩٦٧، وما خلفته ! ذلك أنهما فى حقيقة الأمر قتالان فى مسار حرب واحدة. وكل ما حدث فى حرب يونيو ١٩٦٧ كان له انعكاس فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، من أسلوب العمل السياسى والعسكرى، حتى أعمق وجدان الجماهير (ألم نستمع كلنا إلى البلاغات العربية الأولى فى أكتوبر ١٩٧٣ فى تحفظ واشفاق شديدين، لأن أفئدتنا كانت لاتزال مثقلة بالبلاغات الأولى لحرب يونيو ١٩٦٧ ؟) .

ومع ذلك، فانه من الممكن القول أن بعض عناصر النظرة الشاملة والتقييم الأخير لحرب يونيو ١٩٦٧ مازالت ناقصة : لأن الكثير مما قيل كان غير صحيح. ولأن الدعاية الصهيونية دفعت بالهزيمة – التى كانت أعباؤها عميقة بالفعل – إلى أبعاد أكثر مبالغة، ولأن الأطراف لم تتكلم بعد .

ومع ذلك فلا بد من القاء نظرة أو محاولة اجراء تقييم مبدئى لحرب ١٩٦٧، التى ما زلنا فى النهاية نعيش آثارها القائمة أو صفحاتها التى لم تنطو بعد.

والعبرة التى يجب أن نخرج بها من حرب ١٩٦٧، بالغة الأهمية.

فلا يجوز من جهة أن نستسلم للحرب النفسية التى شنت علينا بمئات الكتب وآلاف المقالات محاولة أن تجعل للهزيمة أبعادا أكثر من حقيقتها، أى أن تثبت أن أسباب الهزيمة أبدية وأزلية وكامنة فى طبيعة شعبنا وقدراته. كما أنه من ناحية أخرى لا يجوز مطلقا محاولة التقليل من العوامل التى قادت إلى الهزيمة، ولا الاعتذار عنها بأى شكل من الأشكال.

هناك منطقة وسط بين تعذيب النفس وبين دفن الرأس فى الرمال، هى المنطقة التى يجب أن نقف فيها، ونستخرج منها الدروس الصحيحة، التى يتعلمها شبابنا وأبناؤنا. فبهذه السلسلة المتصلة من الهزائم والانتصارات، يتواصل تاريخ كل شعب فى العالم. انما المهم دائما هو استخلاص النتائج الصحيحة .



من هذا المنطلق أبادر فأقول أننى من الزاعمين بأن حرب ١٩٦٧ كانت فخا منصوبا لنا، واستدارجاً تقتحت مراحله أمامنا بإحكام استدرجنا إليه مغمضى العينين .

وليس معنى هذا أننا أبرياء من مسئولية الوقوع فى الشرك ...

ذلك أن السياسات الدولية، خصوصا ما يتصل منها بالحرب والسلام، مليئة بالشراك والأفخاخ. ولكن هذه الشراك والأفخاخ لا تنصب ولا يتم عملها بإحكام، من فراغ. انما تستمد عناصرها من الظروف والملابسات الواقعية .

ان من ينصب لخصمه شركا فى عالم اليوم : يدرس هذا الخصم جيدا، ويتعرف على مواطن ضعفه وقوته، ويبحث ردود فعله السياسية والعسكرية بكل دقة. ويختار لنصب هذا الشرك اللحظة السياسية والعسكرية، المحلية والدولية، المادية والمعنوية، المناسبة له، بحيث تؤتى خطته ثمارها .

وفى عصر اشتهرت فيه اصطلاحات The Game of Nations والـ Gamesmanship كاد هذا الأسلوب فى السياسة أن يكون علما قائما بذاته.

لم يعد واردا فى عالم اليوم أن تعتمد فى أحكامك أو خططك السياسية على الالهام أو الارتجال، أو على حسابات سريعة محدودة. ولكن القرارات السياسية الآن محصلة خبرة العسكرى والسياسى والمهندس والعالم والاقتصادى وكل طاقات البلد العلمية والعقلية. العالم صار معقدا. وأجهزة الدول معقدة، وردود فعل أى حدث، خصوصا اذا كان حرباً معقدة. فلم يكن جائزا مواجهة هذا كله بتبسيط للأمور أو بالاستسلام للحماسة غير

المدروسة، أو للخلط بين الرغبات وبين الظروف المحيطة بامكانية تحقيق هذه الرغبات.

وهذا القول ينطبق أكثر ما ينطبق بالنسبة لخصم مثل دولة إسرائيل.

لـماذا ؟.

لأن إسرائيل، من هذه الزاوية التي نتحدث عنها، لها عدة خصائص معينة :

أولا – أنها دولة أساس فلسفتها التوسع . على الأقل التوسع إلى أن تضم حدودها ذات يوم (١) كل ما تسميه هي «أرض إسرائيل التاريخية Eretz Israil » (٢) كل أو معظم يهود العالم (٣) ولأن «أرض إسرائيل التاريخية» قد لا تسمح مواردها الطبيعية بمستقبل مضمون لكل أو معظم يهود العالم فهى محتاجة أيضاً إلى اضافات معينة إلى هذه الأرض، مثل منابع الأنهار مثلا فى جنوب لبنان ....

إذن فهناك سببان أساسيان يجعلان التوسع جزءا فى سياسة الدولة الإسرائيلية .

العنصر الأول هو عنصر العقيدة الذى قامت عليه الدولة، والذى يجب بمقتضاه أن تضم الدولة كل أراضى إسرائيل

التاريخية .

العنصر الثاني هو العنصر العملي، العنصر السياسي – الاقتصادي – والديمغرافي : فازاء هذا العالم العربي الواسع لابد للدولة الصغيرة من دفاع يتمثل في حدود أوسع وأقوى – ومساحة تستوعب المهاجرين المتوقعين، وعناصر طبيعية مهمة لاقتصاد أى دولة على المدى البعيد حتى تجعل «المشروع الإسرائيلي» قائما على أسس صحيحة ...

ويكفي أن نضرب مثلا على ذلك : موضوع المياه فقط ...

فمن أكبر مشاكل النمو التي تواجهها إسرائيل مشكلة المياه وهي تريد أن تضع يدها على ما حولها من أنهار ومصادر مياه لهذا السبب. لأنه كما قال مناحم كنتور مدير مصلحة المياه في إسرائيل يوم ١٩٧٣/٧/٦ «ان المحافظة على معدل النمو المقبول اقتصاديا معناه طلب متزايد على المياه» وموارد إسرائيل بعد عشر سنوات لن تكفيها في المياه للصناعة والزراعة والشرب حتى ولو نجحت الأبحاث العلمية في استخدام مياه المجاري بعد تنقيتها...

وفي بحث الحلول يطرح عادة استغلال روافد نهر الأردن والحاصباني والوزاني وتحلية مياه البحر «وإسرائيل لم تستطع

قبل حرب ١٩٦٧ ، جعل الروافد تصب في إسرائيل، ولكن حرب الأيام الستة قضت على المشروع العربي لتحويل روافد نهر الأردن، وأصبح نهر بانياس والجزء الغزير من الحاصباني (ينابيع الوزاني) تحت السيطرة الإسرائيلية.. واقيمت مشاريع مياه في مرتفعات الجولان ونفذت أعمال حفر في جبال الضفة الغربية من أجل التغلب على النقص في المياه».

ولكن هذا كله لا يحل مشكلة إسرائيل. فقد نشر «اليشع كلى» مدير شعبة التخطيط البعيد المدى للمياه ، بحثا قال فيه أن هذه الحلول كلها لن تكفي مع نهاية القرن. والحل الوحيد في رأيه، بعد الاستفادة من الأنهار العربية المجاورة، وهو الاستفادة من مياه نهر النيل».. فنهر النيل ينتج نحو مائة ضعف أكثر من الليطاني مثلا. وهو يختلف عن الليطاني إذ ليس فيه مشكلة فيضانات الشتاء الخطرة. كما أن النقل منه إلى وسط مناطق الاستهلاك المستقبلة في إسرائيل (قطاع غزة، المنقب الشمالي الغربي، مدن النقب) بواسطة قناة مكشوفة عبر سيناء وأنابيب تحت قناة السويس، قد يكون رخيصا جدا».

ثم يستطرد قائلا «أنه من الصعب، طبعا، التفكير في استغلال مياه النيل في إسرائيل دون التفكير في الوضع الجغرافي - السياسي الحالي، لكن ربما يستطيع من هو مستعد لإستخدام

خياله تصور أوضاع سياسة مختلفة تماما عن الوضع الحالى، الاستعانة بحقيقة أن النيل سيظل يمد مصر كل عام بنحو ٨٠ مليار متر مكعب . ومن شأن مشكلات المياه فى إسرائيل أن تحل على المدى البعيد باستخدام ١٪ فقط من إنتاج النيل دون المساس بنظام استهلاك مياه النيل فى البلد الذى يتدفق فيه» (١).

فالتوسع، وهذا موضوع يستحق كتابا بمفرده، جزء مركب فى نظرة إسرائيل الحالية إلى مستقبلنا .

ولا أريد أن استطرد هنا لاثبات عقيدة إسرائيل التوسعية، حتى لا نبعد كثيرا عن أصل الموضوع .

يكفى أن نذكر أن إسرائيل تعمدت أن لا تنص فى دستورها حين قامت على حدود دولتها .

ويكفى أن نذكر حديث بن جوريون مع ديجول، الذى رواه بن جوريون نفسه فى خطابه المفتوح إلى ديجول بعد حرب يونيو، حين هاجم ديجول موقف إسرائيل .

لقد روى بن جوريون أنه فى آخر لقاء له مع ديجول فى فرنسا، وهما يتمشيان فى حدائق قصر الأليزيه مع مرافقيهما - قبل حرب يونيو - أن ديجول جذبه من ذراعه بعيدا عن أسماع

---

(١) نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٦ سبتمبر ١٩٧٢.

المرافقين وسأله «ولكن ما هى الحدود التى تريدها إسرائيل فعلا» ورد بن جوريون بدهائه «لو سألتنى قبل ربع قرن لقلت لك نهر الأردن شرقا ونهر الليطاني شمالا . ولكننا الآن نريد السلام».

فهو بلباقة قد أبلغ ديجول ماذا يريدون. دون أن يقول له غير المقبول سياسيا، من أنه ينوى ضم هذه الأراضي بالقوة .

وقبل ذلك، نذكر كيف أن الحركة الصهيونية ناضلت أثناء مؤتمر فرساى، وخلال تقسيم الشرق الأوسط بين فرنسا وانجلترا لكي تضم «فلسطين» شرق الأردن وجنوب لبنان، حتى يصبح كل هذا ساحة لتطبيق وعد بلفور القاضى باعطائهم «وطنا قوميا فى فلسطين» .

ثانيا – أنها دولة تعرف أنها لا يمكن أن تحقق أى توسع إلا على حساب العرب، وبالتالى لا يمكن أن يتم أى توسع إلا بالحرب.

ثالثا ـ أنها دولة صغيرة الحجم محدودة السكان والموارد، مهما تدججت بالسلاح وبالتالي فأملها فى تحقيق هذا التوسع الذى لابد أن يكون بالقوة، لا يمكن أن يتم إلا في لحظات معينة، تكون كفة القوة بينها وبين الدول العربية مائلة لحسابها ، وتكون الظروف الدولية مواتية، وتكون فى الدرجة الأولى معتمدة على

حليف أو على حلفاء خارجين أقوياء .

ومعنى ذلك : إن إسرائيل لا يمكن أن تذهب إلى قوة خارجية كبرى، وتقترح عليها مساعدتها لكي تشن حربا على العرب وتقتطع من أرضهم جزءا تضمه إلى دولتها . ولكن عليها :

١ – أن تعمل عملا سياسيا وإعلاميا دءوبا، خلال عشرات المواقف المتوالية، لكي يكون لها مثل هذا الحليف ، وتقيم معه علاقة حميمة خاصة .

٢ – أنه لابد لها من تمهيد الأرض لكي تقنع هذا الحليف المنتظر بأن هناك تطابقا أو توافقا بين مصالح إسرائيل ضد العرب وبين مصالح هذا الحليف .

٣ – أن تبقى بعد ذلك فى انتظار لحظة تدهور العلاقة بين العرب وبين هذا الحليف، وفى ظل كل ما مهدت به الأرض مسبقا، تقوم إسرائيل بهجومها الخاطف، من مدخل انتظار الفرصة، لفرض توسع جديد تحقق به خطوة فى استراتيجيتها البعيدة المدى وأهدافها المذهبية والحياتية معا ...

كان هذا هو الشأن فى حرب ١٩٥٦، التى صارت كل أسرارها مكشوفة الآن.

لقد اتخذت إسرائيل قرارها بضرورة توجيه «ضربة وقائية» ضد مصر، تحت تأثير عاملين : أولهما جلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس، وثانيهما عقد عبد الناصر صفقة الأسلحة السوفيتية الشهيرة مع الاتحاد السوفييتي. ذلك أن هذين العنصرين كانا يقللان من حرية إسرائيل فى توجيه الضربات التأديبية التى كانت تقوم بها ضد الدول العربية المحيطة بها - مصر والأردن وسوريا. ولكنها بقيت تنتظر اللحظة المناسبة بالمعنى الذى ذكرناه منذ قليل.

كانت تنتظر تجمع العاصفة فى عواصم أخرى قوية ضد مصر، لكى توجه ضربتها، ولكى تخرج منها بغنيمة جديدة .

وكان ذلك فى بداية المد بالنسبة لتيارات كثيرة تزعج العالم الغربى وتلعب فيها مصر دورا قياديا : حركة التحرر فى الوطن العربى ومقاومة الأحلاف العسكرية وأشهرها حلف بغداد، وحركة التحرر فى العالم الثالث. وحركة دول عدم الانحياز.

على أن انجلترا وفرنسا كانتا غاضبتين بشكل خاص. انجلترا بسبب حرب عبدالناصر ضد مشروع حلف بغداد. وفرنسا بسبب مساعدة مصر لثورة الجزائر. وكانت أمريكا غاضبة لغضب أهم حليفتين لها، وصادف ذلك أوج الحرب الباردة فى عهد وزير

خارجيتها جون فوستر دلاس، ثم جاءت أزمة السد العالي وتأميم قناة السويس : لقد أراد دلاس عقاب مصر، وشاركه في ذلك انطوني ايدن، فأعلن جون فوستر دلاس سحب عرض أمريكا تمويل السد العالي وأعقبه أيدن بسحب عرض انجلترا وأعلن على التليفزيون، في تبرير ذلك، افلاس مصر، معتقدا أنه يوجه بذلك ضربة قاصمة للثورة في مصر، ورد عبد الناصر على ذلك بتأميم قناة السويس.

ساعتها قررت انجلترا وفرنسا القيام بعمل عسكرى ضد مصر: السبب المباشر هو استرداد قناة السويس، والسبب الأعمق هو ضرب حركة المد الثورية التي كانت تقوض الوجود البريطاني في الشرق الأوسط والوجود الفرنسي في شمال أفريقيا .

ومن مراجعة كل ما كتب عن أسرار حرب السويس التي كشفت بعد ذلك نفهم لقاء انجلترا وفرنسا وإسرائيل في الحرب .

.. كانت إسرائيل، حقا، قد لجأت قبل ذلك إلى فرنسا لشراء الأسلحة التي توازن بها السلاح السوفييتي الذي بدأ يرد إلى مصر، وأخذت الاتفاقات العسكرية السرية تتفذ بين فرنسا وإسرائيل من قبل تأميم القناة، بدافع من التقاء رغبة إسرائيل في الاستعداد لتوجيه ضربة إذا سنحت الفرصة مع رغبة فرنسا في

اضعاف العاصمة التى تمد الثورة الجزائرية بالمال والسلاح والدعم السياسى .

وكانت فرنسا قد اقتنعت أن إسرائيل، إذا سنحت الفرصة، مستعدة فعلا لتوجيه ضربة عسكرية إلى مصر ....

ولكن الذى حدث بعد تأميم القناة، هو أن القيادات الفرنسية والانجليزية وضعت فى البداية خطة للهجوم على مصر عن طريق غزو الاسكندرية ثم شق الطريق إلى القاهرة. ولكن القيادة السياسية «الانجليزية والفرنسية» وجدت أن هذا الطريق بعيد عن قناة السويس، التى هى حجة التدخل، وبالتالى قد لا تبدو الحملة مقنعة فى أسبابها، فتقرر وضع خطة أخرى للهجوم على بورسعيد لاحتلال القناة مباشرة، لأن هذا سيكون أسهل فى تبريره إزاء العالم .

وفى هذه اللحظة قفزت إسرائيل إلى ذهن القيادات العسكرية الفرنسية والمجموعة السياسية التى كانت متحمسة لاخضاع ثورة الجزائر. وأبلغت فرنسا حليفتها انجلترا لأول مرة عن اقتراح اعطاء إسرائيل دور ما فى العمليات العسكرية، أولا لدوافعها السياسية الخاصة بها، وثانيا لموقعها الجغرافى الذى يسهل الهجوم على منطقة القناة إلى حد كبير.

وتقول المراجع أن انجلترا ترددت طويلا فى قبول ادخال

إسرائيل فى الخطة. فهى بدرايتها الأكبر بالعالم العربى تعرف ان اشتراك إسرائيل كاف لكى يجعل كل العرب يقفون إلى جانب مصر، الأمر الذى قد يهزم الحملة كلها سياسيا. وانقضى وقت ثمين فى هذا التردد وهناك خطتان منفصلتان : خطة فرنسية إسرائيلية، وخطة فرنسية انجليزية، مع محاولات فرنسية متصلة لجمع الخطتين فى خطة واحدة . وأخيرا قبل الانجليز، بشرط السرية التامة، وان لا يجتمع الانجليز والإسرائيليون معا، خشية انكشاف السر ذات يوم .

ولكن الذئب العجوز دافيد بن جوريون صمم على ألا يشترك إلا بعد لقاء مباشر مع الطرف الانجليزى. وبعد أخذ ضمانات محددة من انجلترا وفرنسا أهمها : ضرب المطارات المصرية، وحماية الجو الإسرائيلى حماية كاملة. ورضخت انجلترا وتم توقيع الاتفاقية «سيفر» السرية بين بن جوريون وجى موليه عن فرنسا والسير جلادوين جيب مندوب انجلترا .

ولعلنى استطردت فى قصة بات معظمها معروفا. ولكن الهدف كان القاء الضوء على أسلوب إسرائيل الذى حاولت ايجازه فى «أولا وثانيا وثالثا» من أن إسرائيل لا تهجم إلا من خلال دراسة لظروف كثيرة معقدة، وتحت مظلة ضمانات دولية محددة، وطبقا لخطة ليست هى الطرف الوحيد فيها .

وقد لخص ذلك موشى ديان، كما روى فى كتابه عن حرب سيناء، حين شرح خطة الهجوم لضباطه وأركان حربه المندهشين (وكانوا لا يعرفون أن الهجوم ستكمله انجلترا وفرنسا) وأراد أن يطمئن وساوسهم فقال لهم فى غموض : «لن نكون وحدنا .. سنكون كراكب الدراجة الذى يمسك بيده سيارة لورى مسرعة، فتجره معها بسرعتها الأكبر» .

ويكمل هذه الفكرة الأساسية فى فهم السلوك الإسرائيلى، الأهداف التى كانت تكشف عنها بعد كل قتال : والتى تتعدى تماما كل ما يقولونه فى رغبة فى السلام أو رغبة فى الحصول على صلح مع العرب أو رغبة فى مجرد حدود آمنة ....

ففى صباح اليوم الذى انتهت فيه حرب ١٩٥٦، وقف بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل فى الكنيست يعلن عن نواياه فى استثمار الانتصار أو عن نصيبه من الصفقة لأول مرة. رفض فى هذه الخطبة أن يعتبر أن ما أخذته إسرائيل كان مملوكا لمصر، وبدأ يعامل سيناء على أنها أرض غير مصرية. قال : «ان قواتنا لم تطأ أرض مصر ولم يكن هذا فى حسابها. لقد كانت عملياتنا الحربية قاصرة على شبه جزيرة سيناء وحدها» وفى نهاية هذا الخطاب قال : «ان اتفاقية الهدنة بين إسرائيل ومصر قد ماتت ودفنت ولن تبعث بعد ذلك أبدا . وبموت اتفاقية الهدنة تلاشت وماتت خطوط الهدنة ».

وأعاد بن جوريون رسم الخريطة ! قال ان سيناء «صحراء غريبة عن مصر» وأشار إلى شرم الشيخ باسم «شلومو» وذكر تيران باسم «يوتفات Y0tvat » وتحدث فى بعض أحاديثه عن اعادة مملكة سليمان!

وأشار بن جوريون إلى أن «إسرائيل لم تنتصر بالصدفة والفضل للاجراءات الخاصة التى اتخذت لحماية سماء إسرائيل من الطيران المصرى» وأهم من ذلك قوله «ان أزمة قناة السويس التى انفجرت منذ شهور لم تكن هى التى جرتنا إلى هذه العاصفة. ولكنه منع المرور من وإلى إيلات» وتحدث عن «تحرير ذلك الجزء من وطننا الذى يحتله الغزاة».

وطوال مباحثاته بعد ذلك أو مواجهاته مع حكومة ايزنهاور التى قامت بضغط عنيف للانسحاب، حاول، مراوغا ، أن يستخدم كلمة «مصر» بتعريفه المحدود السابق لها، أى بدون سيناء. وبعد سنوات طويلة قال لصديقه ومؤرخه «ميشيل بارزوهار» : « ان قراره بالانسحاب من سيناء كان أصعب القرارات التى اتخذها فى حياته وأكثرها إيلاما» أما المعارضة فكانت تقول أنه ليس من حق أحد الانسحاب من جزء من الوطن .

●

فى السنوات التى قادت إلى تاريخ ٥ يونيو ١٩٦٧ كان يبدو وكأن السيناريو الذى سبق حرب ١٩٥٦ يعيد نفسه من جديد.

كانت علاقة مصر وجمال عبد الناصر بالغرب تتدهور بانتظام، بسبب الأحداث التى كانت تجتاح المنطقة العربية، بل والعالم كله..

كانت أمريكا غاضبة على مصر بسبب موقفها فى الكونغو وسياستها فى أفريقيا بوجه عام، فى فترة كانت القارة السوداء تتفتح فيها على الاستقلال وبالتالى على الصراع الدولى بين الشرق والغرب.

ثم زاد غضب أمريكا بسبب ذهاب القوات المصرية إلى اليمن، إذ وجدت فى ذلك تدخلا من مصر فى شئون غيرها، وتشجيعا لعناصر خطرة قريبة من منابع البترول الثمينة .

وبدأت أمريكا تمارس ضغطها على مصر منذ أواخر عهد كنيدى، أولا بطلب أيقاف صناعة الصواريخ فى مصر ثم بعقد أمريكا لأول صفقة مباشرة مع إسرائيل لتزويدها بصواريخ هوك. ولما اغتيل كنيدى زاد ارتياب مصر فى نوايا أمريكا بتولى ليندون جونسون رئاسة الجمهورية. فهو الرجل الذى قاد المعارضة سنة ١٩٥٦ ضد ايزنهاور فى قراره بالضغط على إسرائيل للانسحاب، فضلا عن عنجهيته وجهله بالسياسة الدولية وتفضيله للجوء إلى

سياسة القوة. وبالفعل لم يلبث أن أوقف اتفاقيات القمح مع مصر في وقت كانت مصر تمر فيه بأصعب مراحل التنمية الاقتصادية التي كانت تستهلك كل ما لديها من عملة صعبة .

وأحرق طلبة الكونغو مكتبة السفارة الأمريكية في مظاهرة صاخبة في مصر واسقطت المدفعية المصرية المضادة للطائرات طائرة تابعة لشركة بترول أمريكية خرجت عن ممرات الطيران المقررة . وتصاعد التسليح الأمريكي المباشر بوجه عام لإسرائيل وصارت أمريكا هي ذات العلاقة الخاصة بإسرائيل ...

وبالنسبة لانجلترا، كان الخليج العربي يطرح مشكلة مستقبله السياسي. وانفجرت في اليمن الجنوبية الثورة المسلحة. وبعد أن كانت مشكلة اليمن تحل، جاء هارولد ويلسون على رأس حكومة العمال بسياسة قمع في اليمن الجنوبية ومحاولة الوصول إلى حل بريطاني، وبعد أن أعلن أن الوزير البريطاني جورج تومسون قادم إلى مصر ليتفاهم مع عبدالناصر، أعلنت انجلترا بعد وصوله إلى مصر وقبل موعده مع عبدالناصر، تجميد الدستور في عدن وطرد الوزارة واستلام السلطة مباشرة، فشعر عبد الناصر أن هذه كانت خطوة محسوبة في توقيتها، فرفض مقابلة تومسون. وإزاء فشل كل محاولات حل مشكلة اليمن أعلن أن القوات المصرية لن

تترك اليمن قبل أن يترك الانجليز اليمن الجنوبية. ثم قررت دول أفريقيا قطع علاقاتها الدبلوماسية مع انجلترا لموقفها من مشكلة روديسيا وقطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع انجلترا بوصفها دولة أفريقية ...

وبالنسبة لألمانيا الغربية، كان قد انكشفت صفقة سرية قدمت ألمانيا بمقتضاها ٢٠٠ دبابة من طراز «ليوبارد» إلى إسرائيل، وكان من رأى عبد الناصر الرد على ذلك بالاعتراف بألمانيا الشرقية ولكن بعض الدول العربية فضلت على ذلك قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية، فقطعتها مصر وبعض الدول العربية .

وفى الوقت نفسه كانت العلاقات العربية الداخلية قد بلغت مرحلة من أسوأ مراحلها فالحملات عنيفة بين مصر والانفصاليين فى سوريا . وبين مصر وسوريا والأردن. وبين العراق وسوريا . وبين الكثير من هذه الدول والمملكة العربية السعودية. وذهبت قوات مصرية مرة إلى بغداد لحماية حكم عبدالسلام عارف ومرة أخرى إلى الجزائر خلال أزمة الحدود بين الجزائر والمغرب .

فلما أعلنت إسرائيل أنها ستبدأ فى تحويل ٧٥٪ من مياه نهر الأردن إلى إسرائيل، دعا عبد الناصر إلى مؤتمر القمة الأول الذى تلته مؤتمرات. ولكن الصراعات فى تلك المؤتمرات كانت أبرز من

الاتفاق، وكانت هذه الصراعات تؤدى إلى الاحراج المتبادل البعيد عن المصلحة العامة، وتبادل التهمة الشائعة وهى مهادنة إسرائيل. قال رئيس دولة عربى أن القضاء على إسرائيل لن يستغرق أكثر من ثلاث ساعات. وبدأت نغمة مهاجمة مصر لأنها تترك قوات الطوارىء الدولية فى شرم الشيخ وعلى الحدود بين مصر وإسرائيل .

كانت الفكرة الأساسية لدى عبد الناصر من مؤتمرات القمة «أولا» البدء فى خلق كيان فلسطينى تبلور فى منظمة التحرير الفلسطينية «ثانيا» إقامة قيادة مشتركة تمهيدا لخلق قوة عسكرية مشتركة تبدأ بحماية مشروعات عربية مضادة لمشروع إسرائيل لتحويل نهر الأردن .

ولكن الهدف الأول لم يتحقق بجدية لأنه ولد فى وجه معارضة من الأردن ولأن كيانا فلسطينيا لا يمكن أن يتم «تعيينه» بقرار، وكان عليه أن ينتظر حتى ٦٧ ليقيم نفسه بنفسه، بقتاله ودمه.

أما الهدف الثانى ، وهو القيادة المشتركة، فقد ظلت حبرا على ورق، إذا كان مستحيلاً أن تقوم وحدة عسكرية بين دول متناحرة إلى الدرجة التى كانت الأمور قد وصلت إليها .

أكثر من ذلك أن مؤتمرات القمة كشفت عن أن الدول العربية

ليس لديها فى الحقيقة أى استعداد عسكرى لدخول معركة حربية مع إسرائيل، رغم أن التصريحات العلنية كانت كلها تهدد بذلك وأحيانا تحرض عليه.

ولم يكن مستغربا، فى إطار هذه الظروف، فيما يتعلق بالفلسطينيين أن تولد منظمات سرية للمقاومة، تبدأ فى ممارسة نشاطات متفرقة، ضد إسرائيل، وكان لابد أن ترد إسرائيل على ذلك بعنف .

وفى نفس تلك السنوات تم عزل سوكارنو، واسقاط نكروما، ويروى انتونى ناتنج الوزير البريطانى السابق أنه حين قابل عبدالناصر قبل حرب ٦٧ وجد عبد الناصر غير راغب فى الحرب قط، ولكنه شاعر فى الوقت نفسه أن تحرك إسرائيل فى هذه الظروف كان بداية مؤامرة تفاصيلها خافية عليه، ولكنها أشبه بمؤامرة حرب السويس سنة ١٩٥٦.. ولكنه لم يتصرف لتجنب الشرك المنصوب .

ذلك أن إسرائيل كانت قد بدأت تتحرك، تطبيقا لنفس الفكرة القديمة: عقيدتها التوسعية، التى تنتظر فقط المناسبة المواتية لها لكى تضرب ضربتها ، فى ظل الشروط التى سبق ذكرها من قبل.

ونحن نستطيع اليوم بعد تفجر أزمة الطاقة فى العالم على هذا

النحو، أن نشير إلى أن البترول كان عاملاً أساسياً بغير شك وراء حركة الاستدراج إلى حرب ١٩٦٧...

واستأذن القارىء فى أن أعود إلى حديث كتبته قبل سنوات، ولكن بعد حرب ١٩٦٧، مشيرا إلى هذه القضية .

فالاهتمام بمصادر البترول وإن كان قد تغير أخيرا بصورة أساسية، فإنه قديم قبل حرب ٦٧. وبالتحديد، منذ ظهرت حاجة العالم إلى الطاقة، وسياسة انجلترا فى الانسحاب من شرقى السويس، وبحث أمريكا عن وسائل أخرى لابقاء سيطرتها هناك .

«فبالاضافة إلى أن البترول مازال هو المخزون الرئيسى للطاقة فى العالم، خصوصا لليابان شرقا وغرب أوروبا غربا .. فقد ظهر عنصران جديدان أولهما أنه ثبت أن أمريكا تتزايد حاجتها إلى استيراد البترول والغاز من العالم العربى لاستهلاكها المحلى. فلم تعد مصلحتها فيه مصلحة مالية وتسويقية فقط، ولكنها مع سنة ١٩٨٠ ستصبح معتمدة على البترول والغاز العربيين لاستهلاكها المحلى وللاحتفاظ باحتياطى استراتيجى كاف داخل أراضيها أطول وقت ممكن .

كما ظهر أن الاتحاد السوفييتى قد يصبح بدوره دولة مستوردة وبالتالى منافسا فى مساحة البترول، بعد أن كان دولة مصدرة .

«أن هذا الوضع البترولي قد نقل مركز التوتر من السويس إلى شرقي السويس، ومن البحر الأبيض إلى الخليج .

ولكن مصر تظل مع ذلك «مطلوبة» و «مستهدفة» !

من وجهة نظر الغرب - أوروبا قديما وأمريكا حديثا - كانت مصر غنيمة مطلوبة لذاتها كانت بالنسبة للغرب أكبر مزرعة قطن، وأكبر سوق بشرية للتجارة والاستثمار، وكانت بسبب وجود قناة السويس فى أراضيها صاحبة أهم مركز استراتيجى. هكذا دار الصراع فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن على احتلالها وامتلاكها. حتى قيام إسرائيل ذاتها بررته مذكرات الحلفاء فى معاهدة فرساى سنة ١٩١٩ بإقامة نقطة حراسة قرب قناة السويس .

ولكن ظهور البترول، وسبق إغلاق قناة السويس، جعل الغنيمة الأساسية هناك شرقى السويس، وظهرت قيمة إسرائيل كعازل بين مصر وسائر العالم العربى، يقلل من تأثيرها القوى فى المنطقة وبقى أن مصر ظلت مطلوبة لا لذاتها بالمعنى الاقتصادى ولكن لنفوذها فى المنطقة بالمعنى الاستراتيجى والقيادى والمعنوى.

ولكن يمكننا أن نقول اليوم أن السحر قد انقلب على الساحر. فان أمريكا لم تقدر مدى انتشار فكرة القومية العربية واستقلالها

ووصولها إلى درجة صارت لها مقوماتها الذاتية التى لا تحتاج إلى تحريض. فبدأت دول البترول بعد ١٩٦٧ تدعم مصر ودول المواجهة، وترفع الأسعار وتلوح بقبضتها فى وجه الدول صاحبة الامتياز خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ إلى اتخاذها موقفها الشهير من الضغط البترولى ...

ولكن هذا لا ينسينا أنه حين تفاقم الجدل والصراع حول البترول بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣، أبرزت إسرائيل وجودها المنتصر فى المنطقة كرادع فى هذا المجال. وأنها إذا كانت قد اقيمت لحماية قناة السويس فهى اليوم قادرة على حماية البترول من أصحابه. ومازال يرن فى الأذهان تصريح أحد الجنرالات الإسرائيليين خلال تعثر المفاوضات بين دول البترول والشركات «إن إسرائيل تستطيع احتلال الكويت وضمان البترول فى ساعات . فليس بين جيش إسرائيل وبين الكويت سوى صحراء خالية !».

●

قال جدعون رفائيل فى ذكريات نشرها بعد الحرب بسنوات «وصلت نيويورك يوم ٢ مايو ١٩٦٧ لأباشر عملى الجديد كرئيس لوفد إسرائيل الدائم فى الأمم المتحدة. وكنت قادما لتوى من موسكو. فقد كان أبا ايبان وزير الخارجية يعتقد أنه يجدر بممثل

إسرائيل الجديد لدى الأمم المتحدة الذى يلم الماما جيدا بالمجال الأمريكى أن يطلع أيضا على تفكير السوفييت وأن يشرح للمسئولين السوفييت بصراحة تامة وجهة نظرنا حول الوضع الخطير فى الشرق الأوسط .

«على هذا الأساس، أجرت محادثاتنا فى وزارة الخارجية السوفييتية ، حاولت اقناع سيمونوف نائب وزير الخارجية المتولي لشئون الشرق الأوسط، بأن السياسة السوفييتية المؤيدة تأييدا تاما لسياسة الانتقام العربية تنطوى على أخطار جسيمة .... ولكن سيمونوف وزملاءه قالوا أن شركات البترول الأمريكية التي تسعى لاسقاط الحكومة السورية هي التي توجه السياسة الإسرائيلية وقال بصراحة مفاجئة أنه من المحتمل أن تكون إسرائيل قد تورطت دون وعي في هذه المؤامرة التي دبرتها الدول الكبرى ».

●

كتب المؤلف الأمريكي كينث لاف (١) :

«كان قرار إسرائيل بشن حرب أخرى ضد العرب ، وضد مصر بالذات، قرارا قائما لم يتغير.

---

(1) Suez : From War fo War

«لقد استخلصوا من حرب ١٩٥٦ دروسا كثيرة، بعضها عسكري، ليس هذا مجال سرده ولكنه ظهر في تخطيطهم لحرب ١٩٦٧، وبعضها سياسي. العبرة الأساسية التي خرجوا بها سياسيا من حرب ١٩٥٦ هي : ضمان موقف الولايات المتحدة بالذات بصفتها إحدى القوتين الأعظم، وعد العمل خارج دائرتها أو من وراء ظهرها كما فعلوا سنة ١٩٥٦، اعتمادا على دول أقل قوة».

وفي الكتابات الإسرائيلية الكثيرة التي كتبت بعد حرب ١٩٥٦، نجد أنهم يختلفون في تقدير الأخطاء، ولكنهم يتفقون على غلطة واحدة هي : أنهم سمحوا بخلق موقف وقفت فيه أمريكا وروسيا معا تطلبان بالانسحاب حتى ولو من منطلقات مختلفة. لقد أدركوا من تجربة ١٩٥٦ أحد حقائق العالم الجديدة وهي ضآلة قوة الامبراطوريات القديمة إذا قيست بسطوة القوتين الأعظم. أما والاتحاد السوفييتي مع العرب، فلابد من التركيز أولا على الولايات المتحدة ونقل «العلاقة الخاصة» التي تهم إسرائيل من أوروبا إلى الولايات المتحدة. خصوصا وأن الظروف مهيأة لذلك بقوة الضغط الصهيونية الهائلة الموجودة داخل الولايات المتحدة. ولابد «ثانيا» من العمل باستمرار على زيادة الاستقطاب في منطقة الشرق الأوسط : بحيث يصبح ترجمة «العرب» في الخارج في روسيا وترجمة إسرائيل هي أمريكا .

دروس ١٩٥٦ لم يكن من بينها قط عدم الحرب. بالعكس، لقد ظلت القناعات الإسرائيلية الأساسية في هذا المجال كما هي :

- إن إسرائيل لم تكتمل. وبالتالي فالرسالة لم تتم. ولا يوجد أسلوب لاتمامها سوى الحرب. المهم فقط هو حسن اختيار اللحظة، وانتهاز الفرصة المواتية، والاحتماء بقوة كبرى .

- إن ازدياد قوة العرب خطر، وتفاهمهم خطر، والوحدة العربية بأى درجة هى الخطر الأكبر ولذلك لابد من انتهاز فرصة التفكك العربي لتوجيه الضربة .

- إن إسرائيل ليس أمامها مجال من الزمن لتحقيق حلم خريطتها الكاملة إلا قبل أن يتم نمو العرب وتحضرهم بالدرجة التي قد لا يكون هناك بد منها.

وأنقل هنا اشارات هامة من كتاب للمؤلف الأمريكي «كينيث لاف» .

يقول : إن بن جوريون حتى بعد ١٩٥٦ بزمن طويل كان يرى أنها حرب حققت أهدافا هامة لإسرائيل. كان يرى أن غزو سيناء رغم الانسحاب منها بعد ذلك والدراما التي أحاطت بذلك كله، أدى خدمة إعلامية لإسرائيل «لم يكن يقوم بها ألف أبا ايبان» على حد تعبيره. كان يرى أن العالم «قد بدأت تتكون لديه أفكار» حول هذا

الموضوع : يقصد أن سيناء لم تعد في ذهن العالم مصرية بما لا يقبل الشك، بل موضوع آخر متنازع عليه. وليس مثل هذا دليل على أن فكرة الحرب التالية بدأت مع نهاية حرب ١٩٥٦ وإلا كيف يمكن أن تأخذ إسرائيل سيناء ؟...

الأمر الآخر الذي ظل يقوله بن جوريون أنه يعتقد أن حرب ١٩٥٦ أضعفت قيادة عبدالناصر «إن خوفي المستمر هو أن يظهر بين العرب رجل مثل رجالهم الذين ظهروا في القرن السابع أو مثل أتاتورك الذي ظهر في تركيا بعد هزيمتها في الحرب العالمية: يرفع معنوياتهم، ويغير شخصيتهم ويحولهم إلى أمة مقاتلة. ومازال هناك حتى الآن خطر أن يكون ناصر هو نفسه ذلك الرجل».

وإذا كان عبد الناصر قد ارتفع اسمه بعد حرب ٥٦ وأحرز انتصارات سياسية كبيرة، فذلك مدعاة لتحفز أكبر وليس أقل .

ثم يقول كينيث لاف «إن عبد الناصر وجنرالاته لم يتعلموا من أخطاء ١٩٥٦ العسكرية بينما تعلم الإسرائيليون. وفي سنة ١٩٦٧ أعاد الإسرائيليون استخدام الأساليب التي نجحت سنة ١٩٥٦ بينما هجروا الأساليب التي لم تنجح. لقد درس الإسرائيليون كل المعارك التي دارت في هذه المناطق حتى تلك التي خاضها

أسلافهم من ألفي سنة وبين جنرالات إسرائيل خبراء آثار مثل بيجال يادين وموشى ديان الذين انصب اهتمامهم على مواقع المعارك القديمة التي ستكون حتما ساحات لمعارك الغد. فخبرة يادين في هذا المجال مكنته من أن يسلك طريقا لهجوم مفاجيء في أول حرب على حدود سيناء سنة ١٩٤٨. وقادة حرب ١٩٦٧ كانوا نفس الضباط الذين حاربوا فوق نفس الأرض وسلكوا نفس المحاور سنة ١٩٥٦. فمنذ اللحظة التي عرفت فيها إسرائيل أنها سوف تنسحب سنة ١٩٥٦ أدركت أن سيناء ساحة سوف تخوض القتال فوقها مرة أخرى ذات يوم. خطط الحرب التالية بدأ وضعها فور انتهاء الحرب السابقة، وظلوا يطورونها يوما بعد يوم دون انقطاع.

«إن البريجادير جنرال موردخاي هود، الذي قاد الهجوم الجوي المفاجيء الذي حطم الطيران المصري في الساعات الثلاث الأولى من حرب يونيو ١٩٦٧ قال لونستون تشرشل وأبوه راندولف بعد الحرب أنهم لم يقضوا عشر سنوات فقط بل ست عشرة سنة في الاعداد لهذه الضربة «كنا نعيش مع الخطة وننام مع الخطة حتى صرنا نحن الخطة. وكنا نحسنها ونزيد من دقتها بلا انقطاع» والشيء نفسه قاله عازرا ويزمان نائب رئيس الأركان من وجهة نظر إسرائيل كانت ١٩٥٦ بمثابة (بروفة) حرب ١٩٦٧. سنة

١٩٥٦ كانت الخطة عمرها سنة فقط حين جربت على الطبيعة أما سنة ١٩٦٧ فان عمرها كان ١٢ سنة. لم يكن ينقصها ، مثل سنة ١٩٥٦، إلا الظروف المواتية، والقرار السياسي للبدء في تنفيذها.

«وفي سنة ١٩٦٦ كما كان الحال سنة ١٩٥٥ كان الوضع الاقتصادي في إسرائيل متدهورا. كان حزب الماباى مازال هو الحاكم ولكنه تمزق إلى فئات. ومع ربيع ١٩٦٧ كانت الهجرة إلى إسرائيل قد هبطت إلى درجة الصفر. ونتيجة لخطة اقتصادية لمقاومة التضخم والغلاء هبط الإنتاج وتحول ١٠٪ من الأيدي العاملة إلى متعطلين. وفي مارس ١٩٦٧ قامت أول مظاهرات للعاطلين عن العمل في تل أبيب وقذفوا مقر بلديتها بالحجارة. ومثل هذه الظروف تشجع نزعة المغامرة لتحويل الأنظار لدى أي حكومة. فالسياسة يرسمها بشر. وحين تتوتر الأعصاب تكبر المخاطر. وقد كان جزءا أساسيا من حياة بن جوريون وفكره وأسلوبه. اقتناعه العميق بأن أي عمل ايجابي يجلب الأنظار حتى وقد أساء إلى صورة إسرائيل إلا أنه أحسن من نسيانها واهمالها. فالعنف يجذب أنظار العالم إلى مشاكل إسرائيل ويضاعف تأييد اليهودية العالمية لإسرائيل ولأهدافها حتى ولو انتقدوا سياستها .

«وكما أن حرب السويس سنة ١٩٥٦ لها جذورها التى ترجع أيضا إلى الغارة على غزة سنة ١٩٥٥ كذلك فان حرب ١٩٦٧ لها جذور فى تلك الهجمات والهجمات المضادة التى بدأت بالغارة الإسرائيلية على قرية «السموع» الأردنية. ففى هذه الغارة قتل الإسرائيليون ١٨ عربيا وجرحوا ١٢٤. ومثل الغارة على غزة لم يكن هناك أى مبرر مقنع للغارة الإسرائيلية على قرية «السموع». لقد قال الإسرائيليون أنهم قاموا بهذه الغارة ليس ردا على الأردن ولكن على تسلل سورى ولكنهم اختاروا السموع لأنها أوت المتسللين. وكما كانت غارتهم على غزة قبل ١٩٥٦ أكبر حجما من الاشتباكات العادية، كان الهجوم على قرية السموع مختلفا بوصفه أول هجوم شامل، فى وضح النهار، وأول هجوم من نوعه تستخدم فيه الدبابات والطائرات وسائر الأسلحة .

«وقد أصدر مجلس الأمن فى ٢٥ نوفمبر أقوى قرار له ضد إسرائيل منذ عشر سنوات، قائلا أن مثل هذه الغارات «لا يمكن السكوت عليها» وانذر «باتخاذ خطوات أخرى أكثر فاعلية».

ولكن لم يكن لمثل هذا القرار أى فاعلية أكثر من القرارات التى سبق وأصدرها فى سنتى ٥٥ و ١٩٥٦ .

«وقد بدا وقتها أن إسرائيل اختارت أن ترد على الأردن بدلا

من سوريا، حتى لا تخاطر بتحريك اتفاقية الدفاع المشترك المعقودة حديثا بين سوريا ومصر وبالتالى تشعل حربا ينجر إليها الاتحاد السوفييتي. ذلك أن اتفاقية الدفاع السورية المصرية التي تم توقيعها في ٤ نوفمبر كانت تقضي بأن أي هجوم على احدى الدولتين يعتبر هجوما على الدولة الأخرى وقد ظن بعضهم وقتها أن إسرائيل بهجومها على الأردن كانت تريد دفع الأردن إلى الدخول في هذا التحالف وبالتالي تعيد استخدام أحد الحجج الأساسية التي استخدمتها في تبرير حرب ١٩٥٦، حجة «الطوق الحديدي الذي يحاصرها» .

«وكان بن جوريون قد قال مرة أمام الكنيست : منذ أصبحت مسئولا عن أمن إسرائيل وضعت قاعدتين، إحداهما ايجابية والثانية سلبية. القاعدة الايجابية هي أن جيش الدفاع الإسرائيلي يجب أن يكون دائما قويا بدرجة تسمح له بهزيمة كل الجيوش العربية مجتمعة . والقاعدة السلبية ألا تصل إلى وضع يجعل الجيش الإسرائيلي يحارب ضد أي قوة أوروبية أو أمريكية أو سوفييتية .

وبعد ذلك بقليل، أظهرت إسرائيل تحديها لاتفاقية الدفاع المصرية السورية في يوم ٧ ابريل ١٩٦٧ حين اشتبكت الطائرات الإسرائيلية بالطائرات السورية في العمق السوري فوق دمشق

وأسقطت ستة منها. وفي اليوم التالي أعلنت إسرائيل ترقية قائد طيرانها ، الكولونيل موردخاى هود إلى رتبة بريجادير جنرال «تقديرا له». على أن إسرائيل لم يكن ينقصها سبب لهذا الاستفزاز. فمنظمات الفدائيين الفلسطينيين، خصوصا المنطلقة من سوريا كانت تزداد جسارة، وكانت الحكومات العربية تواجه صعوبة أكبر في تهدئتها، لعدم شعبية مثل هذا الاجراء.

ويلفت النظر أن السفير الأمريكي في الأمم المتحدة «تشارلز يوست» نشر مقالا في مجلة الشئون الخارجية الأمريكية FOreign Affairs في يناير ١٩٦٨ قال فيه إن إسرائيل قد «خلقت بذكاء وحنكة الأزمة التي مهدت لهجومها على مصر». وقال: «انه من الصعب أن نتصور كيف يمكن لأى زعيم إسرائيلي ألا يعرف أن مثل هذه الهجمات والتحديات المتواصلة لابد لها وأن تضع قائد التجمع العربي في موقف لابد له فيه من الرد». إن هناك ظروفا كثيرة تشير إلى أن اسرائيل قد سعت فعلاً سنة١٩٦٧ ، كما سعت١٩٥٦ إلى خلق موقف مهيأ للحرب، خصوصا لمن يتابع سلسلة الأعمال الإسرائيلية التي استهدفت استدعاء رد الفعل العربي المتوقع، ولا شك أن أهدافها التوسعية، كجزء من خطتها العسكرية العامة، كانت مرسومة قبل الأزمة بوقت طويل .

●

يقول انتونى ناتنج فى كتابه المشار إليه : «طوال هذه السنوات العشر من ١٩٥٧ إلي ١٩٦٧، كانت الفكرة الثابتة لدي إسرائيل انه يجب تدمير عبد الناصر، أو على الأقل تدمير سمعته لدرجة لا يمكنه معها استرداد مكانته في العالم العربي».

وفى رأى ناتنج أيضا - نفس الكتاب صفحة ٢٩٨، أن الإسرائيليين بدأوا يرسمون لنا الفخ، الذى سرنا إليه تماما كما توقعوا.

وكانت خلاصة خطة هذا الفخ : انتهاز كل هذه الظروف المواتية لهم لكى يبدأوا فى سلسلة استفزازات متصاعدة نحو العرب بوجه عام، ومصر بوجه خاص ، استفزازات تتصاعد بها إلى الدرجة التى تدفع العرب إلى ردود فعل متصاعدة، تصل بهم إلى حالة الحرب معها، فى وقت كانت تعرف فيه أنها مستعدة تماما، بسلاحها وحلفائها، فى حين أن الدول العربية ليست مستعدة لها، بخلافاتها وانعدام استعداداتها وعدم التنسيق بينها.

أخذت إسرائيل تنصب هذا الفخ بتصعيد الاستفزازات فى ايقاع محسوب، عارفة من جهة بردود فعل العرب المتوقعة بسبب حياة للصراع والشقاق والمزايدات، ومتجنبة من جهة أخرى أخطاء سنة ١٩٥٦ التى حرمتها من الثمرة المطلوبة، وهى ضم أراضى

جديدة .... بينما توجهنا نحن إلى الفخ مغمضى العيون، يصم آذاننا ضجيج عال من صياحنا. غير مستفيدين من أى درس من دروس سنة ١٩٥٦....

●

كانت إسرائيل، بناء على معلومات مخابراتها ومعلومات المخابرات الأمريكية، تعرف أنها أقوى عسكريا، وأنها قادرة على خطف انتصار سريع، وإن كانت ستحتاج قبيل القتال إلى امدادات معينة من أجهزة وأسلحة أمريكية خاصة.

ولكنها كانت حريصة على ثلاثة أمور :

أولا - خلق الملابسات التي تعطيها أمام العالم مبررا لشن القتال، وتأييدا معنويا دوليا، الأمر الذى يجعل فى مقدورها بعد ذلك الاحتفاظ بثمار النصر.

ثانيا - أن تنسق مع أمريكا إلى آخر الحدود، وتعمل بالتفاهم معها لأنها القوة التى تمدها بالسلاح وأيضا لكى تساعدها كذلك على الاحتفاظ بعد المعركة بثمار النصر .

ثالثا - أن تقاتل بمفردها، أى أن تحول دون تحويل الصراع بينها وبين العرب لأن هذا مرة ثالثة، أساس للهدف الجوهرى الذى ستقاتل من أجله وهو : الاحتفاظ بعد المعركة بثمار النصر...

وكان الصخب العربي قد وصل إلى إحدى ذرواته، عندما شنت إسرائيل في نوفمبر ١٩٦٦ هجومها المسلح على قرية السموع الأردنية، في تحد علني سافر للعرب. وكان يجب أن يلفت النظر أن هذا الهجوم كان أكبر كثيرا من ضرورة الردع العادية ضد عمليات الفدائيين المحدودة. فقد تم الهجوم بالدبابات والطائرات وفصائل المشاة، وفي وضح النهار، مخلفا وراءه عددا كبيرا من القتلى والجراحى. وسارت في الوطن العربي مظاهرات وتبودلت اتهامات، وطالب كل نظام غيره بتأديب إسرائيل!

وبعد عقد معاهدة الدفاع المشترك بين سوريا ومصر لأول مرة منذ الانفصال، غطت الطائرات الإسرائيلية سماء دمشق وما حولها في أعداد كثيفة، وأسقطت ست طائرات سورية مرة أخرى بحجة حوادث الحدود.

وأدى هذا الحادث أيضا إلى نفس ردود الفعل ونفس الشكوك والاتهامات. سوريا أرادت تدخل مصر. ومصر فسرت معاهدة الدفاع المشترك بأنها التزام بالحرب إذا شن هجوم شامل على سوريا. وطلبت القيادة المصرية نقل قوة دفاع جوى وطيران مصرى إلى سوريا. واختلفت الأطراف على التفاصيل أو على الأسس، وتركت حزازات الانفصال والحملات السابقة مازالت في النفوس.

كان واضحا أن إسرائيل تصعد استفزازها للعرب. وتكشف في الوقت نفسه نقط ضعفهم وتتعرف على نوع ردود فعلهم.

ومع مايو، تحولت إسرائيل فجأة إلى حملة تهديدات صريحة ضد سوريا ، مصحوبة باجراءات لاتترك شكا في أنها تمهيد للهجوم الشامل.

كتب أنطوني ناتنج يقول «رغم أن الأردن وسوريا قد تم عقابهما ، الا أن ناصر لم يلمسه شيء بعد .. وطالما أن قوات الطوارىء الدولية هناك فمن الصعب إدخاله في معركة من هذا النوع . وبتحذير بن جوريون الذى يرن في آذانهم طول الوقت ، كانوا مصممين على إخراج ناصر من خندقه لتدمير صورته نهائيا، كزعيم للعالم العربي . وكان التزام مصر الجديد بالحرب إلى جانب سوريا هو المفتاح نحو هذا كله . ولذلك أعلن الاسرائيليون عندما هاجموا قرية السموع أنهم لم يقصدوا عقاب الأردن ، بل سوريا ، التي يعمل «مخربوها» من وراء الحدود . ولكن عبدالناصر لم يستدرج إلى هذا الفخ الواضح .. ولما فشلت سلسلة أخرى من الغارات الأقل حجما أن تستدرج العرب إلى أكثر من الاحتجاجات الغاضبة ، رضخ أشكول لضغط القوى التي كانت تطالب بضربة أكبر . وفي أبريل مع تحذير واضح للعرب بأن اسرائيل تستطيع أن تعتمد دائما على مساندة أمريكا التي لم

يبعد أسطولها السادس قط عن شواطىء سوريا ومصر ، أرسل أشكول الطيران الاسرائيلى فى هجوم كثيف على الجو السورى ردا على عمل قامت به مجموعة منظمة فتح ، حيث أسقط ست طائرات ميج سورية» .

ولم يتأخر الوقت طويلا قبل أن يعلن متحدث عسكرى اسرائيلى أن اسرائيل قد تضطر إلى احتلال دمشق لأنهاء التسلل السورى والفلسطينى داخل اسرائيل . وفى ١١ مايو أعلن الجنرال اسحق رابين رئيس أركان حرب القوات الإسرائيلية : «إن طريقة الرد التى أنتهجت ضد الأردن ولبنان أنما تلائم تلك الدول غير المعنية بأعمال التخريب التى تجرى على الرغم منها ،أما فى سوريا فالقضية تختلف لأن الحكم القائم هو الذى يستعمل المخربين ، لذلك فان هدف العملية فى سوريا يختلف عن عمليات ضد الأردن ولبنان» . وأدلى ليفى أشكول بتصريح سجل فيه التزام الأسطول السادس الأمريكى بالعمل إلى جانب إسرائيل فى حالة الحرب . وفى ١٢ مايو قال إن إسرائيل قد تتخذ أعمالا لاتقل خطورة عما فعلته يوم ٧ أبريل .. وانتشر وزراء إسرائيل فى أنحاء البلاد يرددون نفس الاتهامات «كما قال ميشيل مارزهار مؤرخ بن جوريون» .

منذ قامت إسرائيل بهذه الاستفزازات ، وبدأت حشودها على الحدود السورية بدأت الأحداث تتحرك بسرعة .

اسرائيل تحاول أن تحركها في اتجاه الحرب .

وعبدالناصر يحاول أن يحركها فى اتجاه يردع إسرائيل عن الإقدام على الحرب .

هذا بصرف النظر عن الأخطاء التي سهلت لإسرائيل مهمة النجاح فى الشرك المنصوب .

لقد أكدت معلومات وثيقة كثيرة أن هناك حشودا إسرائيلية تصل إلى ١٢ لواء عند حدود سوريا ، واقترن هذا بالتهديدات السابقة .

وقول إسرائيل أن هذه الحشود لم يكن لها وجود ، قول لا قيمة له ، أولا لانه كان لدى الجانب العربى ما يؤكد وجودها . ثانيا ، أن نظام إسرائيل العسكرى يسمح لها بإخفاء هذه الحشود . فحين دعت السفير السوفييتى لزيارة الحدود ، رفض السفير لسبب بسيط ، هو انه ليس أسهل من تضليله عن أماكنها . وثالثا ، لأنه فى النهاية المهم هو «الأنطباع» الخطير الذى تتركه قصة الحشود على الأطراف الأخرى ، وهذا الانطباع هو المقصود أساسا من العملية – إثارة رد فعل لدي الخصم – وهذا انطباع

تعمدت إسرائيل أن تغذيه بتصريحات الرسميين المحددة عن احتلال دمشق ، بعد الغزو الجوى الفعلى الذى قامت به فوق دمشق .

وحدث رد الفعل الذى لابد منه : أرسل عبدالناصر قواته فى صورة مظاهرة علنية لدرجة أنها اجتازت شوارع القاهرة فى وضح النهار ، إلى سيناء ، التزاما بمعاهدة الدفاع المشترك ، والعلنية هذه كانت مقصودة لاشعار العالم أن هناك أزمة زاحفة وخطرا منتظرا ، ومن المستحسن أن تتدخل الأطراف الدولية للحيلولة دون قيام إسرائيل بالهجوم .

ولكى يكون هذا «الردع» جديا ، أبلغ القائد العسكرى المصرى قائد قوة الطوارئ الدولية أنه أمر القوات المصرية المسلحة «بالإستعداد لعمل ضد اسرائيل ، إذا ومتى قامت بعمل عدوانى ضد أى دولة عربية . وبناء على ذلك احتشدت قواتنا على حدودنا الشرقية فى سيناء . ومن أجل سلامة جنود قوات الطوارئ ، أطلب منك أن تأمر بسحب هذه القوات من المراكز على الحدود ، وتركزها فى قواعد القطاع» .

خطاب لم يشر قط إلى «سحب قوات الطوارئ» من مصر . ولم يشر قط إلى شرم الشيخ . وسجل بوضوح أن الهدف من التحرك دفاعي محض .

ولو توفرت النوايا الحسنة ، لأمكن فض القضية بسحب التهديدات الاسرائيلية رسميا ، أو بأي صيغة أخرى .

ولكن عجلة الدعاية الإسرائيلية ، التي لاتنفصل عن عجلتها السياسية ، كانت قد دارت بكل قوتها في الاتجاه المرسوم : مصر تريد تدمير إسرائيل . العرب يريدون تدمير إسرائيل .. إسرائيل مضطرة للدفاع عن نفسها .

وفى جو عربي محموم ، من التظاهر والجدية والمزايدة والرغبة فى التوريط معا ، ساعدت تصرفات وتصريحات عربية كثيرة فى تزويد الدعاية الإسرائيلية بوقود كثير ..

وكانت بعض الأصوات تنادى بأن هذه حيلة من مصر . وأن التحدى الحقيقى والواجب القومى هو طرد قوات الطوارىء واغلاق خليج العقبة .

والأهداف حتى المشروع منها إذا طرحت فى غير أوانها تكون قاتلة ولكن الصراع العربى كان قد جعل المزايدة والضغط ، والتجريح المتبادل هو أسلوب الحياة الوحيد لنظم كثيرة .

وقد كمل يوثانت المهمة دون أن يدرى .

فكر ، وهو الأمر الطبيعي فى البداية ، أن يتدخل ، أو أن يرد رداً مختلفاً أو أن يمارس دوره كأمين عام للأمم المتحدة فى حل

المشــاكل لا في دفعها إلى التدهور . ولكن دكتور رالف بانش دخل عليه غاضبا . لدوافع مشكوك فيها ، وطلب منه أن يكون الرد أما البقاء الكامل أو الأنسحاب الكامل .

أشـار رالف بانش بذلك ، وهو الخبير القديم بهذه القضية بالذات ، والذي يعرف انه لن يكون هناك رد إلا طلب الانسـحاب الكامل .

وان يكون العرب ، وعبدالناصر بالذات ، قد هزموا بغير قتال . وان الانسحاب الكامل معناه اغلاق خليج العقبة ، أى اثارة أزمة كبرى ، أكبر بكثير من الأزمة فى حجمها حتى ذلك الوقت .

وباعـلان اغلاق مضايق خليج العقبـة ، صارت فى يد اسرائيل الورقـة المطلـوبة . وكـان غريبـا أن لا نعرف أننا نعطيها الورقة المطلوبة عالميا !

وكمـراقب سـياسي ، قلت لكل مـن كانـوا معى وقتها فى مؤتمـر فى الجـزائر ، بمجرد سـماعنا النبأ أن الحرب واقعة لا محالة ، وفى خلال أيام .

ذلك أن أى دارس لاسـرائيل يجب أن يعـرف أن الحـرب والتوسع ثم الحرب والتوسع ، مقوم أساسي من مقومات الدولة فى وضعها الراهن . الأمر الذى يقتضى الحساب ، والاستعداد ،

وجعل القتال حين يقع يكون فى الظروف التى تناسبنا ولا تناسبهم .

*

لم يكن خافيا على اسرائيل أن مصر أرسلت قواتها لمحاولة ردعها عن مهاجمة سوريا ، وليس للبدء بمهاجمة اسرائيل . وأنها بالتالى ذهبت فى مهمة دفاعية ، وانه حتى حين ذهب الاسرائيليون إلى الولايات المتحدة يطلبون نجدتها أول الأمر ، قالوا لهم فى وزارة الخارجية الامريكية : أن كل معلومات البنتاجون والمخابرات الامريكية تؤكد أن القوات المصرية منتشرة فى صورة دفاعية ظاهرة .

ولكن عجلة السياسة والاعلام والعسكرية الاسرائيلية بدأت تدور معا فى أحكام شديدة ، وصارت لها أهداف مجددة :

١ - اظهار العرب فى صورة المعتدين الذين يريدون إبادة اسرائيل ، كغطاء لهجومها «الوقائى» فيما بعد . وكطريقة لأخذ أحدث المعدات الالكترونية بالذات والخبراء والمتطوعين من دول شتى . وقد تحقق لها الهدفان معا . اجتاحت العالم موجة من العطف على اسرائيل والعداء للعرب . وفتحت المخازن أمام اسرائيل وتقاطرت الطائرات عليها تحمل الاسلحة الدقيقة والفنيين.

٢ – إبقاء التوتر قائما حتى تستكمل عدتها ، دون أن تضيع خلال ذلك فرصة الحرب .

٣ – التنسيق الكامل مع أمريكا ، خصوصا فى مجال حمايتها سياسيا وعسكريا ، وفى التزامها بعدم السماح بحرمانها من ثمار النصر ..

من كتاب ميشيل بارزوهار ، العليم بالأسرار ومؤرخ حياة بن جوريون ، نجد هذه الوقائع :

– عندما عرض العسكريون خطة الهجوم كاملة على بن جوريون ، الذى كان متقاعدا منذ مدة ، وافق بعد تردد ، قائلا أنه يعتقد أن مصر لا تنوى الهجوم قط (ولكنهم كانوا يعرفون) .

– عندما قال ديجول لابا ايبان «لا تبدأوا الحرب» رد ايبان ردا مدروسا غامضا «ليس أمامنا إلا أمرين: الاستسلام أو المقاومة وقد عزمنا على المقاومة» .

ويعلق المؤلف الاسرائيلى قائلا أنه اختار كلمة «المقاومة» بدلا من الحرب ، يقصد تضليل ديجول ، دون الكذب الصريح عليه .

– عندما سأل الضباط الاسرائيليون ليفى اشكول رئيس الوزراء متى يبدأ الحرب رد عليهم قائلا «يجب أن نضمن عدم وقف عمليات الجيش تحت ضغط سياسى من الخارج»

رد دقيق يحدد تماما العلاقة بين النشاط السياسى والاعلامي وبين الهدف العسكرى !

- في الحديث عن التنسيق بين أمريكا واسرائيل قال يوجين روستو ، وكيل وزارة الخارجية الامريكية لسفير اسرائيل في واشنطن «اذا شئتم أن نكون معا أثناء الهبوط فعليكم أن توافقوا على وجودنا معكم ساعة الاقلاع !».

هذه الكلمة «المفتاح» كانت هامة جدا في تلك اللحظات ..

وما كانت تريده اسرائيل ، فوق تأييد «الرأى العام العالمى» ، هو ضمان موقف أمريكا بالذات ، التى كان تحالفها مع اسرائيل وتزويدها لها بالسلاح فى عهد جونسون قد صل إلى قمته ، وخلافها مع عبدالناصر في ذروته ، وكانت هى الدولة الكبري المؤهلة لأن تعطل أى حركة للاتحاد السوفيتي ، وتحقق لاسرائيل الحماية داخل الأمم المتحدة من أى قرار - كما قال أشكول لجنوده - «قد يوقف عمليات الجيش تحت ضغط سياسى من الخارج» ..

وكان لدى أمريكا اقتراح محدد لمواجهة قرار اغلاق خليج العقبة عند مضيق تيران هو أن تتوجه قوة بحرية دولية إذا أمكن ، وأمريكية إذا لم يمكن تشكيل هذه القوة ، وتخترق المضايق ذاهبة

إلى إيلات ، متحدية بذلك القرار .. وكان ماكنمارا وزير الدفاع فى ذلك الوقت ودين راسك وزير خارجيته قد قدما لجونسون مذكرة تخيره بين اختراق المضايق ، أو ترك اسرائيل تتصرف «وآثر جونسون تجربة الاقتراح الأول» .

وفى البداية اتصلت أمريكا بدول عديدة لمشاركتها فى تكوين هذا الاسطول ليتخذ صفة دولية ، ووافق هارولد ويلسون باسم انجلترا ، واتصل بكندا لاقناعها ، وامتنعت ايطاليا .

وليس لدينا كل التفاصيل ، ولكن القدر الثابت هو أن الولايات المتحدة اتخذت بنفسها هذا القرار وان البنتاجون طلب التفكير فى احتمال نشوب مقاومة من جانب مصر ، فطلب البيت الأبيض من قيادة الجيش وضع خطة انزال واحتلال وقتال فى سيناء عند شرم الشيخ ، وتم وضع هذه الخطة .

وحاولت أمريكا فى البداية اقناع اسرائيل بذلك وطلبت منها المهلة المعقولة لتنفيذ هذا القرار . وكان رأى أمريكا أن انزال هزيمة سياسية بعبدالناصر يساوى الهزيمة العسكرية فى أثرها . قال يوجين روستو للسفير الاسرائيلى وابا ايبان «سنمر بلا مقاومة ، فيكون هذا كالابرة التى تنفس البالون» .

ولكن تفكير اسرائيل كان مختلفا ، فماذا عن الأرض ؟ ماذا

عن فرصة التوسع التى لا تتم الا بالحرب والاحتلال ؟

لذلك عارضت اسرائيل بكل قواها هذا الاقتراح ، بحجة إن اعداده سوف يستغرق وقتا طويلا .

كان قرار اسرائيل هو نفسه ما رتبت له الحرب . ولكنها محتاجة إلى تجربة سلوك أمريكا معها إذا حاربت . واجتمع مجلس الوزراء الاسرائيلى وقرر عمل حيلة غريبة «للاختبار» . وأرسلت برقية عاجلة إلى واشنطن تبلغها أن القوات المصرية تحركت وانها على وشك الهجوم على اسرائيل خلال ايام . وانها مضطرة للعمل .

وتنبهت كل مراكز صنع القرار فى أمريكا . ولكن المخابرات ، ومراكز التجسس الآلية وغيرها من الأجهزة أجمعت على أن الخبر غير صحيح . وأنه لا توجد أى بادرة تدل على أن مصر سوف تهجم على اسرائيل ..

ومع مضى الأيام واستمرار حالة التعبئة فى اسرائيل ، رجح الرأى القائل «بترك اسرائيل تتصرف» . وطار ايبان مرة أخيرة إلى امريكا ليتأكد من أهم الأمور كما روى بنفسه فى مقابلة صحفية بعد سنوات من الحرب ، وهو «أنه اذا صدر من مجلس الأمن قرار بوقف اطلاق النار لا يقترن بذلك

النص التقليدى الآخر الذى يطلب من الأطراف المحاربة الانسحاب إلى خطوطها السابقة على القتال» .

وكان هذا هو جوهر القضية كلها ..

والباقى معروف ..

لقد نفذت يوم ٥ يونيو الخطة العسكرية الموضوعة منذ ست عشرة سنة ..

تماما كما نفذت سنة ١٩٤٨ الخطة العسكرية التى وضعت قبل ١٢ سنة فى حديث للجنرال يادين ، ثانى رئيس أركان حرب للجيش الاسرائيلى ، نشر فى جريدة معاريف يوم ٦ – ٥ – ١٩٧٢ بمناسبة مرور ٢٥ سنة على قيام دولة اسرائيل قال بالحرف الواحد «إن حرب ١٩٤٨ بدأت فعلا سنة ١٩٣٦ . ولولا الاستعدادات التى تمت وقتها لما كان باستطاعة الجيش الاسرائيلى الوقوف أمام الجيوش العربية . وقد استكملت الخطة سنة ١٩٤٢ ، إلا أنه لم يبدأ تنفيذها إلا قبل إعلان الدولة بقليل ، وقد تم تنفيذها كاملة» .

«وهذا ، في المرات الثلاثة ، فى وجه «لا خطة عربية» .

على أن القول بان حرب يونيو ١٩٦٧ كانت شركا منصوبا ، وأن عناصر الاستدراج الاسرائيلى كانت واضحة

فيه .. لا يجوز أن يعني بأى حال من الأحوال أن نعفى أنفسنا من المسئولية ونريح ضمائرنا بالتهرب منها .

ان تعليق مسئولية اخطائنا على شماعات الآخرين عادة شائعة . وهي عادة ذميمة . وأسوأ ما في هذه العادة الذهنية هى أنها تضللنا عن معرفة نواقصنا . وبالتالى نضيع على أنفسنا فرصة علاجها .

ان الشعوب تتعلم من هزائمها أكثر مما تتعلم من انتصاراتها.

وقد جرينا ، مثلا ، منذ زمان طويل على القاء مسئولية كل عيب أو تخلف لدينا على عاتق الاستعمار . ولاشك أن أحد حقائق الحياة العربية الراهنة - بل وحياة العالم الثالث كله - تركة الاستعمار الثقيلة التي خلفها وراءه بعد قرون من السيطرة والاستغلال والتحكم فى تشكيل حياتنا . ولكن معظم بلادنا امتلكت زمام نفسها خلال ربع القرن الأخير ، وصار فى مقدورها اتخاذ القرارات التى تمس حياتها بملء ارادتها : فيما عدا القدر الذي يراعى فيه على سبيل اليقين علاقات القوى وبقايا النفوذ الخارجي . وهو وضع يشمل دول العالم كلها كبيرها وصغيرها . فعالم اليوم المتشابك لا يسمح بحرية عمل مطلقة لأى دولة . ولكن يبقى الكثير الكثير مما تستطيع الدول والمجتمعات أن تخططه وترسمه لنفسها ، وتختاره لحياتها ..

ان اقامة الشرك ، والتمهيد له ، والأعمال المدروسة التي يقدم عليها العدو لاستدعاء رد فعل معين منا ، كل هذا صحيح . ولكن الوقوع في الشرك ، والانقياد له في الزمان والمكان المحددين من العدو ، لا يمكن أن يتم إلا بمساهمة منا ، والا كنتيجة لمحصلة حياتنا السياسية وتصرفاتنا في شتى المجالات .

ولو شئنا بناء على ذلك أن نحلل أسباب هزيمة ١٩٦٧ ، لاحتاج الأمر منا أن نحصي كل ما هو سلبي في حياتنا العربيةالمعاصرة . ولكن فضلا عن أن هذا قد يجنح بنا إلى المبالغة ، والظن المدمر بأن مجتمعا ما ، لا يمكن أن يكسب الحرب إلا إذا كان مجتمعا كاملا لا تشوبه شائبة ، فان هذا ليس موضوع الكتاب .

على أن هناك أسبابا وثيقة الصلة بما نحن بصدده ، بحيث لابد من تسجيل أبرزها ..

أولا – عدم فهم اسرائيل فهما عميقا . ان القارئ العربي اليوم قد يجد السوق مكتظا بالكتب والمؤلفات والمجلات عن اسرائيل . ولكن الغريب أن هذه ظاهرة جديدة صاحبت هزيمة ١٩٦٧ وكانت من نتائجها . قبل ذلك لم يكن يوجد إلا القليل النادر من الكتب الموضوعية حول هذا الموضوع ، موضوع اسرائيل ، رغم أنه أخطر ما يواجه مجتمعنا العربي من موضوعات .

ولا أضع في الحساب هنا كتب الدعاية والمجادلات والمناظرات . إن هذا بند آخر له مهمة أخرى . ولكنني أقصد الدراسة المعمقة لاسرائيل من الداخل ، بكل مقوماتها وعناصرها والقوى والمبادئ التي تشكل محركاتها وتستمد منها اسرائيل ديناميكيتها الخاصة بها .

وليست هذه مؤلفات فكرية ولا أبحاث تقف قيمتها عند حدود العمل الاكاديمي ولكنني أقصد أثر ذلك على تكوين فكر القادة العرب أنفسهم ، وكل الأجهزة المدنية والعسكرية التي تساهم في صنع القرارات السياسية آخر الأمر .

لو كانت لدينا هذه المعرفة وبهذه الأبعاد ، عن اسرائيل ، لكنا أدركنا الحقيقة الجوهرية وهي أن كلمة التوسع التي ننسبها إلى اسرائيل ليست مجرد وصف نميم لها ولكنها كلمة تصف مجمل فكرها ، وعقيدتها ، وأساسها الاجتماعي والاقتصادي ، والعوامل المتحكمة في سلوكها داخليا وخارجيا . ولادركنا أن سعى اسرائيل هو إلى الحرب وليس إلى السلام . وانها لكي تشن الحرب ، من منطلقاتها التي سبق ذكرها ، تعتمد أساليب محددة وظروفا لابد أن تهيئها .

أي بايجاز : لو كنا دارسين لها كما هي دارسة لنا ، لعرفنا تفسير تصرفاتها وردود أفعالها ، كما تعرف هي تفسير

تصرفاتنا ، وردود أفعالنا ، ولعرفنا كيف ندير لعبة الشطرنج الاستراتيجية ضدها كما عرفت هى منذ قامت كحركة صهيونية تريد بناء دولة .

وليست محصلة هذا الفهم هى أن نعرف كما قد يتبادر إلى ذهن البعض ،كيف نتجنب المواجهة العسكرية مع اسرائيل، لأن هذا شبه مستحيل ازاء خصم يرى أنه لا مفر له من التوسع ولا مفر من الحرب لتحقيق هذا التوسع، ولكن محصلة هذا الفهم هى أن نعرف كيف ومتى ندخل فى المواجهة العسكرية مع اسرائيل .. لا أن نمنحها فرصة القتال فى أى وقت تشاء هى ، بلا ترتيب ولا توقيت .

ان القتال محصلة جهد واعداد ودراسة وتهيئة ظروف استراتيجية عليا واسعة ، يبدأ بعدها القتال . وليس الأسلوب أبدا هو أن يبدأ القتال ، ثم نبدأ فى البحث عن الترتيب والتنسيق ورسم الاستراتيجية العليا والمباشرة والاستعداد وتهيئة الظروف .

ومن يراجع الشريط السريع لاحداث أواخر ١٩٦٦ وأوائل ١٩٦٧ يجد أننا كنا قد دخلنا بالفعل إلى المنطقة التي لابد أن تنتهى بالقتال ، دون أن تكون كل هذه الشروط السابقة متوفرة لدينا بأى معنى من المعانى .

ثانيا - الاستهانة بالخصم ، وهذا جزء من الجهل بحقيقة هذا الخصم ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك . ولكن هذا فى نفس الوقت بعد آخر من أبعاد عدم المعرفة والدراسة .

البعد الذى تحدثنا عنه فى بند أولا هو عدم معرفة كيف نواجهه ، أما هذا البعد ، أى الاستهانة به - فهو نوع من الكسل الذهنى والراحة المعنوية التى كنا نشتريها لانفسنا بالكلمات .

إن الجدل السياسى بين الخصوم يتسع لقاموس كبير . ونحن نستخدمه ضدهم وهم لديهم قاموسهم الاعلامى ايضا ضدنا . ولكن هذا لايجوز أن يصبح أساسا لمعلوماتنا وتفكيرنا .

حين نقول دولة العصابات وشذاذ الآفاق .. إلى آخره ، هذا شئ ، ولكن حين نتجاهل ما يقيمونه ويفعلونه ، والجهد الضخم المبذول لا لاقامة دولة قوية متقدمة ، ولكن فى الدرجة الأولى لتحويل الخليط المتنافر من المهاجرين من شتى أنحاء الأرض إلى قومية جديدة ، متعصبة ، يربونها على الشعور الدائم بالخطر ، وعلى أنه «لا هزيمة ولا مرة واحدة» وعلى «نقل المعركة دائما إلى أرض العدو» ، وعلى أنهم «شعب الله المختار» هذا كله كان كفيلا أن يجعلنا نعرف عناصر قوة العدو : ابتداء من المال المتدفق عليه ، إلى

عون الصهيونية العالمية له سياسيا واقتصاديا إلى تفاهم الدول الاستعمارية الكبرى ، فى مراحل تاريخية شتى ، إلى درجة التقاء مصالح هذه الدول مع مصالح اسرائيل فى المنطقة ... إلى أخره .

إن التقييم الحقيقى لقوة الخصم العسكرية والسياسية وعمق اتفاقاته ومحالفاته ، كل هذا يعتبر شرطا أساسيا فى التفكير الاستراتيجى لأى دولة كانت .

وهذا أمر يختلف تماما عن ما كنا نراه من قول رئيس دولة عربية فى مؤتمر القمة كما سبق ذكره : إن القضاء على اسرائيل لا يستغرق سوى ثلاث ساعات .

وانقلاب الصورة من الاستهانة قبل ١٩٦٧ إلى الأسطورة المبالغ فى قوتها بعد ١٩٦٧ ، ظاهرة من أهم الظواهر التى تستوقف النظر وتحتاج إلى علاج ، كظاهرة نفسية وفكرية ..

البديل عن هذا وذاك هو التقييم الموضوعى ، والحساب الدقيق والفهم : ساعتها لا تقع فى مخدر الاستهانة ولا فى وهم الأسطورة المخيفة .

ثالثا : العلاقات العربية العامة ، والحديث عن المرحلة التى تفصل بين حربى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، من زاوية العلاقات بين البلاد

العربية ، وبين الأحزاب العربية ، وبين القوى والتيارات السياسية والعقائدية العربية ، حديث يطول . وهي فترة سوف تحظى باهتمام عدد كبير من المحللين والمؤرخين . ولا مجال هنا لبحثها .

ولكن يمكن القول من جهة ، أن هذه المرحلة التي وصل فيها الصراع بين القوى والنظم والتيارات العربية أحيانا إلى درجة تشبه الحروب الأهلية ، كانت إلى حد ما مفروضة علينا بحكم المرحلة .

فالبلاد العربية كلها خارجة من ليل استعماري طويل، وعلى كاهلها تركة تخلف ثقيلة ، ثم انها دول متفاوتة في درجات نموها الاجتماعي والثقافي والحضاري ، وتعدد المستعمرين فيها شتت نظرتها ومزق عوامل الوحدة فيها . واختلاف المشاكل الاجتماعية من قطر إلى قطر ، وبالتالي اختلاف النظرة والحلول الممكنة ، اصطدم في نفس الوقت برغبة عارمة في التوحيد والتجميع تحت صور وأشكال شتى .

يضاف إلى ذلك ان كل ثورات القرون الماضية هجمت علينا دفعة واحدة فالثورة الاجتماعية والثورة العلمية والتكنولوجية وثورة السلع الاستهلاكية والآمال الفردية ، كلها تدق الأبواب وتتزاحم على الدخول في نفس الوقت .

وأخيرا فقد وقع هذا كله فى عالم تسوده الحرب الباردة وصراعات القوى والتنازع على مناطق النفوذ .

جزء كبير من مظاهر هذه المرحلة كان مفروضا علينا . كانت مرحلة مخاض أليم لأمة لها هذا الاتساع وهذا التنوع فى الظروف مع الرغبة العارمة فى التوحد .

وسيبقى سؤال مستمر ، هل كان ممكنا فى خضم هذا كله رسم استراتيجية موحدة ازاء اسرائيل أم لا . ولكن المؤكد هو أن اسرائيل ، كانت ترى في هذه الظروف سببا أدعى لكى تسرع فى مراحل «الحرب فالضم فالتوقف فالضم» ، قبل أن تتغير الصورة العربية كما لابد سوف تتغير ذات يوم .

على أن الشئ الذى لا يمكن أن يغفر أبدا ، إذا أمكن أن نفهم هذه الظروف كلها وما ساقت إليه من صراعات هو أن تكون اسرائيل والقضية الفلسطينية ورقة للمزايدة : أو للايقاع ببعضنا البعض .

ولكن هذا ما حدث . لم يكن هناك فقط الشقاق الذى دام ربع قرن فى صور شتى «الوحدة أولا ثم اسرائيل أم العكس» و«التقدم العربى أولا ثم اسرائيل أو العكس» .. إلى آخر هذه الموضوعات التى ظلت محل مناظرات مستمرة .. ولكن كان الأسوأ من ذلك أن

تكون اسرائيل مجرد بند في كل وثيقة اتهام من حكم إلى حكم ومن حزب إلى حزب وأن تكون ورقة في يد كل انقلاب يجئ بعد انقلاب ... أو موضوعا لمناورة من دولة ضد دولة لاثبات ايهما أكثر وفاء للقضية الفلسطينية .

لقد أدى هذا الوضع المحموم إلى خلق ضباب كامل فى الذهن العربي يحجب أى أسلوب لمعالجة القضية . وكما أنه أتاح الفرصة لكى يتنصل المتنصلون ، ويزايد المناقصون فانه قد أربك حتى المخلصين فى اتخاذ قراراتهم .

رابعا - إن انعكاس هذا على الأوضاع الداخلية لكل قطر عربى في حد ذاته أمر معروف وشائع .

وإذا نظرنا فقط إلى زاوية واحدة من زوايا هذه الانعكاسات ، زاوية بناء الجيوش كقوات محاربة ، فسوف نجد المقارنة فاحشة .

لقد أدت الانقلابات العسكرية المتوالية وانصراف عدد من قادة الجيوش من العسكرية الحرفية إلى القيام بادوار سياسية ، وإلى شغل هذه الجيوش عن مهمتها الاساسية . كما أنها أدت إلى تسريحات متوالية فى العناصر العسكرية ، التى انفقت بلادها عليها الملايين من الأموال والسنوات الطويلة من الوقت لكى تكتسب الكفاءة والخبرة والممارسة اللازمة.

هذا بينما نجد أن اسرائيل ، بالمقابل ، رغم تشابك المؤسسة العسكرية بجهاز الدولة في صورة خاصة بها ، إلا أن «الاستمرارية» المطلوبة فى الجهاز العسكرى كانت متوفرة إلى أقصى حد. فمعظم قادة الجيش الاسرائيلي ووحداته فى المستويات العليا والمتوسطة هم أنفسهم الذين حاربوا جنودا فى فرق الهاجاناه قبل قيام الدولة ، ثم فى الجيش الانجليزى أثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم فى حروب ٤٨ ، ٦٧ ، ١٩٧٣ . ونظام الاحتياطى هناك مرتب بطريقة تسترجع إلى صفوف الجيش ساعة القتال كل قياداته حتى التي تركته إلى الحياة المدنية ، ولانها تجعلهم حتى وهم فى الاحتياطى لهم مناصب ساعة القتال ولهم شهور تدريبية كل سنة ، ولهم دراية بالخطط الموضوعة وبتطويرها المستمر بناء على المعطيات الجديدة أو الأسلحة الحديثة .. وخطة الحرب عمرها ١٦ سنة ، وتطويرها باستمرار لم يكن ممكنا بغير هذا الاستمرار .

هذا بينما كان الضباط العرب المسرحون بالآلاف ، والمئات منهم علي مقاهي بيروت وأوروبا ..

كذلك فان اعتماد عنصر «الأمن الداخلي» والصداقات وأبناء

«الدفعة الواحدة» وغير ذلك من العلاقات المتخلفة فى مجتمع آخذ فى التطور ، لم يكن دائما يعطى المنصب للكفاءة وحدها . الأمر الذى تكون له عادة انعكاسات خطيرة ليس على كفاءة القوات المسلحة وحدها ، ولكن على روحها المعنوية بوجه عام .

خامسا - ولعلى أبقيت هذا العنصر حتى النهاية ، رغم أنه كان يستحق أن يكون فى البداية لأهميته .

هذا العنصر هو : عدم وجود تصور عربى مدروس أو متكامل أو حتى شبه متكامل لاستراتيجية عامة فى مواجهة المشكلة الفلسطينية ، وبالتالى فى مواجهة اسرائيل ..

إن الحرب - كما قال الخبراء مرات كثيرة - هى استمرار للسياسة ولكن بوسائل أخرى .

أى أنه لا توجد حرب مجردة . لا توجد حرب للحرب . ولكن الحرب الناجحة تنطلق دائما من اطار استراتيجية سياسية عليا ، تجد أن انجاز هدف لها فى مرحلة معينة ، أو افساد هدف للعدو ، لا وسيلة له سوى الحرب . وبعد ذلك: كل حرب لابد أن تنتهى ، عند هدفها المحدد أو أكثر أو أقل ، لكن المهم ، مع الحرب ، أن يكون جاهزا فى ذهن القيادة السياسية العليا : ماذا بعد الحرب ؟ .

اسـرائيل لديها اسـتراتيجية سـياسية عـليا بما فيها سلاح الحرب .. كما ذكرنا من قبـل . هـدفها الأعلى هـو التوسـع . والتوسـع بانتهاز الفرصـة ، وتهيئـة الظـروف ، ثم شن ضـربة سـريعة تضم بها أرضا جـديدة . وهذا يقتضى منها استعدادا عسـكريا دائما أولا لتكون جاهـزة لانتهـاز الفرصـة الهجـومية إذا سـنحت فى أقصـر وقـت . وثانيـا أن تكـون جـاهزة إذا تعـرضت هى للهجـوم بالرد السـريع ونقـل القتـال فـورا إلى أرض العدو ، نظرا لأرضها المحدودة ..

فماذا كان هدف السياسة العربية الاستراتيجية ازاء اسرائيل في ربع القرن الماضى ؟

لو كان الهدف إزالة اسرائيل حقا ، لوجدنا ترتيبات واعدادات وأولويات سياسية وعسكرية غير ما رأينا .

ولو كان الهدف ردع اسرائيل عن العدوان فقط ، حتى تتحول الصورة الدولية ، وتقوى الصورة العربية ، فقد كان هذا يستلزم اجراءات سياسية وعسكرية من نوع آخر ...

ولو كان الهـدف فى حـالة الحـرب انتهـاز الفرصـة والحـاق هزيمة مـحـدودة باسـرائيل هى كل ما تسـمح به ظروف علاقات القـوى المحلية والعـالمية : كتدمير الجيـش الاسـرائيلى والحـاق

خسائر فادحة به فحسب ، أو كدفع حدود اسرائيل إلى خطوط تقسيم سنة ١٩٤٨ ، مع كل انعكاسات هذا أو ذاك على كيان اسرائيل وفلسفتها ، وعقيدة تفوقها ، وتوسعها ، وتدفق المهاجرين عليها ، إلى آخره : لو كان هذا هو الهدف ، لكان يستلزم سياسة عسكرية وسياسية من نوع ثالث ..

ولكن يمكن القول باطمئنان ، أنه على المستوى العربى فى عمومه ، لم تكن هناك أى استراتيجية محددة متفق عليها من هذا النوع .

وبالتالى لم يكن هناك أى تصور لكيفية تطوير قضية الشعب الفلسطينى ، بوصفها حجر الأساس فى أى استراتيجية من هذا النوع ..

وكل العوامل السلبية التى ذكرناها سابقا عن الموقف العربى العام بين سنتى ١٩٥٦ و١٩٦٧ ، أدت إلى الفقدان التام لمثل هذه الاستراتيجية الموحدة ولو فى خطوطها العريضة ..

ولقد كنت أتساءل ، ساعة أن تنادى العرب بارسال قواتهم على عجل إلى الجبهات المختلفة ، حين أصبح القتال وشيكا : ترى هل لدى هذه القوات المختلفة تعليمات واضحة تنبع من استراتيجية عليا ؟

إذا انتصرت ... ماذا ستنوى فعله بهذا النصر ، وكيف تتصرف به ؟

لا أظن أنه كان هناك شئ من ذلك . لقد تحرك العرب ساعة الخطر بغريزة درء الخطر وبكوامن الوحدة فيهم ، ولكن ليس بالخطة المسبقة والحساب .

هكذا سيرت جيوشنا إلى ساحة القتال سنة ١٩٦٧...

ليس هناك ادراك كامل بابعاد رد الفعل الاسرائيلى ، فمن بعد أن تأكد أن الحرب واقعة ، ظلت معظم تقديرات الأجهزة العربية تعتقد أن اسرائيل ستشن حربا بقصد فتح خليج العقبة : أما بالاستيلاء على المضايق وعدم الانسحاب إلا بعد ضمان فتحها، وإما الاستيلاء على قطاع غزة ثم المساومة على الانسحاب منه بفتح المضايق وربما بالاعتراف أو بأى كسب سياسى آخر .

ليس هناك استعداد عسكرى كاف بخطط سياسية عسكرية منوعة على جبهة من الجبهات .

مشاعر متناقضة من التخوف والتحسب فى جهات ، إلى الظن بأنها نزهة عسكرية في جهات أخرى .

صياح من كل مكان ، ومطالبات شتى ، الكثير منها ينطلق من دوافع واعتبارات لا صلة بينها وبين قضية فلسطين كنواة ، أو قضية المواجهة العربية الاسرائيلية كاطار شامل .

وكان الذى ظلم هو الضابط المصرى والجندى المصرى ، والضابط العربي والجندى العربي .

فالحروب اليوم ، ومنذ قرون ، ليست حروب قبائل ، سلاحها الأول هو الشجاعة والبطولة والتضحية . ولكنها حرب معقدة سلاحها التنظيم ، والاعداد الطويل ، على الساحتين السياسية والعسكرية معا .

ولقد يقول قائل : ولكن هذه كلها ظروف تسبق الاشتباك القتالى ذاته ، والذى يفترض فيه أن القوات المسلحة ، مهما كانت الظروف التى ساقتها إلى القتال تظل قادرة على خوض معركة قتالية أقل ما يقال فيها أنها تختلف عن الانهيار الشامل الذى حدث فى يونيو ١٩٦٧ .

وهو قول فى محله ..

ولكن مجموع الظروف السابقة ، والتى تحسم فى الحقيقة نتيجة المعركة قبل بدايتها أدت إلى الأحداث التى باتت معروفة ، ولم تعد سرا على أحد ...

.

فالسرعة التى تمت بها تعبئة القوات فى سيناء ، لخوض معركة مصيرية ، أدت إلى وضع القوات المسلحة فى أدنى استعدادها وليس فى أعلاه ، كما يفترض . كانت نسبة الاحتياطى غير المدرب عالية جدا ، للرغبة فى التأثير على العدو .. «بحجم القوات» فى حين أنه لم يكن ممكنا خداع العدو بهذا الاسلوب .

وكانت خطط الدفاع المرسومة من قبل سنوات قد أهملت تماما . اقتناعا من القيادة أنها معركة سياسية وليست عسكرية ، وبالتالى فالطابع الاستعراضى و«اظهار ما لدينا» غلب على طابع الحرب الحقيقى الذى يلزمه التربص ، والتخفى ، والخداع .

والقوات النظامية كانت موزعة بين اليمن ومصر ، وكان بعضها يصل بالسفن بعد رحلة بطول البحر الأحمر ويتجه فورا إلى مواقع له فى سيناء .

• والبلبلة فى تقارير المعلومات عن احتشادات العدو ، والتقدير السياسى أنها على الأغلب ستكون حربا محدودة ، جعل هذه الحشود من القوات تصدر لها أوامر متوالية ومتناقضة ، بالتركيز على الجنوب حيث سينزل الاسرائيليون فى شرم الشيخ ، أو -

بالاتجاه شمالا حيث سيهاجمون قطاع غزة . الأمر الذى أرهق القوات المدرعة بالذات واستنفد طاقة عجلاتها التى لها أميال معينة لا يجوز أن تقطعها قبل القتال ، وطاقة الوقود الذى تسير به ، وارتبك الامدادات فى كل شئ من الذخيرة إلى الطعام لهذا وراء قوات تتحرك باستمرار وأحيانا غير معروف مكانها .

ثم الغلطتان التاريخيتان اللتان لا يكاد المرء يجد تفسيرا لهما:

الأولى – منع التصدى لأى طائرة فى الجو في صباح يوم ٥ يونيو بالذات ، لأن قائد عام القوات المسلحة ومعظم أفراد قيادته كانوا ذاهبين إلى مطار متقدم فى سيناء ، وكانت تلك الساعة هى التي وصلت فيها الموجات الأولى من الطيران الاسرائيلى إلى معظم المطارات المصرية ودمرتها ..

والثانية – صدور أمر الانسحاب بعد أقل من ٢٤ ساعة من بدء القتال . وقد صدر أمر الانسحاب شاملا لكافة القوات ، بأن تعود إلى غرب القناة وصدر رأسا إلى القوات فى مواقعها ، دون حتى إبلاغ قيادات الميدان المسئولة . الأمر الذى يكفى لبعث الفوضى واليأس والاضطراب فى صفوف أحسن الجيوش وهى في غبار المعركة فى غيبة عن معرفة الصورة كاملة .

وليس أدل على جو عدم الاستعداد للقتال فى السنوات السابقة، وعدم أخذ نوايا اسرائيل العدوانية التوسعية مأخذ الجد ، مما أعلن رسميا بعد ذلك ، من انه لم يكن لدينا يوم القتال أكثراً

من ١٢٥ طيارا مستعدا للقتال فورا ، في الوقت الذى كان معروفا فيه تركيز اسرائيل الشديد على سلاح الطيران ، وبعد تجربة دور الطيران الحاسم في حرب ١٩٥٦ ، وما هو معروف من قدرة اسرائيل على حشد عدد من الطيارين أكثر مما لديها من طائرات، مما يضاعف عدد الطائرات الموجودة في سماء المعركة .

ولأنه لم يكن المعيار الوحيد في اختيار القيادات هو الخبرة العسكرية والكفاءة - والاحتراف العسكرى ، وتوهم أن الأمر مظاهرة سياسية أو نزهة عسكرية ، تولي بعض القيادات في آخر لحظة عدد من الضباط الذين تنحصر صفاتهم في أنهم «من المقربين» ، ربما انتظارا لساعة توزيع الأوسمة والنياشين ..

ولكن هذا كله لم يمنع الضباط والجنود - كلما أتيحت لهم الفرصة من التعليمات الثابتة والقيادة السليمة والعتاد والذخيرة ، من أن يقاتلوا قتالاً باسلا ، ولم يمنع من أن يخترق لواء مدرع حدود اسرائيل ذاتها ثم يعود طبقا لأمر الانسحاب غير المفهوم الذى صدر إليه ، ولم يمنع أن قادة ألوية ووحدات وكتائب فضلوا الاستشهاد في مواقعها تأمينا لانسحاب جنودهم .

ولعله قد آن الأوان ، وقد فات ما فات ، أن ينشر سجل هذه الأعمال البطولية ، وتسجل أسماء أبطالها ، فليس أهم لأى قوات مسلحة من تراث تفخر به من الأسماء التى ضحت والمواقف التى يجب أن تظل نموذجا ومثالا لمن يجيئون بعدها ..

عناصر الأسطورة

كان الانسان دائما عبر تاريخه يخاف المجهول .. المجهول الذى لا تفسير له ، وبالتالى ينسج حوله الأساطير .

كان الإنسان الأول مثلا يخاف الزلازل والبراكين والأمطار ، ويعبد الشمس . ذلك أنه لم يكن يعرف تفسير هذه الظواهر ، فحولها إلى مظاهر من غضب الآلهة أو رضا الارباب .

وقد حاولت اسرائيل أن تجعل من نفسها أسطورة معاصرة . يهذا يحبها الناس أو يكرهونها ولكنهم في كل الحالات يخافونها . يظنون أنها دولة خارقة بين الدول . ومجتمع لا سابق له بين المجتمعات وانها فى نهاية الأمر لا تقهر .

وكانت هذه من ناحيتها خطة نفسية مقصودة ، فتكون من ناحية محل اعجاب وتأييد تلقائى ومطلق من مجتمعات كثيرة فى العالم ، بوصفها الدولة الحلم ، الدولة المعجزة . ولتكون من

ناحية أخرى شيئا مخيفا بالنسبة لاعدائها ، انها كيان لا يغفو ولا يقهر ، ولا يمكن اللحاق به .

ولم يكن هذا الاختيار غريبا على شعب اختار لنفسه أن يقوم كيانه وتبنى عقيدته على أساس أسطورة أخرى قديمة وهى أنه «شعب الله المختار» .

وقد ساعد الكثيرون منا على تجسيد هذه الصورة الأسطورية سواء بالاحتماء وراء الجهل باسرائيل ، والجهل هو أكبر مولد للأساطير ، أو بعدم التدقيق فيما تقدم اسرائيل من أعمال أو معلومات ، أو بالفرار إلى الغيبيات فى تفسير هزائمنا وانتصاراتها ، فرارا من مشقة البحث العلمى للموضوع ، الذى إذا عرف سبب هطول المطر توقف عن الخوف منه ، وبحث فى وسيلة لاتقائه ومواجهته أو لاستخدامه .

ولذلك ، فنحن حين نحاول أن نحلل عناصر الأسطورة ، نحاول شيئا آخر تماما غير مجرد الحاق كل النقائص والعيوب بالخصم. لأن هذا أيضا ضد التأمل العلمى والموضوعى . ولأن الاستهانة المطلقة بالخصم والتى شاعت على أقلام وألسنة كثيرة ، كانت سببا ، عندما فوجئنا بصدمة ١٩٦٧ الهائلة ،

فى تغذية هذه الأسطورة ورد ما حدث لأسباب غيبية ، إذ بدا انتصار دولة صغيرة صورناها على أنها ممزقة مهلهلة ضعيفة شيئا يعلو على التفسير ، شيئا كأنه من ظواهر الطبيعة التى لم يكشف العلم عن أسرارها بعد .

دحض عناصر الأسطورة إذن ليس معركة اعلامية هدفها الاستهانة بالعدو . ولكن معناه استخدام سلاح الفهم والتحليل فى فهم عناصر هذه الأسطورة . ساعتها يزول عنها السحر ، ونعرف الوهم من الحقيقة ، ونستطيع أن نتعامل مع هذه الحقيقة ونجد الاسلوب لمواجهتها ، مهما بلغ من جبروتها ..

انها مثل ذلك الساتر الرملى الذى أقامته اسرائيل على حافة قناة السويس مباشرة وحاولت أن تقول أنه حاجز لا يمكن اختراقه ، ولغز لا يمكن تفسيره . ولكن الذى حدث أن العسكرية المصرية ، بأجهزتها الفنية والعلمية عكفت على التحليل والتجربة والتفكير ، حتى وجدت الحل لاختراقه .. الحل الذى بدا بالنسبة لاسرائيل لغزا غريبا ..

اننا لا يجب أن نقلل من شأن العدو . بمعنى أننا لا يجب

أن نستهين بالعناصر الديناميكية التي تحركه ، وتدفعه إلى العمل ، وبذل الجهد ، والتماسك المطلق ساعة الخطر ، والاستماتة في الدفاع عن البقاء ..

فمنذ يولد الطفل في اسرائيل ، ومنذ يبدأ في الذهاب إلى المدرسة ، وفي قراءة كتب الأطفال ، يوضع في طقس نفسي معين حتي يخرج في القالب الذي أرادته له قيادته ..

انه منذ الطفولة يربي - دينيا - علي أسطورة أنه شعب الله المختار ، وأن الله قد ميزهم عن سائر الشعوب في الصفات والمواهب وفي الحقوق ، وفي مقدمتها حقهم في الأراضي التي يسمونها أرض اسرائيل التاريخية ، والتي لو ترك لهم العنان لضموا إليها كل أرض سارت فوقها قبيلة عبرانية في المنطقة منذ ألفي سنة إلى الآن ..

ويربي هذا الطفل على أنه صاحب رسالة فذة ، ولذلك فهو كشعب كان محل أضطهاد دائم من كل الدول والشعوب عبر القرون ، وأن هناك نبوءة دينية تاريخية ببعثهم ، وعودتهم إلى السيطرة من جديد .

ويربى الطفل على أن اليهودى له طقوس وعادات ، ولا يعترف بيهوديته إلا من كانت أمه يهودية ، ضمانا لنقاء الدم . وبالتالى فهم «قبيلة واحدة» وسلالة واحدة سواء كانوا فى جبال اليمن أو سهول أوكرانيا .

ولأنه من شعب مختار ، كتب عليه أن يكون قليل العدد ، محسودا فى أحسن الأحوال ومضطهدا فى أسوئها من الآخرين ، فكل الآخرين ، كل الآخرين ، بالنسبة له أغراب . وعليه بالتالى أن يسعى للتفوق دائما على الآخرين : أن يكون الأغنى أو الأدهى أو الأذكى أو الأقوى .

ثم انهم يعززون هذا كله بالانجاز الفذ الذى حققته الحركة الصهيونية . فمن شتات فى أنحاء العالم ، ومن خلال ظروف دولية شتى ، ومن خلال نضال دام سبعين عاما ، تحول الحلم الذى كان أسطورة وهو قيام دولة لاسرائيل فى أرض الميعاد إلى حقيقة، فلماذا إذن لا تصبح سائر الأساطير ، ولماذا لا يضعون زعماءهم فى تلك الحقبة في مصاف أنبياء العهد القديم .

ألا يعنى هذا ، في لغة ما ، أن ثمة ما يشبه القوة المنظورة ، والقدر الذى لاراد له ، يساعدهم فى مشروعهم بالاضافة إلى كل ما يبذلون من مجهود ، أو يعنى فى لغة أخرى، ان حركة

التاريخ فى اتجاه حركتهم ، وأن الفكرة الصهيونية صحيحة فى اطار منطق التاريخ الراهن ولذلك فهى تتحقق ؟ أو فى القليل أنهم فعلاً لديهم كفاءات ليست لغيرهم وقدرات ومواهب أعلى من سواهم ؟ ..

وفوق هذا الأساس ، تتبنى كل تفاصيل الأسطورة ، وتمتد فروعها . حتى تصبح غابة كثيفة من الأساطير ؟ ..

على أننا ونحن لسنا بصدد تحليل الحركة الصهيونية أو دولة اسرائيل ، لابد لنا من أن نقف ولو بسرعة عند الوجوه الثلاثة المعاصرة للأسطورة ، الوجه السياسى ، والوجه التعميرى ، والوجه العسكرى . وذلك فى ايجاز شديد يقف عند مجرد ذكر «جذور» القضية ، دون التطرق إلى فروعها ..

بالنسبة للوجه السياسى فان جوهر النجاح الاسرائيلى كان فى الحركة الصهيونية وجدت منذ البداية أن هناك عالما غربيا مختلفا فى أواخر الظلام العثمانى الذى ساد قرونا طويلة وأن أوروبا القوية النامية الاستعمارية فى مرحلة امتدادها الاستعمارى ، هى التى ستكون الوارثة الحقيقية لهذه الامبراطورية العثمانية العجوز

وفي نفس الوقت كانت مشكلة اضطهاد اليهود في أوروبا قد ألقي عليها الضوء أكثر وأكثر لسببين ، الأول تزايد هذا الاضطهاد في شرق أوروبا ، والثاني انتشار حركة التنوير في غرب أوروبا وانحسار عهد التفرقة والتعصب الديني بالتدريج .

وكان أمام اليهود أما حل الاندماج في مجتمعاتهم وأما حل الهجرة وتأسيس كيان خاص بهم يصبح مع الزمن دولة ..

ونلاحظ أنهم حتى الآن مازالوا موزعين بين الحلين ، أو بالأحرى يحاولون الجمع بين الحلين : فالأغلبية من اليهود اختارت البقاء في الخارج والاستفادة من مزايا مجتمعاتها ، ولكنها في نفس الوقت تشجع قيام دولة لها في مكان ما تكون سندا لليهود اينما كانوا ..

ولكن المهم أن الحركة الصهيونية ، التي نشأت في رحم أوروبا ، مستفيدة من التقدم الأوروبي ، قدمت حل الوطن القومي لأوروبا وهو حل مريح لها ، ورسمت سياستها من البداية على التمسك بذيل الدولة الاستعمارية القوية التي ستكون لها السيطرة على تلك المناطق المتأخرة ، أي على أن تركب قطار هذه الدولة الاستعمارية في رحلتها إلى حيث تريد .

هكذا ، لم تكن الحركة الصهيونية من البداية وحدها ضد العرب ، ولكنها كانت مع أوروبا وانجلترا بالذات ضد العرب ، ثم مع أمريكا ضد العرب .

وكان طبيعيا أن يكون العالم القوى الاستعمارى معها ضد العرب ، وهي أولا تعرض خدماتها عليه ، وتقنعه بأنها ستكون القلعة التى تؤمن مصالحه فى المنطقة ، فى حين كان العرب وقتها أشبه بقبائل وعائلات تابعة لامبراطورية متآكلة ، وأبناء تراث بدا وكأنه يندثر ، ومع ذلك فان يقظتهم معناها قيام وجود قوى منافس للقوى الأخرى وقادر على الاستقلال عنها، فى حين أن اسرائيل مهما نمت فستظل غير قادرة على هذا الاستقلال الخطر على الدولة الاستعمارية الكبرى .

صحيح أن الحركة الصهيونية ناضلت فى فلسطين منذ سبعين سنة ، وانها أقامت المستعمرات وعمدت إلى سياسة خلق الحقائق الانتاجية والسكانية الجديدة ، ولكن هذا كان بقرارات صدرت في لندن وباريس وواشنطن ونيويورك . لقد قام وايزمان وبن جوريون بأدوارهم ولكن الذين أقاموا الدولة هم لويد جورج وتشرشل وروتشيلد وترومان وغيرهم .

ليس فى الأمر إذن أسطورة . ولكن فيه معنى المرحلة التاريخية التى كانت فيها الغلبة مطلقة للدول الاستعمارية ضد العالم العربى ..

وحين أخذ العالم العربى يستقل بالتدريج ، ويقوى بالتدريج ، واخذت العلاقات الاستعمارية تشحب فى العالم بوجه عام ، بدأ العرب يجدون لأول مرة أصدقاء لهم فى العالم وحلفاء .

فالمرحلة التاريخية التى كان فيها قدر المنطقة يرسم كله فى عواصم أخرى ، تلك المرحلة التى أقامت اسرائيل ، قد انتهت وبدأت مرحلة تمرد ، صار فيها دور العرب في رسم مستقبلهم يزداد تدريجيا بالنسبة إلى دور هذه القوى الخارجية . وبالتالى لابد أن يكون لهذا انعكاسه فى مستقبل المواجهة العربية الاسرائيلية .

وبالنسبة للوجه الخاص بالتعمير والبناء والتنمية واقامة الدولة ...

لقد خلقت اسرائيل فى هذا المجال أسطورة أخرى . فكأنهم نوع آخر من البشر يلمس التراب فيتحول إلى تبر . والكتب والأفلام والمقالات والدراسات الاسرائيلية لا آخر لها عن الأرض الخراب التى تحولت إلى مدن .. والمستنقعات المملوءة

بالأوبئة التى تحولت إلى مزارع خضراء . ومعدلات النمو الهائلة . والتكنولوجيا التى وصلت إلى صناعة الأسلحة والطائرات والألكترونيات المعقدة .

لاشك أن اسرائيل قد حققت نتائج ضخمة في مجالات التقدم كلها . ولكن العناصر المساعدة التي مكنتها من ذلك لم تتوفر لأى قطر آخر على الأرض ..

وهى لم تبدأ من حيث بدأت الدول النامية ، كما تحاول أن تزعم حين تجعل نفسها مثلا فذا لم تحققه أى دولة نامية .

انها لم ترث تركة ضخمة من الأمية والتخلف ، لأنها قد استوردت شعبا بكامله من المناطق المتقدمة نسبيا من العالم .

ثم انها لم تغتصب أرضا خرابا ولكنها اغتصبت أغنى مناطق فلسطين الزراعية المشهورة بزيتونها وحمضياتها وسائر زراعاتها ، ومع ذلك فهى بعد سبعين سنة من الاستيطان ، وربع قرن من قيام الدولة ، مازال أهم بند فى صادراتها هو الحمضيات وسائر المواد الزراعية .

وإذا كانت التنمية وقودها رأس المال ، فقد تدفقت على اسرائيل من الخارج أموال لم يتدفق مثلها قط على أى بلد فى مرحلة البناء والتنمية : آلاف ملايين الدولارات من اليهودية

العـالمية .؛آلاف الملايين الأخرى من التعويضات الألمانية ، آلاف ملايين من المساعدات الأمريكية وغير الأمريكية فى صور شتى مباشرة وغير مباشرة . فحظ الفرد الاسرائيلى من المال الآتى من الخارج لا يقل عن عشرة أمثال حظ أى فرد فى أى بلد فى مرحلة التنمية .

ولم يكن لدى العرب ، قبل البترول ، وفى السنوات الأخيرة بالذات ما يمكن أن يكون «مالا» وعملات صعبة توازى ما يتدفق على اسرائيل بأى معيار خصوصا إذا أخذنا فى الحساب عدد السكان العرب المحتاجين إلى عمل ، وتعليم ، وخدمات ، ومرافق ، وغيرها .

لا تقاس معجزة التقدم الزراعي الاسرائيلي ازاء المال والآلات والخبرات المتدفقة عليه بمعجزة الفلاح الفلسطيني الذى طرد من الأراضى الزراعية الخصبة فى فلسطين سنة ١٩٤٨ إلى المناطق الرملية والصخرية ، فدفعته حاجة الحياة إلى أن يستصلحها بأظافره ويحولها إلى مزارع زيتون وبيارات برتقال وحدائق فاكهة جديدة .

وكما نجحت اسرائيل سياسيا فى أن تمسك بذراع الدول الأقوى سياسيا ، فكذلك فعلت منذ نشأتها فى

المجـال العلـمى . وساعدها على ذلك إلى حـد كبـير وجود الخبـرات اليـهودية مـن ذوى الولاء المزدوج فـى كل مجـالات التخصص العلـمى المتقدم فى الخارج .

وعندما نراجع الأبحاث العلمية المشتركة التى تجريها أمريكا بأموالها وخبراتها فى العالم الخارجى ، خصوصا فى المجالات ذات الصلة بالجانب العسكرى ، نجد أن اسـرائيل تأتى بعد انجلترا مباشرة فى عدد المشروعات العلمية الأمريكية التى تجرى بالاشتراك مع دول أجنبية .

ومن يراجع ميزانية اسـرائيل ، وعجـز ميزانهـا التجـارى ، ونسبـة ديونها ، يكاد لا يجد لها مثيلا بالنسبـة لأى دولة أخرى فى العالـم : ذلك أن الاعتماد الأكبـر حتى الآن مازال على المال الخـارجى والتبـرعات الأجنبـية يهـودية وغير يهودية . وذلك بعد أكثر من ربع قرن من قيام الدولة .

بل أن اسـرائيل قـبيل حرب ١٩٦٧ كـانت على أبواب كـارثة اقتصـادية بكل أبعـادها ، من بطالة وهبـوط فى معدل التنمـية وعجـز وديون وهبوط فى الهجرة اليهـا وتصـاعد فى الهجـرة منها ، لسـبب رئيسى هـو أن عشـر سنوات من السكوت قللت من الحماس الخـارجى لها ، ومـن نزعة الخـوف على مصـيرها

المهد ، وحين تقابل ذلك بمعدل نموها بعد الحرب ، نجد إلى أى حد هى تستفيد من الحرب واستمرار التوتر ، ونفهم معنى كلمة بن جوريون أن اسرائيل محتاجة إلى خمسين سنة من التوتر حتي تتمكن من البقاء ...

أما عن الأسطورة العسكرية ، فقد كانت أخطر هذه الأساطير جميعا ، وأكثرها فاعلية في تدمير النفس العربية فى بعض الظروف وأشد أسلحة الحرب الاسرائيلية النفسية فتكا ...

وفى البداية يجب أن نسجل أن التفوق العسكرى ليس معناه بالضرورة التفوق الشامل فى كل شئ ، وإن كان أثره كبيرا ، لأن الصدام العسكرى بطبيعته دراما انسانية كبرى تستنفد كل مواهب الأمة وطاقاتها وتجعلها تجتاز أقسى امتحاناتها ، وتتقرر فيها أمور الحياة ، البقاء والفناء وما تحدثه الحرب فى أيام تتأثر به سائر العناصر من سياسة واقتصاد واجتماع لعشرات السنين ..

ولكن يحدث أحيانا أن تبدو المقابلة بين مجتمعين فى غير حجمها الطبيعى ، خلال فترة معينة لأسباب خاصة ..

فحين يركز مجتمع أكبر قدر من قواه واستعداداته وموارده

وتنظيم حياته لحرب معينة يفاجئ بها مجتمعا آخر لم يرتب نفسه على نفس النمط فان المجتمع الأول يتمكن من احراز نصر عسكري باهر ..

فعلت هذا ألمانيا الهتلرية مثلا . فمنذ تولى هتلر السلطة وقرار ألمانيا الحقيقي هو الحرب ضد الأعداء الأوروبيين . وبالتالي دارت كل عجلة في ألمانيا في هذا الاتجاه : نظام الدولة السياسي ، طرق مواصلاتها ، نوع صناعاتها ، مجالات البحث العلمي فيها ، تدريب الأفراد وتهيئتهم ، التعبئة النفسية والفكرية والتعليم في المدارس ... كله كان يصب في نهر واحد هو الحرب . هذا في الوقت الذي كانت فيه سائر دول أوروبا مشغولة بخطر الحرب ربما ، ولكن انشغال من يظن أن هذا الخطر قد يأتي وقد لا يأتي ، وبالتالي كان انشغالها أكبر ممارسة شتى وجوه حياتها ، بأولويات مختلفة تماما ..

ونتيجة لهذه المقابلة تمكنت ألمانيا من سحق كل خصومها من الدول الكبرى في سنوات قليلة .

ولكن هذا لم يعكس كل علاقات القوى الكامنة في المعسكرين انعكاسا حقيقيا في حجمه الحقيقي .

فالقوى الصناعية والبشرية والعلمية والجغرافية وغيرها الكامنة لدى الحلفاء ، كانت أكبر بكثير . ولكنها لم تكن كلها موجهة فى اتجاه واحد ، كقبضة اليد حين يضمها صاحبها ويرجه بها ضربة ، مستخرجا أقصى قوته .

ولذلك حين أفاق الحلفاء من الصدمة ، وتمكنوا من استيعابها ثم بدأوا يستخدمون كل قوامم الكامنة ، لم يكن صعبا التنبؤ بالنتيجة وهى هزيمة المغامرة الألمانية .

اذن : فالعنصر العسكرى فى لحظة معينة أحيانا يكون ترجمة صحيحة لمجموع عوامل القوة والبقاء فى مجتمعين متقابلين ، فساعتها تكون لهذا النصر آثاره الباقية . وأحيانا يكون ترجمة للحظة معينة ، لا تعبر عن حقيقة علاقة القوى فى مجملها بين الطرفين فلا تكون ترجمة صحيحة ويصبح من الممكن تغيير كفة الميزان التى اختلت .

وقد وجهت اسرائيل كل ضرباتها العسكرية للعرب في مثل هذه الظروف :

مجتمع حرب بكل معانى الكلمة وأدقها بأى مقياس لأى مجتمع فى التاريخ ، يعاجل خصمه – وهو مجتمع غير مستجمع نفسه للحرب – بضربة يسبقها إعداد وإحكام وترتيب وتصميم ..

وقد كان هذا ممكنا لسببين (وهنا نسترجع بعض ما ذكرناه من قبل) أحدهما كل مشاكل النمو ومخاض التقدم والخروج من التخلف الذى مازال العرب خارجين منه ، وهو وقت يغرى اسرائيل بالاسراع فى توجيه ضرباتها ، كما تفاجئ النائم الذى يستيقظ ، وهو مازال بين اليقظة والمنام ، فتنال منه مالا يمكن أن تناله حين يستكمل يقظته .

وثانيهما أن العرب رغم قناعتهم اللفظية ، لم يدركوا فى قرارة نفوسهم تماما أن جوهر السياسة الاسرائيلية لابد أن يكون قائما على أساس «حرب كل جيل ، أو كل فرصة» حتى تتم لها حدودها .التي تريدها ، وكيانها الذى تطمع اليه ، وحتى تتبدد مخاوفها التي تؤرقها من لحظة «تمام اليقظة العربية» التى تشعر انها آتية ذات يوم .

هكذا قال جنرالات اسرائيل أنفسهم أن حرب ١٩٤٨ بدأ الاعداد لها من سنة ١٩٣٦ ... وأن حرب ١٩٥٦ بدأت منذ زمن وبالتواطؤ مع فرنسا وانجلترا .. وأن حرب ١٩٦٧ خطتها موضوعة قبل ١٦ سنة ولم تكن حرب ١٩٥٦ إلا بروفة لها ..

وقد تحدثنا فى الفصل السابق عن بعض ما كان يستنفد طاقة العرب فى تلك السنوات ..

وإذا كانت النكتة التي تقال عن اسرائيل انها ليست دولة لها جيش ولكنها جيش له دولة فالنكتة صحيحة بمعنى معين هو المعنى الكامل لمجتمع الحرب .. أو بالأصح مجتمع الحرب المستمرة .

لا تقام مستعمرة في اسرائيل ، ولا يتقرر اختيار منطقة لاقامة قرية أو مدينة ، ولا يشق طريق مواصلات ، ولا ينشأ مصنع إلا ويخضع هذا لذلك التعبير ذا المحتوى العسكري «اعتبارات الأمن» ولا ترسم خطة تنمية صناعية مثلا إلا وعينها على الصناعات ذات المردود العام بالنسبة للحاجات العسكرية أيضا .

ونفس الشئ يقال عن نظام التعليم والعمالة والمنظمات والمؤسسات ، ولم يعد سرا ارتباط هذا كله بنظام فذ لاستدعاء الاحتياطى ، الأمر الذى يضع ١٠ ٪ من مجموع السكان تحت السلاح خلال ٤٨ ساعة .

ويرتبط بالقوات المسلحة في إطار الهجوم أو الردع أو الأمن – جهاز المخابرات ، الذى لعب دورا أساسيا فى حياة اسرائيل .

فكما أن ضباطها بدأوا جنودا فى جيوش انجلترا منذ

أواخـر الحـرب العالميـة الأولى ثم الحـرب العالميـة الثـانيـة ، فـان أجـهزة مـخـابراتهـا قـد تربت فـى أحـضـان أعـرق أجـهزة المخابرات في العالم . ولضيق مسـاحة اسرائيل ، كانت تعتبر أن جواسيسها هم «أهم أجـهزة الانـذار المبكر» لديها ، أى الذين يحيـطونها علما بالحركات العربية قبل أجهزة الرادار والأقـمـار الصـنـاعية وطائرات التجسس . واستفادت اسرائيل من تعدد الجنسـيات التي ينتمي إليـهـا اليـهـود الموالون لهـا من عـرب وأوروبيـين وأمريكيـين وروس .. فاستطاعت أن تخـتـرق مالا يمكن أن تخـتـرقه غيرها من أجـهـزة المخـابرات العادية ، وأسست علاقـات خاصـة بينها وبين كل جهاز مخابرات لديه ما يريد أن يعرفه عن العـالم العـربى . ونجاحات كبرى مثل جاسوسها «لوتز» الذى اشـتـغل بتـوريد السـلاح زمنا للجيش المصرى . ومنيـر روفا الذى هـرب من العـراق بطائرة ميـج قبيل حـرب ١٩٦٧ وايليا كوهـين الذى وصـل إلى مركز ثقة رفيع فى سوريا وباع إسرائيل كل أسرار تحصـينات الجـولان .. من الأمثلة التى تخطر مباشرة على البال ..

هـذا المجتمـع ، مجتمـع الحـرب المسـتمرة ، هو الذى أحرز انتصـار ١٩٦٧ فى مواجهة مجتمـع ليـس مجتمـع حـرب كما سبق أن ذكرنا .

ولكـن الدعاية الاسـرائيلية التي تمـثل سلاحا من أخطر اسلحتهم ، حاولت أن تصور حجم هزيمة ١٩٦٧ بأنها الحجم الحقيقي للمسافة بين الاسرائيليين والعرب . وان تكرس من هذه اللحظة صورة لوضع دائم أو مستمر إلى أجيال كثيرة على الأقل ...

صار كل جنرال اسرائيلي أسطورة عسكرية لم يسبق لها مثيل . وكل جندى اسرائيلي بطل . وكل مواطن اسرائيلي جيمس بوند .. فالاسرائيلي هو «السوبر مان الجديده في كل مكان ..

والعربي هو الساذج المتخلف العاجز عن اللحاق بالعصر أو عن فهم تعقيداته .

وظهرت الكتب والأفلام والمقالات والروايات فى هذا المجال بالمئات ، ونجحت هذه الحملة الهائلة فى اقناع أوسع القطاعات فى الرأى العام العالمي بحقيقة الأسطورة التى لا تقهر ، وتسربت من هذا السم جرعات كثيرة إلى النفسية العربية ذاتها ، وكانت هي المستهدفة بالذات .

وقد ساعدهم على ذلك نوع من أدب النكسة التي ظهر فى بلادنا ، وبأقلام منا ، فكما أظهرت النكسة أدب التحليل والفهم

والدراسة والمقاومة ، أظهرن أدب النكسة المشرب بسموم الدعاية الاسرائيلية .

كان خط دفاع اسرائيل الذى اقامته أمام خط بارليف ، هو هذا الحاجز النفسى ، قبل الحاجز الترابى ، الذى صار يوهم العرب بأن مقارعتهم الاسرائيليين فى أى مجال مستحيل فى السياسة أو الاقتصاد ومن باب أولى وبالدرجة الأولى فى الحرب .

كان خط أمنهم الأول ، أن ينمو شعور الهزيمة فى النفس العربية حتى يصبح حاجزا منيعا بينهم وبين محاولة خدش الأسطورة ..

ولم يخطر على بالهم أن هذه الأسطورة سوف تتحول بالنسبة لهم إلى خمر تسكرهم ، وأنهم حين يصدقونها هم أنفسهم سوف يصبحون يوما ما من ضحاياها ..

حرب الاستنزاف
أو الرحلة الطويلة قبل العبور

تم لاسرائيل تدمير القوات المسلحة المصرية فى سيناء على نحو لم يكن يخطر على بالها ولا يطوف بأحلام قادتها ، ولم تر اسرائيل فيما حدث شيئا غير طبيعى ، بل أنها ، سكرى بخمر الأسطورة التى سجلت أكبر منجزاتها ، اعتقدت أن مهمتها ازاء مصر قد انتهت ..

لقد دمرت كل الطيران المصرى تقريبا وأكثر من ٨٥ ٪ من السلاح المصرى وتبعثرت القوات من الناحية البشرية تماما . وها هى مجرى القناة الضيق لا يوجد مايفصلها عن سائر مصر سواه . وها هى العاصمة الكبرى بملايينها الست لا توجد مائة دبابة يمكن أن تقف فى الطريق إليها .

وكان طبيعيا أن تتوقع اسرائيل الاستسلام . حتى أنها لم تفعل ما يفعله غالبا المنتصرون من أن يرسلوا أو يعلنوا شروطهم ، بل قال موشى ديان أنه – فقط – جالس بجوار تليفونه فى انتظار أول مكالمة من أول عاصمة عربية ...

أى أن المهزومين عليهم أيضا أن يطرقوا هم الباب سائلين عن شروط المنتصر ..

وقد أخذتهم المفاجأة ساعة أعلن عبدالناصر استقالته الشهيرة، فهبت جماهير الأمة العربية فى القاهرة وكل عواصم العالم العربى خارجة فى جوف الليل ترفض الهزيمة وتستنكر الاستسلام وتطلب الصمود والمقاومة .

وقال المتحدث الاسرائيلي انها ظاهرة عربية أخري غير مفهومة..

ولكنهم فهموها على أى حال على أنها أحد الانفجارات العربية العاطفية العابرة ، وأنها الرقصة الأخيرة لطير مذبوح من الألم ، لابد أن يفيق من بعدها إلى واقعه الذى لا حل له ..

ولعلهم لم يدركوا أن هذا الرفض الشعبى الشامل كان نابعا من أعماق بعيدة فى وجدان الجماهير ، إلا بعد أسبوعين تقريبا من وقف إطلاق النار ...

ففى أثناء اجتياح القوات الاسرائيلية لسيناء كلها ، لم يتجهوا لسبب أو لآخر عن اهمال أو عن احساس فى أغلب الظن بأن الأمر فى متناول يدهم أى وقت – لم يتجهوا شمالا فى الشريط الضيق الموازى لقناة السويس والمؤدى إلى بور فؤاد ، النصف المتمم لبور سعيد ، شرقى القناة .

وكان طبيعيا أن يرسلوا طابورا مدرعا لأخذ هذا الجزء المتبقى غرب القناة في نزهة تستغرق عدة ساعات...

ولكنهم ، وكان ذلك يوم أول يوليو ١٩٦٧ ، فوجئوا بالطابور المدرع تنطلق عليه قذائف مدفعية مصرية من الضفة الغربية وتشتبك معه فتمنع تقدمه .. ثم وجدوا أمامهم مباشرة على نفس اللسان الضيق فى الضفة الشرقية قوة من الصاعقة تسد الطريق بأسلحتها الخفيفة وأيضا بأجسادها وتصميمها الذى كان أكثر مما في أيديها من سلاح ..

وأرسلوا إلى طابورهم تعزيزات ، ولكن الساعات مضت وقد تحول «الاشتباك» إلى معركة حقيقية . ولعلهم عندما وصلت خسائرهم إلى ثلاث دبابات بأطقمها وست سيارات نصف جنزير وعربات ذخيرة وقتلى وجرحى ، لم يكونوا يعرفون أن القوة التى تواجههم على اللسان لا تزيد على ثلاثين رجلا ، وأن المدفعية التى تضربهم من غرب القناة لم تكن لديها ذخيرة كثيرة ، أو أن بعض متطوعى المقاومة الشعبية اشتركوا فى القتال المفاجئ ... فانسحبوا ....

ثم جرب الاسرائيليون تجربة أخرى أمام عدو يرونه مطروحا على الأرض ، فحاولوا انزال قوارب آلية فى قناة

السويس ، حتى ينقلوا خط وقف اطلاق النار إلى منتصف مجرى القناة ، فتصدت لها المدفعية المصرية وأغرقتها ... فحاول الاسرائيليون مرة ثانية مستخدمين مدفعيتهم هذه المرة مع طيرانهم في قصف مدن القناة . ولكن المدفعية المصرية مرة أخرى تمسكت بموقفها ، وأغرقت ثلاث لنشات بل ونزلت قواتنا إلى الماء فأسرت لنشين آخرين وأسرت اثنين من جنود العدو ..

وكأن الظروف شاءت – وقرار مجلس الأمن الشهير ٢٤٢ فى نوفمبر ٦٧ لم يصدر بعد ، والمناقشات محتدمة فى مبنى الأمم المتحدة – لعل الظروف شاءت أن تثبت كل الأسلحة وجودها .

فقد جاء يوم ١٤ يوليو ١٩٦٧ ، وهو يوم عيد القوات الجوية ، ولما يمر علي وقف اطلاق النار شهر .. وقررت القوات الجوية – أو ما تبقى منها ، أن تتعرض للخطر ، لكى تثبت جدية الوقفة ... فقامت بأعدادها القليلة ، وبطائرات ميج ١٧ بهجمات انتحارية على مراكز تجمع دبابات العدو وسياراته المصفحة فى سيناء وتصدت لها طائرات الميراج الاسرائيلية وخاضت معها معركة جوية .

لكأن طيارينا بالقليل القليل الذى لديهم أرادوا فى عيدهم أن يسقطوا قنابلهم على أرض سيناء مشيرين بذلك إلى رمز كبير أن هذه أرض مصرية . وأن مصر ليس فى نيتها وهى في أشد حالات تجردها من السلاح أن تتخلى عنها ...

ثم جاء حادث المدمرة ايلات لكى تسمع قواتنا البحرية صوتها للعالم.

إذا كانت المدمرة ايلات احدى مدمرتين يزهو بهما السلاح البحرى الاسرائيلي ، وكانت – مرة أخرى تحت الاحساس بعدم وجود السلاح المقابل – تحاول أن تحك أنوف المصريين بالاقتراب والتجول فى المياه الاقليمية خارج مناطق احتلالها لسيناء .. ومياه بور سعيد بالذات ..

وفى مساء ٢١ اكتوبر ١٩٦٧ رسمت زوارق الطوربيد المصرية خطتها وتصدت للمدمرة بصواريخ بحر – بحر ، لم تلبث أن أغرقتها ومعها عشرات من الضباط والجنود الاسرائيليين ، ظلت طائرات الهليكوبتر تبحث عنهم طول الليل ونهار اليوم التالى ، وكانت هذه أول مرة فى تاريخ الحروب تصاب فيها مدمرة بهذا النوع من السلاح إصابة قاتلة ...

وفى غمرة جنونهم من هذا التطاول من الطرف المهزوم ،

حشدوا مدفعيتهم تصب نيرانها على المرافق الصناعية الواقعة على حافة القناة وخصوصاً مصفاة البترول فى السويس ، وعلى الأهالى المدنيين فى مدن القناة .

ولست أنسى هذا المشهد الذى رأيته بعيني بين الاسماعيلية والسويس . وكنا قد توقعنا بعد اغراق ايلات عملا انتقامياً اسرائيليا من حجمه . وفي الطريق من القاهرة مررنا بمقر القيادة المصرية وكانت مشغولة باصدار الأوامر باخلاء ميناء السويس من السفن والناقلات متوقعين أن يكون الرد الاسرائيلى هناك ..

وهذا ما حدث بالفعل . فقبل الفجر انهمرت قنابل الغيظ «والعقاب» على السويس ..

ولعل الاسـرائيليين فى ذلك الوقت ادخلوا هذا كله فى بند محاولات يائسة لاثبات الوجود خلال المناورات والضغوط السياسية والدولية العنيفة قبل صدور قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ . ولكن شيئاً آخر ادهشهم ، رغم أنه لم يكن ينطوى على قتال ، ولكن دلالته كانت بالغة الأهمية .

لقد صدر قرار باخلاء منطقة القناة من سكانها ...

قرار أليم . باهظ التكاليف . ولكن معناه كان واضحا لهم .

أولا : أن وجود الأهالى مكدسين فى المدن بالذات كان يقلل حرية قواتنا فى الاشتباك ، إذ كان الرد الاسرائيلى يستسهل

ضرب المدنيين . وثانيا أن هذا معناه أننا قررنا ألاّ نبقي أهالينا رهائن فى أيديهم تحت رحمة مدفعيتهم وأننا قد حولنا هذه المنطقة العزيزة إلى ساحة قتال وأن أمتنا وقواتنا قد فقدت أسلحتها ولكنها لم تفقد روحها وأعصابها .

وفى أغلب الظن أن اسرائيل بعد هذه الشهور القليلة من الهزيمة ومصر بالذات ثم سائر البلاد العربية ، تمر بأحرج أوقات حياتها ، قد بدأت تدرك لأول مرة جدية الشعار الذى طرح فى مصر تحت عنوان : مرحلة الصمود ....

فرغم صدور قرار مجلس الأمن ٢٤٢ إلا أن كل دارس يعرف أن القرارات الدولية هي قصاصات ورق لا تنفذ طالما شعر أحد الجانبين بقدرته على عدم تنفيذه وكان من مصلحته تجاهله ، كما أنه لا يفسر – كأى نص على الورق – إلا طبقا للتفسير الذى تعكسه علاقات القوة الحقيقية على الطبيعة .

كانت مرحلة الصمود غايتها كسب فترة من الهدوء على الجبهة وكانت الأحداث التي سبقت تثبت أنه ليس الصمود الخانع ، ولكنه كان هدوءا مطلوبا لثلاثة أسباب :

أولا – التقاط الأنفاس والخروج نفسيا ومعنويا بالأمة العربية كلها من ذهول الهزيمة ، من صورة اللحظة القريبة التى أراد العدو أن يجعلها صورة ثابتة للعلاقة العربية الاسرائيلية ،

والرجوع تدريجيا إلى صورة أكثر قربا من الطبيعة .

ثانيا - بناء خط دفاع مصرى قوى جديد فتكون البداية أن تصل العدو رسالة ، فحواها «لا خطوة إلى الوراء» قبل أن يمكن الحديث جديا عن التحرك إلى الأمام ، وبالتالي تتم حماية كافة الجسور العربية من الانهيار تحت وطأة الضغوط السياسية والمادية والمعنوية .

ثالثا - اعادة بناء القوات المسلحة ...

وهذه الجملة ذات الكلمات الأربع ليست بمثل هذه البساطة فى ترجمتها العملية ..

كان هناك جسر جوى وبحرى ضخم ممتد من الاتحاد السوفيتي يحاول تعويض السلاح الذى فقدناه بأسرع ما يمكن ، وكان السلاح ينزل فى الموانى والمطارات المصرية ويتخذ طريقه رأسا إلى أيدى الجنود في خطوط القتال الجديدة (١) ولكن لم يكن هذا كل شيء ..

---

(١) يوم أول يوليو قال الجنرال حاييم هيرتزوج المعلق العسكرى الاسرائيلى وأول حاكم عسكرى للضفة الغربية تعليقا على تسليح الجيش المصرى أن الصواريخ السوفيتية الجديدة «مجرد وسيلة أخرى لنقل المتفجرات من مكان إلى آخر وتسييرها أعقد على المصريين من استخدام الدبابات والطائرات وأن هدف ارسال الاسلحة ليس أكثر من استخدامها فى الاستعراض العسكرى القائم يوم ٢٣ يوليو» .

إن الجيش ليس مجموعة من الرجال وكميات من السلاح فحسب ...

وقد سمعت الجنرال بوفر قائد الجيش الفرنسى فى حملة السويس يقول بحق فى تلخيص دقيق للقضية «فرق بين أن يكون لديك طائرات وطيارين وبين أن يكون لديك سلاح طيران .. وفرق أن يكون لديك دبابات وبين أن يكون لديك سلاح مدرعات» ..

لم تكن القضية إذن فى «اعادة بناء القوات المسلحة» حشد أكبر عدد من الرجال والمعدات . فليست هذه هى الحرب الحديثة وقد كان هذا هو الدرس الأكبر من يونيو ١٩٦٧ .

ولكن القضية كانت اعادة بناء القوات المسلحة «بمفهوم جديد» للقوات المسلحة : بدءا من الروح المعنوية العامة وانتهاء بالتدريب وكفاءة الجنود والضباط وتلاحمهم ، ونوعيتهم، وتسلسل القيادات، والدراية بالمهمات القتالية المحددة بكافة ظروفها المحتملة ، أى خلق أداة حرب عصرية» بكل ما تحمله هذه الكلمة من محتوى ، معقد بدرجة تعقيد أسلحة الحرب الحديثة وأحجام الجيوش الكبيرة وتكامل الأسلحة المختلفة ، ووسائل الاتصال والتشويش الدقيقة .

ولم يكن هذا كله يجرى على مهل أو فى حالة سلام ، إنما كان يجب أن يتم بسرعة وتحت سمع العدو وبصره واحتمالات

مباغتاته. ومن خلال الاشتباكات التى لا مفر منها ، وبعد كل شيء : تحت سمع العالم كله وبصره ، العالم الذى ملأته الشكوك حول جوهرنا ومعدننا الحقيقي وقدرتنا على استيعاب درس الحياة الحديثة القاسى ، وأجهزته السياسية - العسكرية - الاقتصادية المعقدة ...

كان علينا أن نتحمل من الداخل تمزقاتنا النفسية القاسية ، ومن الخارج نظرات الاشفاق وكلمات الشك أو العزاء .. وقواتنا تخوض حربا صامتة لكي تسترد هيبتها ووجودها وسمعتها لدى الصديق والعدو على السواء ...

●

يمكن القول أن هذه المرحلة التي تميزت بالدفاع المحض وتقوية عود خط الدفاع المصرى كأول حاجز فى وجه الارادة الاسرائيلية التي كانت ترى في الفراغ العسكرى فرصة لاملاء شروطها .. يمكن القول أن هذه المرحلة التي اصطلح على تسميتها «بمرحلة الصمود» قد انتهت فى أغسطس ١٩٦٨ ، إذ نجد أنه مع سبتمبر ١٩٦٨ بدأت مرحلة جديدة اصطلح على تسميتها باسم «مرحلة الردع» ..

أنها مرحلة من الدفاع النشيط أو الدفاع الايجابي . ومعناه التصدى لأى عدوان أو تحرش اسرائيلى بمثله أو بأكثر من مثله اثباتا لارادة التحدى ولزعزعة العدو فى محاولاته للاستقرار شرق القناة . اثباتا لارادة التحدى التى استطاعت أن تظهر نفسها بعد اكتساب درجة القوة والاستعداد اللازمة لها .

وتميزت هذه المرحلة بمعارك المدافع الكبيرة ، إذ كانت المدفعية المصرية أحيانا تقصف مواقع العدو على طول الجبهة ، تدمر مراكز تجمعاته وتشتت قواته . وكان طبيعيا أن تتحمل قواتنا عبء رد العدو عليها بنيران مدفعيته ودباباته وصواريخه وسلاحه الجوى الذى كانت لا تزال له سيطرة كاملة على الجو ....

كان على قواتنا أن تواجه هذا القتال الأكثر عنفا وتقدما ، فى نفس الوقت ، لكى لا ننسى ، الذى كان عليها فيه أن تتدرب وتستوعب الأسلحة الجديدة ، وتزيد من بناء قوتها العسكرية ..

.. وأن تبدأ تجارب «عبور» على نطاق محدود ...

ففى ٢٧ أغسطس ١٩٦٨ صدر أول بيان اسرائيلى يشير إلى عبور مقاتلين مصريين لقناة السويس ودخولهم سيناء :

«تل أبيب فى ٢٧ أغسطس – أعلن متحدث عسكرى اسرائيلى فى تل أبيب اليوم أن اثنين من الجنود الاسرائيليين قتلا واختطف

ثالث في كمين نصب لسيارة عسكرية على الضفة التى تحتلها اسرائيل لقناة السويس في الليلة الماضية . ولم يحدد ما إذا كان الكمين يتألف من جنود مصريين نظاميين أو من رجال المقاومة . وقال أن سيارة الجيب مرت فوق لغمين زرعا فى طريق غير مرصوف تجاه الاسماعيلية وأضاف المتحدث أنه عندما انفجر اللغمان تعرضت سيارة الجيب لوابل من الرصاص من رجال منبطحين على جانبى الطريق .

«ومضى المتحدث العسكرى يقول أن جنديين قتلا وفقد ثالث ويبدو أنه سحب نحو الضفة الغربية للقناة .

«وقالت مصادر عسكرية أن هناك أدلة على أن فريق الكمين قد عبر القناة فى قوارب» .

«وقالت الوكالة الفرنسية من تل أبيب أن الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلي اجتمع اليوم بالجنرال أدوبول كبير المراقبين الدوليين وأبلغه الخطورة التى تعلقها اسرائيل على الحادث .

«وقد اجتمع ديان بالجنرال أدوبول ، ثم خرج من الاجتماع يقول أن رد مصر غير مرضٍ . وأن عدم اعترافها بالحادث غير مقنع . وأضاف أنه سيقدم تقريره إلى مجلس الوزراء عن هذه

«الغارة الجريئة» وقال أن أسرائيل تستخلص لنفسها النتائج بعد أن رفضت مصر أية مسئولية عن الحادث . وصرحت مصادر عسكرية اسرائيلية بأنها «تتوقع حدوث أى شىء فى أى وقت وأن نقطة الغليان قد زادت فجأة عند منطقة قناة السويس» (١) .

وفي يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٦٨ صدرت الصحف العربية تحمل أنباء هجوم شامل بالمدفعية على طول الجبهة .

قالت جريدة الأهرام :

«وجهت قواتنا المسلحة أمس ضربة قاصمة إلى العدو دمرت فيها قواعد الصواريخ التى حشدها فى مواجهة مدينتى السويس والاسماعيلية . وكان العدو قد أخذ فى حشد هذه القواعد وتجميعها منذ معركة المدافع فى شهر سبتمبر الماضى حتى تكون المدينتان تحت رحمته . وقد بدأت المعركة بعد أن وجه العدو فى الساعة الرابعة وخمسين دقيقة قذائفه إلى بور توفيق فدمر بعض المنازل» .

وصدرت عن القيادة العامة للقوات المسلحة البلاغات التالية :

البيان رقم ١

قام العدو فى الساعة ٤,٥٠ دقيقة بعد ظهر اليوم بتدمير عدة

---

(١) الاهرام ٢٨ أغسطس ١٩٦٨ .

منازل فى مدينة بور توفيق وقد استخدم العدو فى عدوانه اللا انسانى الصواريخ من الأرض للأرض من عيار ٢١٦ ملليمتر ، والتى أعدها من قبل فى مواجهة مدن القناة لهدم المنازل وقتل المواطنين الابرياء وعلى أثر ذلك كلفت التشكيلات الميدانية المتركزة فى منطقة القناة بالتعامل مع العدو الاسرائيلى وتدمير صواريخه.

البيان رقم ٢

فى تمام الساعة ٤,٥٠ قامت جميع أسلحة الرمى الخفيفة والثقيلة من تشكيلاتنا الميدانية فى منطقة القناة بقصف مركز ونيران تدميريه ضد صواريخ العدو وعلى قواته المسلحة بقصد اسكاتها وتدميرها . ويحاول العدو الآن مواصلة اطلاق النيران ولكن نيران مدفعيتنا أعجزته عن إتمام ذلك ولا تزال الاشتباكات مستمرة .

البيان رقم ٣

فور قيام العدو باطلاق نيران الصواريخ على مدينة بور توفيق قامت قواتنا المسلحة بقصف تدميرى على جميع مواقع صواريخ العدو على طول الجبهة ثم تم تراشق فردي من بعض الأسلحة ردا على نيراننا . وقد أوقفت النيران من الجانبين فى الساعة السادسة مساء اليوم .

البيان رقم ٤

خسائر العدو : تدمير ١٩ دبابة و ١٤ عربة مدرعة نصف جنزير و ١٠ مواقع صواريخ و ٢٨ دشمة مدفع ماكينة و ١٦ نقطة ملاحظة أرضية و ٣ مراكز قيادة و ٦ مخازن وقود وذخيرة و ٣ مدافع عيار ١٠٦ ملليمترات ، كما تم اسكات الوحدات التالية :

٣ مواقع بطارية مدفعية متوسطة و ٧ مواقع بطارية ١٠٥ ملليمترات وموقعي مدفعية مضادة للطائرات وموقعي مدفعية هاون . كما تم احراق عدد ٦ مناطق شئون ادارية شوهدت والنيران مشتعلة فيها وتمت رؤية هذه الحرائق لسكان مدينتي السويس والاسماعيلية .

وقد كانت خسائر أفراد العدو عددا كبيرا من القتلى والجرحى واستخدم العدو عددا كبيرا من طائرات الهيلوكوبتر في إخلاء هذه الخسائر من المواقع الخلفية له .

وكانت الحقيقة تنطوى على أكثر مما اكتفت البلاغات العسكرية بالاشارة إليه ...

فقد قامت وكالة الاسوشيتدبرس من تل أبيب في اليوم التالى ما نصه «أن قتالا دار في داخل سيناء بين القوات المصرية مع القوات الاسرائيلية عند ما كان تبادل اطلاق نيران المدفعية عبر القناة في ذروته» .

وقال يوسف تيكواه ممثل اسرائيل الدائم فى الأمم المتحدة فى خطاب إلى رئيس مجلس الأمن «أن قوة مصرية عبرت قناة السويس إلى سيناء حيث اشتبكت مع القوات الاسرائيلية قرب ممر ميتلا ، كما أن قوة مصرية أخرى حاولت عبور القناة» .

وكان لهذا التصعيد آثاره فى التهاب الشعور واحياء الأمل فى الأراضى المحتلة فقد قالت وكالات الانباء فى نفس اليوم من تل أبيب «أعادت السلطات الاسرائيلية حظر التجول الشامل فى كل من الضفة الغربية وغزة بعد اندلاع المظاهرات فيهما من جديد كأعنف ما تكون ، فى أعقاب رفع حظر التجول اليوم لمدة قصيرة جدا ، وقالت وكالة الانباء الفرنسية أن معارك القناة ألهبت الموقف فى كل الأراضى المحتلة» .

«وقد سارت اليوم الجماهير الغفيرة فى مسيرات كبيرة تأييد للمقاومة الفلسطينية وهى تهتف باسم مصر . وسارعت القوات الاسرائيلية إلى اطلاق الرصاص فى بعض المدن وخاصة مدينة رام الله التى حاول آلاف من سكانها التجمع فى الميدان الرئيسى . وقد استهدف حظر التجول الكامل اليوم تفادى المظاهرات من ناحية ومحاولة وقف الهجمات المسلحة لرجال المقاومة من ناحية أخرى . فقد انزل رجال المقاومة خسائر كبيرة فى الاشتباكات

التى جرت فى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ، كما نسفوا خطا لسكة الحديد عند رفح . وأعلن متحدث عسكرى اسرائيلى عن قتل جنديين اسرائيليين ، وإصابة آخرين بجراح أثناء اشتباك وقع بين مجموعة من رجال المقاومة وقوة اسرائيلية على بعد كيلو متر من شمالى مستعمرة «دان» قرب خطوط لبنان .

وفى يوم الجمعة ٣١ أكتوبر قامت الطائرات الاسرائيلية بالتسلل إلى العمق المصرى فى محاولة لضرب ثلاثة أهداف مدنية : قناطر نجع حمادى والجسر الذى يوصل معبد دندره ، ومحطة المحولات الكهربائية التى تقع قرب المنطقة .

ومع عنف الردع المصرى وتصاعد خسائر الاسرائيليين انتهى أملهم فى أن تكون الجبهة التى أمامهم جبهة ساكنة مستسلمة وانتهى أملهم فى أن تكون الحرب قد انتهت ، لذلك عمدوا إلى خطوتين جديدتين :

الخطوة الأولى . هى تحصين أنفسهم على الضفة الغربية ، ازاء قوة النيران المصرية المتزايدة ، ومن هنا ولدت فكرة بناء ما اصطلح بعد ذلك على تسميته بخط بارليف الأول ؛سلسلة تحصينات على طول خط المواجهة .

والخطوة الثانية ، القيام بعمليات جوية فى العمق المصرى ، أشهرها محاولتهم نسف خزان نجع حمادى ، إذ تسللت طائراتهم مرة والقت قنابل من التى تسبح مع تيار النهر حتى تصطدم بالخزان وتنسفه ولكن المحاولة فشلت . وكان ملفتا يومها أن الطيارين الذين قاموا بالمهمة ابلغوا عن نجاحها دون التأكد من ذلك ، فأصدرت اسرائيل بيانات رسمية تعلن فيها غرق مساحات تبلغ مئات الآلاف من الافدنة في الصعيد نتيجة لنسف الخزان ، ثم اضطرت اسرائيل إلى سحب هذه البلاغات فى اليوم التالى وتبرير ذلك بخطأ فنى . ولكن هذا كان كاشفا عن هدفهم الحقيقى من الهجوم .

وكانت هذه المعارك بالمدفعية ، ولجوء الاسرائيليين إلى تحصين مواقعهم بحيث تحمى جنودهم من القنابل ثم إلى هذه الأعمال فى العمق المصرى ايذانا ببدء مرحلة جديدة ، كانت أخطر مراحل المواجهة بين يونيو ٦٧ وأكتوبر ٧٣ تلك المرحلة التي سميت : حرب الاستنزاف ..

●

.. ولو أن هذا الكتاب ليس موضوعه سائر جوانب الصراع العربى الاسرائيلى ، وبالتالى ليس موضوعه المقاومة الفلسطينية

المسلحة إلا أنه لا يمكن المرور على هذه المرحلة دون ذكر المقاومة الفلسطينية .

فكما أن أول ردود الفعل الايجابية بعد الهزيمة كان رفض الجماهير العربية لها ، واتاحة الفرصة للجيش المصرى والسورى بالذات فى اعادة البناء والاستعداد للمواجهة ، فقد كان رد الفعل الآخر البارز هو مولد المقاومة الفلسطينية المسلحة ، أو بالأحرى مولد الشخصية الفلسطينية .

فمنذ ١٩٤٨ كانت هذه الشخصية تائهة ، معرضة للانقراض ..

وقبل الحرب بسنوات برزت فكرة منظمة التحرير كاطار للبدء فى استرجاع هذه الهوية ، ولكن هوية شعب ما وكيانه لا يولدا بقرارات ولو من كل الملوك والرؤساء العرب ، وارادته لا توجد بتعيين ممثلين لهذه الارادة .

وقد ولدت بذور المقاومة قبل الحرب . ولكن الهزيمة جعلت الجماهير الفلسطينية تعود إلى نفسها ، وتحمل سلاحها وتبرز قياداتها ..

وكانت معركة الكرامة التى صمدت فيها المقاومة الفلسطينية - مواجهة - لهجوم اسرائيلى شامل عليها فى الأردن ، رغم الثمن الفادح الذى تحملته من خسائر فى الأرواح ، كانت فوق كونها

نصرا عسكريا ، نصرا سياسيا كبيرا .. إذ أنها وضعت المقاومة الفلسطينية على الصفحات الأولى فى صحف العالم بأكمله ، وأنها دفعت أفواجا من الفلسطينيين .. من الفلاح المعدم إلى الشاب الذى ترك دراسته الجامعية ليحمل السلاح : وفى الشهور الاليمة لصمت المدافع العربية كانت أسلحة المقاومة البسيطة هى العزاء لكل عربى ، هى الخبر الذى يقرأه كل صباح ليشعره أن هذه الأمة تنبض وأن الرفض العربى للغزو الاسرائيلي له شكل ايجابى غير الخطب والمنكرات .

وقد مرت المقاومة بطريق طويل محفوف بالمكاره . وتوالت البطولات والأخطار على حد سواء ، وتعرضت للتصفية الشاملة فى مذابح ايلول ولكن حتى نكستها العسكرية كانت انتصارات سياسية لها .. لأن هذا الثمن الفادح من الدم هو الذى وصل إلى اقناع العالم بأن هناك شعبا هو الشعب الفلسطينى وأن هذا الشعب له الحق فى تقرير مصيره كأى شعباً آخر فى المنطقة أو فى العالم كله ...

ولم يكن نشاطا لمقاومة مقطوع الصلة بالقتال على الجبهات بين الجيوش النظامية ...

كان بدوره استنزافا لاسرائيل ..

وكانت العلاقة واضحة بين الجبهات النظامية والمقاومة : فحين كانت الجبهة المصرية مثلا تنشط كان أزر المقاومة يشتد ، في الخارج والداخل ...

فقد قاومت غزة مقاومة بطولية كلفت اسرائيل الكثير ...

وقاومت الضفة الغربية ، خصوصا حين كان القتال يشتعل ضد الجيش الاسرائيلي في جبهة القناة ...

ففي خلال مرحلة الردع كنا نجد مثل هذا النموذج من الأصوات في الداخل .

القدس ١٩ أغسطس ٦٨ .

«عاشت مدينة القدس ليلة من الفوضى والاضطراب والذعر بعد الانفجارات المتوالية التي هزت المدينة لساعات بدأت من التاسعة مساء وامتدت إلى ما بعد منتصف الليل .

وقالت الاسوشيتدبريس أن سلسلة من الانفجارات أحكم تدبيرها في ليلة القنابل حالة من الفوضى لم تشهدها القدس طوال عشرين سنة، سقط فيها الكثيرون جرحى عدد غير قليل منهم في حالة خطيرة ، وأدت إلى حدوث أعمال تخريب على نطاق واسع في القدس العربية ، حيث قام مئات من الاسرائيليين بغزو قلب المدينة .

وقد وضعت هذه القنابل فى مواقع متفرقة وحدات خاصة من قوات المقاومة العربية رداً على العدوان الاسرائيلى الجوى على المدنيين فى مدينة السلط منذ اسبوعين . وكانت قوات العاصفة ـ وهي الجناح العسكرى لمنظمة فتح قد اصدرت بيانا عقب هذا العدوان أعلنت فيه أنها ظلت حتى ذلك الوقت تقصر هجماتها ضد العدو على المواقع والأهداف العسكرية ولكن المنظمة بعد ضرب الطيران الاسرائيلى للمدنيين فى السلط بقنابل النابلم الحارقة ويعد ذلك العدوان الاستفزازى أصبحت فى حل من الانتقام من المدنيين فى اسرائيل» .

«وقد وقع الانفجار الأول فى الساعة التاسعة وعشر دقائق فى محطة اتوبيس مزدحمة عند تقاطع شارعى الملك جورج واللنبى (شارع يافا القديم) ، وقد سقط فى هذا الانفجار ما لا يقل عن عشرة أشخاص نقل ثلاثة منهم إلى المستشفى فى حالة خطرة . ويعد ذلك بعشرين دقيقة اكتشفت قنبلتان عند سينما «رون» أحداهما في مدخل السينما حيث يزدحم الناس حول شباك التذاكر والثانية على بعد ٣٠٠ متر فى دورة مياه بحديقة عامة . وعلى مدى أكثر من ساعتين بعد ذلك توالت انفجارات أخرى فى محطة بنزين بالقرب من محطة السكة الحديد وفى محطة اتوبيس

بشارع رئيسى . وبينما الانفجارات تهز المدينة اذاعت وزارة الداخلية بيانا دعت فيه السكان إلى ابقاء النوافذ مفتوحة تخفيفا لنتائج الانفجارات . وفى نفس الوقت سارعت قوات ضخمة من البوليس والجيش إلى الشوارع حيث قامت بأوسع حملة اعتقالات بين السكان العرب وقالت الأنباء أن عدد المعتقلين يصل إلى أكثر من ٦٠ عربيا . بينما قامت قوات أخرى بأغلاق البوابات السبعة الكبرى بين القدس العربية والاسرائيلية لمنع أى عربى من العودة إلى المدينة القديمة . ووقفت قوات البوليس المختصة بمقاومة المظاهرات عند مداخل المدينة العربية وقد لبسوا الخوذات وتسلحوا بالهراوات .

وفى تلك الاثناء تدفق مئات من الشباب الاسرائيلى على شوارع المدينة العربية ، وساروا فى جماعات مسلحة بالعصى والهراوات وقطع الأحجار وأخذوا يدمرون ويحرقون كل ما هو عربى . وقدر البوليس عدد السيارات العربية التى تحطمت بأكثر من ٥٠ سيارة احترق بعضها ، غير عشرات المتاجر التى تحطمت واجهاتها وسلبت بضائعها .

«وقامت جماعات أخرى بضرب العرب فى الشوارع . وقد سقط عدد كبير من العرب جرحى ..

سوقال المسئولون الاسرائيليون أن الانفجارات التى هزت المناطق الاسرئيلية من مدينة القدس ليلة أمس وضعت خطتها فى القسم العربى من المدينة وأن الفدائيين العرب الذين تحميهم السيدات فى القدس العربية هم المسئولون عن هذه الانفجارات . واضاف المسئولون الاسرائيليون أن هناك أدلة متزايدة على أن السيدات العربيات يقدمن الحماية والمأوى لعدد غير قليل من رجال المقاومة».

كانت حرب الاستنزاف تكاد تكون مرحلة قائمة بذاتها ، بدأت فى مارس ١٩٦٩ وانتهت بوقف اطلاق النار الذى كان جزءا من مشروع روجرز ٧ أغسطس ١٩٧٠ ..

صحيح أنها كانت متصلة بما سبقها من مرحلتى الصمود ثم الردع، ولكن درجة التصعيد وصلت بها إلى درجة من الفرق الكمى والكيفى عما سبقها بالنسبة للجانبين : كانت ذروة المواجهة بينهما بين يونيو ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ ..

كانت هذه الحرب مظهرا يدل على أن القوات المسلحة المصرية قد وصلت إلى درجة من الثقة بنفسها تجعلها تشعر أنها قادرة أولا على الدفاع عن نفسها وعن الوطن . وثانيا على الحاق ضربات أكبر وأوسع مدى بالعدو ، وثالثا على احتمال واستيعاب الضربات التى لابد أن يوجهها العدو ضدها ..

ويمكن القول أن الأهداف التي كانت تريد مصر تحقيقها من حرب الاستنزاف هي :

١ - استنزاف العدو ماديا وعسكريا ومعنويا بتدمير قواته وإلحاق أكبر قدر من الخسائر البشرية به ، وبالتالي رفع الثمن الذي يتحمله طالما بقي احتلاله .

٢ - عدم ترك الفرصة للعدو لكي يثبت مواقعه ويعمق تحصيناته ، وقد بدأ في اقامة ما يسمى بخط بارليف الثاني الذي كلفه مئات الملايين من الجنيهات ..

٣ - التدريب العملي للقوات المسلحة في ساحة القتال الفعلية والقيام بعمليات عبور متنوعة ، تزداد في الحجم وفي القيمة استعدادا لساعة التحرير .

٤ - اقناع العالم واقناع العدو ، والمناورات السياسية التأجيلية مستمرة في الساحة الدولية ، أن مصر لا تنوي تحت أي ظرف من الظروف التخلي عن حقها في استرداد سيناء وحق الأمة العربية في تحرير أراضيها المحتلة .

ولذلك كان أسلوب مصر في الاستنزاف يعتمد على عنصرين :

أولا - ضرب المدفعية لتدمير خط بارليف ومنعه من الاكتمال وفتح ثغرات فيه أمام قواتنا .

ثانيا – عمليات عبور تقوم به قوات أكبر حجما بتدمير أسلحة وأفراد العدو ، فى المواقع الحصينة التي لا تدمرها قذائف المدفعية الثقيلة .

وكان الاقدام على هذه الحرب التي تستهدف استنزاف العدو ، تحمل معها مخاطرة المواجهة بالحرب الشاملة . فإنك حين تختار أسلوبا من القتال ، لا يترتب على ذلك أن يتقيد العدو بنفس الأسلوب ، ولكنه يمكن أن يرد بحرب من نوع آخر يرى أنها مناسبة له ...

ولكن العدو لم يختر ، كما كان يهدد دائما ، القيام بهجوم عسكرى شامل برى وجوى على الجبهة المصرية خلال حرب الاستنزاف ، انما فضل أن يرد على الاستنزاف باستنزاف مقابل.

الرد على المدفعية بالمدفعية .

استخدام تفوقه الجوى فى ضرب الجبهة المصرية إلى أقصى ما يتمكن من قوة .

ثم ، لما لم تفلح هذه الردود فى ايقاف حرب الاستنزاف من جانبنا ، صعد عملياته الجوية إلى ضربه العمق المصرى ، الأهداف الحربية والاقتصادية والمدنية على السواء ..

لقد اختار العدو إذن مقابلة الاستنزاف . وفى مقابل أهدافنا كانت أهدافه هى :

أولا - محاولة احباط عمليات قواتنا بحيث يقنع قواتنا المسلحة بعدم جدوى أى محاولة كبرى لعبور القناة .

ثانيا : تدمير طاقتنا الدفاعية ومواقع استعدادنا غرب القناة حتى يبقى مطمئنا إلى عدم قدرتها على العبور ، وتبديد أملها فى القيام بهجـوم تقيم فيه رءوس كبارى شرقى القناة وتنقل قوات ثابتة إلى سيناء .

ثالثا - منع اقامة شبكة الصواريخ المضادة للطائرات التى كان يعرف أنها لو اكتملت فستكون قيداً على حرية سلاحه الجوى وحماية لعمليات أرضية أوسع فى عمق سيناء .

رابعا - ضرب العمق المصرى لاهداف سياسية ومعنوية فى الدرجة الأولى ، متوقعا أن تنكسر روح المقاومة والصمود لدى الشعب وأن يضعف هيبة القيادة لدى المواطنين .

وهو إذا حقق هذا داخل مصر فكأنه قد حققه إلى حد بعيد فى انحاء الوطن العربى كله ..

كان هذا منطق الطرفين فى حرب الاستنزاف المريرة والطويلة التى دامت سبعة عشر شهراً متواصلة .

ففى يوم ٨ مارس بدأت القوات المصرية أكبر عمليات القصف الشديد بالمدفعية على طول خط الجبهة بقوة كانت ايذانا ببدء مرحلة جديدة خطيرة ..

وكأن هذه المرحلة قد شاء لها القدر أن تبدأ بداية تشير إلى استبسال ضباطنا وجنودنا الصابرين فى الجبهة ، إذ ذهب الفريق عبد المنعم رياض إلى أكثر المواقع تقدما من العدو ليرى بنفسه آثار بدء هذه العملية فأصيب بقنبلة مباشرة وقضى شهيدا .

وكانت جنازة عبد المنعم رياض فى القاهرة مظاهرة جماهيرية شعبية من أكبر ما رأت شوارع القاهرة : طريقة عبرت بها الجماهير عن استعدادها للصمود ولدفع ثمن المعركة وعن تقديرها للذين يبذلون أرواحهم فى هذا السبيل .

ولم تمض أسابيع حتى أخذ هذا الاستنزاف حجم الحرب الكاملة ، وصارت عناوين الصحف فى مصر والعالم تحمل يوميا أنباء القتال الدائر على ضفتى القناة ..

وقد كانت بعض العمليات فى البداية تنسب إلى «منظمة سيناء العربية» التى كانت تقوم بعمليات داخل سيناء .

فى ٤ ابريل ١٩٦٩ مثلا :

«أعلنت منظمة سيناء العربية مسئوليتها عن ثلاث عمليات

جريئة قام بها فدائيوها فى سيناء وهذه العمليات هى :

أولا - نسف محطة وقود بمنطقة أبو رديس العسكرية وقد أحدث الانفجار حريقا كبيرا كما أحدث ذعرا بين الاسرائيليين ، نظرا لقرب المحطة من مكتب الحاكم العسكرى ووجودها فى قلب مدينة أبو رديس .

ثانيا - نسف ثلاث عربات عسكرية اسرائيلية مما نتج عنه مقتل واصابة عدد كبير من الجنود الذين كانوا فيها ، وقد استخدم العدو الهيلوكوبتر فى نقل قتلاه وجرحاه .

ثالثا - قامت مجموعة من فدائى المنظمة بقصف منطقة شئون ادارية للعدو بالصواريخ الثقيلة . وتقع هذه المنطقة شرق «كرمة سلام» على بعد عشرة كيلو مترات شرقى الدفرسوار .

وفى نفس اليوم نشبت معركة عنيفة بالمدافع الثقيلة بدأت كما قال البلاغ العسكرى «فى الساعة العاشرة والنصف صباحاً» وقال المتحدث الاسرائيلى أن المدفعية المصرية ركزت نيرانها على القوات الاسرائيلية الموزعة فى منطقة متلا .

ويوم ٩ ابريل اذاعت رويتر من تل أبيب أن متحدثا عسكريا اسرائيليا أعلن عن نشوب قتال من أعنف ما رأته الجبهة منذ ٥ يونيو . وقال أن المصريين فتحوا نيرانهم فى الساعة الثامنة

والنصف صباحاً في منطقة بور توفيق بالجزء الجنوبي من قناة السويس وبعد حوالى ١٥ دقيقة امتدت نيران المدفعية المصرية شمالا حتى البحيرات المرة . وأضافت اليونايتدبريس أن هذا هو ثاني قتال بالمدفعية عبر القنال خلال ٤ أيام وأنه في أعقاب عدة معارك في الشهر الماضي أطلق فيه الجانبان ما يزيد على ٤٠,٠٠٠ قذيفة من مدافع الميدان والهاون .

وفى الساعة ١٢ أعلن متحدث باسم الجيش الاسرائيلى فى تل أبيب أنه في الساعة العاشرة تقريبا اقترح مراقبو الامم المتحدة وقف اطلاق النار فكفت القوات الاسرائيلية عن اطلاق النيران ولكن نيران المدفعية المصرية استمرت . ونظرا لأن المصريين لم يوقفوا اطلاق النار فقد استأنفت القوات الاسرائيلية اطلاق النيران فى الساعة العاشرة والثلث تقريبا . وفى الساعة الواحدة والربع قالت اليونايتدبريس من القدس : أن مراقبى الامم المتحدة فشلوا حتى الآن فى ايقاف القتال ... وقالت أن ستار النيران هو استمرار فيما يبنو للعمليات التى بدأت يوم ٨ مارس الماضى .

وفى اليوم التالى قالت الاهرام «تجدد القتال على طول خط المواجهة مع العدو فى منطقة القناة من السويس إلى القنطرة ، بعد أربعين ساعة من توقف آخر عملية حربية فى المنطقة . وقد بدأ القتال من الجانبين بالأسلحة الثقيلة من أول لحظة واستعملت فيه

المدفعية البعيدة المدى والصواريخ وفى لحظات كانت الجبهة على امتداد ١٠٥ كيلو مترات مشتعلة فى معركة بالغة العنف ، تكبد العدو فيها خسائر كبيرة وأصيب فيها ٦٥ من جنوده وضباطه» ..

وفى اليوم التالى مباشرة اذيع أن القتال تجدد بصورة أكثر عنفا ، وقالت وكالات الأنباء من القدس «أن معركة المدفعية الثقيلة فى جبهة قناة السويس أمس كانت من أعنف معارك الجبهة . وأن المدفعية المصرية ظلت تهدر بعنف عبر القناة وتقول الأنباء التى تلقتها دوائر المراسلين الأجانب فى القدس أن عددا من قوات القطاعات الاسرائيلية فى سيناء قد أصيبوا بجراح أثناء الضرب . وأضافت هذه الأنباء أن هؤلاء الضباط الكبار كانوا مجتمعين فى أحد المواقع فى الخطوط الأمامية ساعة بدء القتال ثم فاجأتهم دفعات قوية ومركزة من نيران المدفعية المصرية» .

وبعد يوم ١١ أبريل ٦٩ أصدر الجيش الاسرائيلى بيانا أعلن فيه أن واحدة من الكوماندوز تسللت من الضفة الغربية لقناة السويس وهاجمت معسكرا اسرائيليا فى شمال سيناء بقذائف البازوكا ووصفت وكالة الاسوشيتدبريس العملية بأن الكوماندوز المصريين قد «انزلقوا» عبر المستنقعات المالحة والمعروفة باسم «ملاحات بور فؤاد» ربما بواسطة الزوارق وأن هذه أول مرة تتعرض فيها قوات اسرائيل شمال سيناء للهجوم ، هذا فى نفس

الوقت الذى تجدد فيه القتال للمرة الثالثة فى ثالث يوم على التوالى فى منطقة طومسون والاسماعيلية .

واستمر القتال على هذا النحو حتى أمكن الجانب المصرى أن يعلن أنه تم تدمير جزء كبير من تحصينات العدو «فى خطه التكتيكى الأول» .

وبعد أيام اتسع القتال وبدأ العدو يشترك فى المعركة بأعداد متزايدة من طيرانه ، وشمل الجبهة كلها من السويس إلى بورسعيد وبدأت طائرات العدو تركز هجماتها على قواتنا على طول الجبهة وتسقط قواتنا عدد من طائرات العدو ...

وجاء يوم أربعين الشهيد عبد المنعم رياض - ١٧ أبريل - والمتحدث العسكرى المصرى يقول بأن «اشتباكا بالمدفعية والدبابات وأسلحة الضرب المباشر بدأ فى الساعة العاشرة على طول خط المواجهة من السويس إلى البحيرات المرة وقد تم فى هذا الاشتباك تدمير معظم مواقع العدو الحصينة ومواقع صواريخه ومدفعيته كما تم تدمير جميع العربات التى كانت تحاول الوصول إلى مواقع العدو» .

وفى ٢٠ أبريل بدأ القتال المصرى يتخذ بعدا جديدا : فبعد عمليات التدمير بالمدفعية وتسلل قوات الكوماندوز ، بدأت عمليات عبور لقوات مصرية لتؤدى مهمات جديدة .

«قالت الاهرام يوم ٢١ أبريل :

«شهدت جبهة القتال عملية عسكرية من نوع جديد ، عبرت فيها وحدة من القوات المصرية الخاصة قناة السويس واقتحمت أحد المواقع الحصينة للعدو واشتبكت مع أفراده في قتال مباشر . وقد سيطرت القوة المصرية على هذا الموقع سيطرة كاملة لمدة ساعتين ولم تتركه إلا بعد أن نسفته وقتلت وأصابت كل من فيه من الضباط والجنود . وقد عادت القوة سالمة إلى الخطوط المصرية وراء القناة ومعها علم الموقع وبعض الأسلحة الاسرائيلية الخفيفة» وقد ذكر البلاغ المصرى الرسمي فوق ذلك أن القوة اشتبكت أثناء ذلك مع مجموعة من دبابات العدو حاولت أن تتدخل في الموقع ونجحت قواتنا في تدمير إحدى الدبابات» .

كانت هذه نقطة تحول أخرى في حرب الاستنزاف . وكانت أول مرة تنشر الصحف صور اسلحة وأعلام اسرائيلية حملها جنودنا من الضفة الشرقية بعد قتال ..

وشعرت اسرائيل بأن هذه المعركة قد تكون بداية مرحلة جديدة في حرب الاستنزاف فقدم مندوبها في الأمم المتحدة شكوى رسمية إلى مجلس الأمن في اليوم التالى لهذه العملية طالبا من مجلس الأمن الزام مصر باحترام وقف اطلاق النار .

وفى نفس اليوم نقلت وكالة الأنباء الفرنسية صورة من داخل اسرائيل : «.. صرحت المصادر العسكرية المطلعة بأن الغارات التى بدأت تشنها القوات المصرية على القوات الاسرائيلية عبر قناة السويس، قد تدفع اسرائيل إلى عمل مضاد قوى تستعيد به عنصر المبادرة . ويعتبر المسئولون الاسرائيليون الهجمات المصرية التى اتخذت أسلوبا جديدا عبر خطوط وقف اطلاق النار اكثر من مجرد انتهاك لاتفاق وقف اطلاق النار . ومضت هذه المصادر تقول أن المصريين لم يحاولوا حتى التستر على انتهاكاتهم لخطوط وقف اطلاق النار فى بياناتهم واذاعاتهم، ومع أن هذه المصادر لم تشر إلى الشكل الذى قد تتخذه أية محاولة قد تقوم بها اسرائيل لاستعادة عنصر المبادرة فى منطقة القناة، إلا أن المراقبين اعتبروا الهجوم الجوى الاسرائيلى على محطة الرادار المصرية فى الأردن جزءا من هذا الاتجاه» .

ومن القدس كتب فى نفس اليوم جيمس فيرون مراسل جريدة نيويورك تايمز «احتفلت اسرائيل بذكرى مرور ٢١ عاماً على انشائها . وقد بدأت هذه الاحتفالات مساء بالرقص والغناء ثم سيطرت عليها حالة التوتر والوجوم التى تسود البلاد . وكانت اسرائيل عندما احتفلت بهذه المناسبة ذاتها فى العام الماضى ، على غير هذه الحال . إذ كان يسودها شعور البهجة والانشراح .

أما هذا العام فإن شعورا بخيبة الأمل قد خيم على الاحتفالات . وكان الناس الذين خرجوا للاحتفال يتجمعون حول أجهزة الراديو للاستماع إلى أنباء خطوط القتال وما يذاع عن عدد القتلى والجرحى ، وهو عدد يتزايد يوما بعد يوم مما يجعل لهذه الخسائر وقعا شديدا بين الناس . وهناك إلى جانب الخسائر فى الجنود مبعث أخر للقلق يتمثل في الموقف بالنسبة للأمن عند خطوط وقف القتال ، فهو موقف يتفاقم بصورة مستمرة من حيث عدد الحوادث وعنفها . ويقرأ الاسرائيليون كل يوم عن الغارات التى تشنها القوات المصرية عبر قناة السويس . والرأى السائد أن المصريين قد أصبحوا قادرين على أن يعبروا القناة دون أن يتعرضوا لما كان العسكريون يصفونه «بالعقاب» فى منطقة تحتلها القوات الاسرائيلية» .

وكان الرد الاسرائيلي هو أن يمتد الضرب الجوى المستمر من الجبهة إلى داخل العمق المصرى ، ولكن عدم وصول هذا الضرب في العمق المصرى إلى تحقيق أى نتيجة فى المعنوية المصرية أو فى استمرار القتال وتصاعد عمليات العبور على القناة جعلت مراسل الاسوشيتدبريس فى أسرائيل يكتب يوم ٥ مايو ٦٨ بعد أن فقدت العمليات الاسرائيلية الانتقامية فعاليتها – مثل الهجوم على منطقة نجع حمادى – وأصبح المصريون لا يبالون بها

ويمضون فى طريقهم التى رسموها لأنفسهم ، بدأت اسرائيل تتحدث عن الحرب . إن الذين كانوا منذ شهور يعتبرون أن نشوب حرب جديدة هو وهم وخيال أصبحوا يتحدثون عن هذا الاحتمال الآن جديا . وقد قال مصدر اسرائيلى مسئول : أن المصريين وصلوا إلى نقطة يجدون معها أن مجرد الثأر لا يفيد ولا يفزع أحدا ولا يوقف شيئا ، واعتقد أن حربا كبيرة ستقع من جديد» .

وفى ١٣ مايو ألقى موشى ديان خطابا هاما قال فيه «إن مشكلتنا الأولى الآن بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة الحرجة هى أن نحصن أنفسنا على طول خط القناة وأن نصمد فى مواجهة عمليات الانهاك والاستنزاف المستمرة . ولكن ينبغى علينا أن نتساءل : هل فى وسعنا الاستمرار فى الصمود تحت ضغط الخسائر اليومية ؟».

أن هذا وصف موجز للثلاثة شهور الأولى لحرب الاستنزاف . وبعدها بدأت عمليات العبور ونسف تحصينات خط بارليف الأول من الداخل تصبح أحيانا يومية .. تلك الحرب التى استمرت بعد ذلك خمسة عشر شهرا أخرى تصاعدت فيها جهود العدو لردعنا فى صورة قصف جوى امتد إلى المدن والقرى وضواحى القاهرة بالإضافة إلى القصف الجوى المركز على مواقع قواتنا غرب القناة أحيانا ٢٤ ساعة متوالية كل يوم :

ووصلت عمليات عبورنا إلى العبور بقوات كبيرة فى وضح النهار وتدمير المزيد من خط بارليف حتى أعلنت مصر أن أكثر من ٦٠٪ منه قد تم تدميره فعلا ...

ووقعت معارك لسان بور توفيق والجزيرة الخضراء وشدوان ...

وقامت الضفادع البشرية المصرية بعمليتها الجريئة فى ميناء ايلات : حين اقتحمت مياه الميناء رغم الموانع والالغام البحرية وهاجمت ودمرت قطعا بحرية اسرائيلية ومنشآت كثيرة فى الميناء نفسه ...

ولعل أخطر صراع بين الارادتين كان يدور حول تصميم مصر على اقامة شبكة الصواريخ المضادة للطائرات وبين تصميم العدو على منع ذلك بأى ثمن مستخدما سلاحه الجوى ليل نهار ...

وفى هذه المعركة اشترك الجنود والضباط والمهندسون والقطاعات المدنية مع العسكرية والعمال وأهالى القرى رجالا ونساء واطفالا ...

كانوا مصممين على اقامة هذه الشبكة مهما كانت الخسائر فى الأرواح ، وتلك وحدها قصة تحتاج إلى كتاب بمفرده ...

وكان النصر لارادتنا . وشعر العدو بذلك حين بدأت الصواريخ تعمل: وكان أكثر الأيام فى تلك الفترة سوادا فى تاريخ الطيران

الاسرائيلي يوم ٣٠ يونيو حين أسقط دفاعنا الجوي أربع طائرات للعدو في يوم واحد : طائرتان فانتوم وطائرتان سكاي هوك ، وسقط ثلاثة من طياري العدو أسرى في أيدينا .. ثم لم تلبث أن تصاعدت خسائر اسرائيل إلى إحدى عشرة طائرة في اسبوع من واحد إلى ٧ يوليه ١٩٧٠) .

ولم تعد الفانتوم ذلك الشبح المخيف ، أو تلك الطائرة التي قالت عنها جيروزاليم بوست الاسرائيلية «أنها طائرة محصنة ضد أحدث أجهزة الدفاع الأرضية» .

وكان سقوط الطائرات الاسرائيلية بهذا المعدل من أهم مراحل حرب الاستنزاف .. وصفتها اسرائيل «بأنها خلقت موقفا جديدا تماما» وقالت وكالات الانباء أن تل أبيب تلح على واشنطن من أجل الحصول على شحنات عاجلة من الفانتوم والسكاي هوك لأنه لابد أن يكون لديهم احتياطي من الطائرات يسمح لهم بالمخاطرة بعدد كاف منها في الغارات على الخطوط المصرية .

وقال مصدر اسرائيلي مسئول : «إذا استمر تساقط الطيران الاسرائيلي على الجبهة المصرية بالمستوى الذي حدث خلال الأيام القليلة الماضية فإن اسرائيل قد تطلب اسهاما امريكيا «أكثر نشاطا» .

وعقد الجنرال بارليف يوم ٧ يوليو مؤتمرا صحفيا في القدس اعترف فيه بأن بطاريات صواريخ سام ٢ أرض جو في الجبهة يعمل عليها المصريون وحدهم ، ونشرَ رئيس الأركان الاسرائيلي على الصحفيين خريطة لمنطقة القناة حدد فيها ١٢ موقعا باللون الأحمر قال أنها لبطاريات صواريخ سام ٢ ، وقال أن هدف المصريين من إنشاء هذه الشبكة الجديدة هو تدمير التفوق الاسرائيلي الجوي في الجبهة وبالتالي تمكين القوات المصرية من البدء بعمليات هجومية .

واعلنت امريكا عن تعويضها لكل طائرات اسرائيل التي تتساقط .

وقد ظلت تتساقط أمام دفاعنا الجوي ، ثم أمام طيراننا ، حتى أعلن قبول مبادرة روجرز ووقف اطلاق النار .

●

إن هذا لم يكن محاولة لحصر كل العمليات العسكرية التي قام بها الطرفان خلال حرب الاستنزاف ، كما أن الكثير مازالت تحتفظ به القيادات لنفسها ، إلا أننا ونحن نحاول في هذا الكتاب أن نضع الأحداث في اطارها التاريخي لابد أن نتساءل ماذا حققت حرب الاستنزاف من وجهة نظر الطرفين ، قبل أن يتوقف اطلاق النار مرة أخرى في ٧ أغسطس ١٩٧٠ .

وفى تقديرى أن التحليل الموضوعى يكشف أن حرب الاستنزاف حققت من الأهداف التى توخاها الجانب المصرى أكثر مما حققت من أهداف الجانب الاسرائيلي ...

إن الذين قاسوا حرب الاستنزاف بأنها لم تؤد إلى جلاء اسرائيل عن سيناء ، وبالتالى حكموا عليها بأنها لم تحقق غرضها، إنما أصدروا حكمهم هذا فى الواقع بناء على هدف لم يكن من أهدافها لأن معركة دفاعية محضة وعلى جبهة واحدة لا تخرج عدوا مثل اسرائيل من مواقعه ، خصوصا وأنها لا تطلب شروطا أقل من الاستيلاء على الأراضي بكاملها أو معظمها فى أقل تقدير.

«.. ولكن مصر نجحت من حيث أنها جسدت قوتها الحربية الجديدة فى أعز صورها ، وأعطت العالم والعدو صورة عن قوتها الحربية النامية جعلت أمريكا تتحرك إلى محاولة تدارك الموقف بطرح مشروع روجرز وجعلت مصر تقبل وقف اطلاق النار من مركز قوة لا من مركز ضعف [١] » .

«وفى سنة ١٩٧١ كانت تدور مناقشة حادة فى اسرائيل حول

---

(١) دراسة أحمد سامح الخالدى عن حرب الاستنزاف فى Journal of Palestine Studies

هذا الموضوع ، إذ أعلن الجنرال ما تيتياهو بيليد (الذى كان فى هيئة أركان الحرب الاسرائيلية فى حرب يونيو) علنا فى الصحافة العبرية أن سياسة الجنرال ديان قد أدت إلى هزيمة اسرائيلية فى حرب الاستنزاف وقد سجل زيف شيف محرر جريدة هاأرتز العسكرى آراء الجنرال بيليد كالآتى :

«من الوجهة العسكرية ، فشل الجيش الاسرائيلى فى حرب الاستنزاف ، وبالتالى فقد كانت هذه أول مرة يهزم فيها الجيش الاسرائيلى فى الميدان منذ قيام دولة اسرائيل لدرجة أننا فى اسرائيل أسرعنا إلى التشبث بأول قشة ألقيت الينا . وهى وقف اطلاق النار .. لماذا ؟ .

«واستطرد بيليد يعطى الأسباب التالية :

أولا – لأننا لم ننجح فى اسقاط النظام المصرى عن طريق الضرب بالطائرات فى العمق المصرى .

ثانيا – لأننا فقدنا سيطرتنا على الأجواء المصرية .

ثالثا – لأننا فشلنا فى منع الروس من زيادة التزامهم بتسليح مصر ومساعدتها فى الدفاع عن نفسها .

رابعا – لأننا فشلنا فى التوصل إلى ايقاف اطلاق نار نهائى

وحاسم «مشيرا بذلك إلى مضي مصر في اقامة شبكة الصواريخ المضادة للطائرات بكثافة بعد وقف اطلاق النار» ..

ورد زيف شيف على بيليد قائلا أن اسرائيل لم تخسر حرب الاستنزاف بهذه الدرجة لأن الهدف لم يكن السيطرة على الأجواء المصرية بل الاحتفاظ بالمواقع الاسرائيلية على خط القناة وهذا ما تم ساعة وقف اطلاق النار .

ولكنه اعترف بفشل سياسة ضرب مصر جوا فى العمق «ذلك أننا قمنا بهذه الغارات دون تحديد واضح للهدف منها وبالتالى دون اطار محدد لدرجة ومدى هذا الضرب ، كما فشلنا في أن نواكب الضرب الجوي بالعمل السيكولوجي اللازم» .

وقد صار الكثيرون يستشهدون بمقال زيف شيف فى مجال الدفاع عن سياسة القيادة الاسرائيلية (١) . لقد قال أن الهدف كان التمسك بخط القناة ولكنه مع ذلك اعتراف بأن اسرائيل أخطأت في ضرب العمق المصري دون خطة متكاملة واعترف بأنها أخطأت في طريقة الهجوم التى اتبعتها ضد الصواريخ المصرية وبالتالى لم تدمرها ، وفى أنها لم تحدد شروط وقف اطلاق النار بدقة . ثم

---

(١) المرجع السابق .

قال أن المكسب الرئيسي من وقف اطلاق النار كان اختفاء قوائم القتلى الاسرائيليين من الصحف يوميا .

والواقع أن زيف شيف لم يرد تماما على ملاحظات الجنرال بيليد . فهو كان يتجنب الرد المباشر حين فرق بين هدف السيطرة على الجو المصرى وهدف الاحتفاظ بخط القناة رغم أن الاثنين مرتبطان . ثم أنه اعترف بعدم وضع خطة محددة للضرب فى الأعماق وهذا غير صحيح فقد كان الهدف المحدد المعلن هو انهيار مصرى من الداخل عن طريق نقل الحرب إلى كل مصرى ، الأمر الذى لم يتحقق . ثم أنه يكشف نفسه حين يقول أن اسرائيل قبلت وقف اطلاق النار لأسباب أخرى ثم يسجل من هذه النتائج اختفاء قوائم القتلى الاسرائيليين من الصحف كل يوم» .

«ثم أن حرب الاستنزاف هى فى الدرجة الأولى حرب أعصاب . فهى ليست مواجهة شاملة تحشد لها كل الطاقات ، وبالتالى ترتفع خلالها المشاعر إلى أقصى حد . لقد تعودت اسرائيل على أن تحقق نتائج سريعة وحاسمة فى كل حرب مع العرب . فلما واجهتها حرب من نوع آخر ظلت مستمرة يوما بعد يوم ، وكل بلاغ يسجل مكاسب وخسائر ولكن دون نتيجة واضحة ، كان الأثر التراكمى لهذا على الشعب الاسرائيلى واضحا ...» .

ولكننا إذا تركنا هذه المناقشات جانبا فإننا نسجل بالنسبة لآثار حرب الاستنزاف ما يلى :

أولا - لقد تم تدمير ما يقرب من ٦٠٪ من خط بارليف خلال هذه الحرب ورغم أن الوقت قد اتسع أمام اسرائيل بعد ذلك لإعادة بنائه وتدعيمه ، إلا أن التجربة التى استفادتها القوات المصرية فى العبور والالتحام بالعدو ، لا تقدر بثمن ، بالنسبة لروح القوات ذاتها وبالنسبة للخطط التى تم وضعها بعد ذلك فى صمت لمهاجمة الخط كله واحتلاله سنة ١٩٧٣ .

ثانيا - لقد كان لهذه الحرب دور كبير فى تطوير قواتنا المسلحة أكثر وأكثر ، وتدعيم ترابطها وعملها المشترك .. كما أنه رفع سمعتها لدى نفسها ولدى مواطنيها .

ثالثا - أن هدف اسرائيل من تدمير روح الشعب المصرى من الداخل لم يتحقق بل أثبتت الدراسات عكسه تماما . وتأكدت قدرة الشعب المصرى على الاحتمال مع قواته المسلحة .

رابعا - إن الهدف العسكرى المباشر هو تدمير شبكة الصواريخ أو خلخلة مواقعنا الدفاعية والهجومية معا ، لم يتحقق بدليل أن صواريخنا اسقطت أربع طائرات فانتوم فى آخر يومين قبل وقف اطلاق النار ، وأن قواتنا استمرت فى اقامة شبكة

الصواريخ وتكثيفها بعد وقف اطلاق النار دون خشية من استئناف الغارات الاسرائيلية التي لو أنها وجدت الأمر في مصلحتها لاستمرت فيه .

خامسا – أن كل استفتاءات الرأي العام على مر السنين منذ سنة ١٩٦٧ كانت تثبت أن الصقور في اسرائيل تزداد قوتهم حين تسكن الجبهات العربية ويصبح الاحتلال زهيد الثمن . في حين كان دعاة الاعتدال يجدون تحولا واضحا نحوهم من الرأي العام الاسرائيلي حين يبدأ الاسرائيليون في الاحساس بوطأة القتال وفداحة الثمن الذي يدفعونه من أفرادهم .

ولم ترتفع الأصوات بين ٦٧ وأكتوبر ٧٣ مطالبة بالبحث عن حل ، مثلما ارتفعت خلال حرب الاستنزاف .

ففي خلال حرب الاستنزاف كتبت جريدة دافار بعنوان «متى تأتي النهاية» تقول : «من الحماقة أن نضحي بالروح المعنوية العامة في سبيل تكتيكات سياسية . فالى متى نستمر في التمسك بأهداف لن تتحقق في زمن بعيد ؟ لقد قال ديان أنه إذا استمرت حرب الاستنزاف فستضطر اسرائيل إلى انهائها عن طريق تحويلها إلى حرب شاملة ، أليس الأحسن من ذلك بالنسبة لاسرائيل أن تعلن أنها مستعدة للتفاوض مع الفلسطينيين أنفسهم مباشرة ؟ ..

وكتب الجنرال عوزى ناركيس ، حاكم الضفة الغربية يقول :

«إن التغير فى اتجاه بتلول معنوياتنا هو ولا شك أكبر كارثة حلت بنا منذ الأيام الستة . ولكن ليس هذا أخطر ما فى الأمر . فقد بدأ الناس يتهامسون متسائلين عما إذا كان لدينا من القوة الكافية ما يمكننا من هزيمة العدو فى مواجهة أخرى . لقد وصل كثير من الناس إلى درجة صاروا فيها محتاجين إلى جرعات تقوى معنوياتهم وتحميها من انهيار مفاجىء فى ثقتها فى قواتنا المسلحة» .

وكتب يورى أفنيرى قائلا أن خسائر اسرائيل بلغت أقصى درجاتها منذ الحرب .. وهاجم سياسة اسرائيل القائمة على أساس «لا سلام» لمجرد التهرب من مواجهة مشاكل داخلية قد يجلبها عليها مثل هذا السلام «إلى أين يقودنا كل هذا ؟ إن السؤال مشروع . فلا يوجد شعب يمكن أن يعيش فى حالة حرب مستمرة لا تنتهى . إن مثل هذه الحالة هى التى دمرت دولة الصليبيين من الداخل وهم مازالوا يحاربون بالدرع والسيف» .

وبعض المعلقين قالوا أن مشروع روجرز وما تلاه من وقف اطلاق النار قد انقذهم «فلنقبل وقف اطلاق النار ساد شعور بأنه لا يوجد أى مخرج وبدأ كثيرون يقولون «اذا كنا سنضطر للقبول فلنقبل الآن قبل أن يرتفع الثمن من الخسائر والأرواح» .

ونشرت دافار مقالا بعنوان «لقد قاسينا من حرب الاستنزاف» قال فيه «من الخطأ أن ندفن رؤوسنا في الرمال ولا نعترف بقسوة ما تحملناه ، وان كان هذا لم يظهر على سطح حياتنا . ان خسائرنا عالية جدا اذا قيست بنسبة عدد السكان الى خسائر أمريكا في الحرب العالمية . أو حرب كوريا . أو حرب فيتنام» ..

٦ أكتوبر ١٩٧٣

يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ ، كان يوم الذكرى الثالثة لوفاة جمال عبد الناصر ، وكعادته ، وجه الرئيس انور السادات حديثا الى الأمة . وقد تحدث عن امور سياسية كثيرة داخلية وخارجية ولكنه ربما لأول مرة لم يتحدث عن الحرب . ففى ختام مقتضب لحديثه قال «أيها الأخوة والأخوات ، لعلكم لا حظتم أن هناك موضوعا لم أتعرض له . ولكننا نعرف هدفنا ونحن مصممون على تحقيقه . لن ندخر فى هذا السبيل جهدا أو نبخل بتضحية ولن أتحدث اليوم عن هذا طويلا . ولكننى فقط أقول ان تحرير الأرض كما قلت مرارا هو المهمة الأولى التى تواجهنا وسوف نحقق هذا الهدف بإذن الله. إنها ارادة هذا الشعب . بل انها ارادة الله» .

ولم يعرف أحد وقتها أن أنور السادات كان قد أعطى أمر المعركة بالفعل . وأن الأداة الحربية الضخمة التى تستعد منذ سنوات قد وصلت فى استعداداتها الى الذروة ، وأن الهجوم الكبير سيبدأ بعد أسبوع ..

هل يمكن حقا أن تكون اسرائيل قد أخذت على غرة ، بمخابراتها التى جعلتها أسطورة لا تدب دابة على الأرض العربية الا بمعرفتها ، وبالمخابرات الأمريكية التى لا تكف عن مراقبة المنطقة وتبادل المعلومات معها .. ؟

ان قضية «المفاجأة» من أول وأكبر القضايا التى تثيرها حرب أكتوبر ١٩٧٣ : هل كانت هناك حقا مفاجأة ؟ وما هو مدى هذه المفاجأة؟

بالتأكيد كانت هناك مفاجأة . ولكن إلى أى حد كانت هذه المفاجأة ؟ هل لم يعرف الاسرائيليون بالهجوم – مثلا – إلا ساعة اطلاق الطلقة الأولى ؟ أم أنهم عرفوا قبل ذلك بأيام ؟

وأهمية هذه الوقفة الأولى عند أول قضايا المعركة وهى عنصر المفاجأة، هام ، لسبب أراه جوهريا .

فالحرب الإعلامية الإسرائيلية بعد أن أفاقت من صدمة أكتوبر، تحاول أن تعيد بناء الأسطورة من جديد وذلك بالتقليل من أسباب الانتصار المصرى وتصويره وكأنه نوع من «المصادفات البحتة» .

وهم فى هذا يستندون إلى محورين أساسيين :

الدعوى الأولى أنه لولا المفاجأة وحدها لما حدث ما حدث .

والدعوى الثانية : أنه لولا وقف اطلاق النار لأجهزوا على القوات العربية كما فعلوا فى حروب سابقة - وسيأتى أوان هذه القضية فيما بعد .

وعندما نتأمل عنصر المفاجأة الذى نجحت فى توفيره القيادة المصرية، نجد أنه كان ناجحا بغير شك. ولكن مبالغة الاسرائيليين فيه أمر آخر.

إن المفاجأة عنصر من عناصر أى حرب . وخصوصا فى أى هجوم. حتى فى غمار حرب مستمرة، تنطوى أى مبادرة هجومية على قدر من التضليل والخداع والمفاجأة ..

وفى حالتنا كان توفير عنصر المفاجأة أمرا صعبا ..

فنحن بلاد محتلة والمنطق يقول أنه من التصلب الإسرائيلى لابد من نشوب القتال ذات يوم .

وفى نفس الوقت كان هذا القتال لتحرير الأراضى المحتلة هو الهدف المعلن للدولة والذى يردده رئيس الجمهورية نفسه فى كل خطاب هام. وليس كمفاجأة ١٩٦٧ مثلا، أو ١٩٥٦ ، حين نشبت الحرب دون أى مقدمات وبناء على خداع طويل .

ومع ذلك فقد تمكنت القوات المصرية من تحقيق المفاجأة ..

قال الفريق أول أحمد إسماعيل على قائد عام القوات المسلحة المصرية [1] :

- فى كل حرب هناك خطة العمليات وهناك خطة الخداع وأعتقد أننا نجحنا ، فلقد وضعنا خطة الخداع على المستوى التعبوى والاستراتيجي ووضعت لها جداول وتوقيتات سارت جنبا إلى جنب مع خطة العمليات وتوقيتاتها بجداولها .. ولقد وصلنا فى الكتمان إلى درجة أن يوم «ى» لم يكن معروفا بعد تحديده مبدئيا إلا لاثنين : الرئيس وأنا .

«وحتى عندما بدأنا العد التنازلى من يوم «ى» بالناقص وكان ذلك قبل شهر من بدء العملية «ى» ناقص ٣٠ ، «ى» ناقص ٢٩ ، «ى» ناقص ٢٨ وهكذا فإن السر ظل محصورا .

«وعندما بدأنا الحشد وأنا أعرف أن العدو يستطلع كل يوم فلقد كنت أدفع إلى الميدان بلواء مثلا .. وأعود فى الليل بكتيبة ، لكي يشعر العدو أن القوات التى ذهبت كانت فى مهمة تدريبية أنتها وعادت منها .

ولقد أخرت إرسال معدات العبور إلى أقصى حد ممكن ، فقد كان مؤكدا أن خروج هذه المعدات من مخازنها كفيل بتنبيه العدو

---

(١) فى حديث مع محمد حسنين هيكل ، الأهرام ١٩٧٣/١١/١٨ .

إلى نوايانا، وقد صنعنا لبعض هذه المعدات صناديق خاصة لا يشعر أحد أن اللوارى الضخمة التى تحملها لوارى مهندسين ، ثم رتبنا لهذه المعدات حفرا على جانب القناة نزلت إليها فور وصولها ليلا .

«كانت الخطة خلال هذا كله بالطبع قد اكتملت إلى آخر التفاصيل ، بل إلى تفاصيل التفاصيل ، وكان ذلك طول الوقت بالتنسيق مع سوريا .

وقبل أيام قليلة من يوم «ى» كانت تفاصيل الخطة تنزل من قادة الجيوش إلى قادة الفرق ثم قادة الألوية ثم قادة الكتائب ..

« بعض الجنود من طلائع الهجوم عرفوا قبلها بثمان وأربعين ساعة وبعضهم عرفوا يومها فى الصباح» ..

«ولقد تتذكر أننا تعمدنا تسريب بعض الأنباء لصرف الأنظار تماما عن نوايانا : أذعنا مثلا أن وزير دفاع رومانيا قادم فى زيارة لى يوم ٨ أكتوبر . وطلبنا منكم فى الأهرام مثلا نشر خبر بأننى فتحت الباب لقبول طلبات الضباط والجنود الراغبين فى أداء العمرة» .

والقيادة المصرية تحتفظ حتى الآن بكثير من أسرار عمليات الخداع، التى وصلت إلى ٦٥ بندا للخداع فى المعركة ، ووصلت

هذه البنود إلى أصغر التفاصيل حتى أن جنودا أمروا أن يسبحوا في مياه القناة دون سلاح، الساعة الواحدة ظهرا ، أى قبل ساعة الصفر بساعة واحدة كما تعودوا أن يفعلوا فى بعض الأيام ، حتى يقل شعور العدو بالاستعداد .. وقد قام هؤلاء بذلك وهم يعرفون أن القتال سينشب بعد ساعة وأنهم في وضعهم هذا قد يكونون من أول الضحايا ..

وفى هذا الجزء الذى ينصب على ردود فعل اسرائيل قبيل المعركة، وشكوكها ومدى معرفتها سأرجع أساسا إلى الصحف الأجنبية، والكتاب الذين كانوا في الجانب الاسرائيلى ، وما ظهر بعد الحرب من حقائق ..

أنه يمكن القول بأن إسرائيل قد ضللت نفسها استراتيجيا ، حين اقنعت نفسها بأسطورتها التى لا تقهر ، وأقنعت نفسها بأن العرب قد اقتنعوا بهذه الأسطورة ، وبالتالى فانهم لن يحاربوا .

ومن هذا المنطلق النفسى لم تر إسرائيل فى التحركات السياسية العربية للرئيس السادات طوال السنة التى سبقت الهجوم شيئا جديدا أو لم تشأ أن ترى فيها شيئا جديدا ..

تقول جريدة الصنداى تايمز فى تحقيق شامل لها عن الحرب «كان أول أسباب هذا العمى الإسرائيلى عمليا ، فخلال السنوات

السابقة كانت المخابرات الإسرائيلية مشغولة إلى أقصى حد بمطاردة المقاومة الفلسطينية ، خصوصا فى الخارج . ولما كانت الطاقة الإسرائيلية البشرية محدودة فقد اضطرت إسرائيل إلى أن تسحب كثيرا من عملائها فى البلاد العربية - خصوصا سوريا ومصر - وكانت النتيجة كما وصفها دبلوماسى انجليزى بعد ذلك غلطة تقليدية للمخابرات - حتى تعرف « قدرات» العدو ولكن تعجز عن إدراك نواياه » .

«هذا الانشغال الشديد بمطاردة الفلسطينيين قاد إسرائيل إلى الغلطة الثانية : عجزها عن إدراك أن العرب يمكن أن يخوضوا حرب العصابات وحربا تقليدية عسكرية فى وقت واحد . فقد ظل الجنرال ديان وزير الدفاع ، وكل رؤساء أركان الحرب المتوالين، يرددون اقتناعهم بأن العرب يمكن أن يمارسوا حرب العصابات ولكنهم لايجسرون على مقابلة الإسرائيليين فى معركة حربية وجها لوجه . وهكذا عجزت إسرائيل عن معرفة أخبار تصاعد الاستعداد العربى العسكرى» .

ولعل السبب الأول - سحب المخابرات الإسرائيلية عملاءها من منطقة إلى منطقة - هو العذر الذى تقوله المخابرات الإسرائيلية اليوم لرؤسائها ولكنه سبب واضح الهزال والسخف . ولكن السبب

الثاني هو الذي ساهم فعلا في تضليلها استراتيجيا ، وهو ثقتها في مناعتها المطلقة وفي عجز العرب المطلق .

هكذا لم تفهم إسرائيل اتصالات الرئيس أنور السادات المتوالية بأطراف عربية كثيرة ، ولم تفهم إسرائيل تنويع العرب لمصادر تسلحهم، ومحاولاتهم الحصول في السوق العالمي على بعض ما ينقصهم ، ولم تفهم مظاهر التنسيق العسكري الواضح بين سوريا ومصر بالذات ، والزيارات العسكرية المتبادلة على أعلى المستويات، ثم لم تفهم محاولة اصلاح الموقف بين سوريا ومصر من جهة والأردن من جهة أخرى قبل الحرب بشهور قليلة ..

ونعود إلى الصنداي تايمز لنجد أنها تنقل عن الجانب الإسرائيلي أنه توقع حدوث الحرب أكثر من مرة قبل أكتوبر ١٩٧٣ ولكن توقعاتهم لم تصح . ففي ٢ مايو اشتعل قتال حاد بين المقاومة الفلسطينية وقوات الجيش اللبناني في بيروت . وكان عملا اسرائيليا هو الذي فجر الصدام ففي ١٠ أبريل دخلت قوات من الكوماندوز الإسرائيلية في ثياب مدنية إلى قلب بيروت ، واغتالت ثلاثة من أبرز زعماء المقاومة الفلسطينية في بيتهم (الشهداء كمال ناصر ويوسف النجار وكمال عدوان) . وسقطت الحكومة اللبنانية وانفجرت الاشتباكات التي دامت تسعة أيام فيما يشبه الحرب الأهلية الصغيرة .

«وتوقعت المخابرات الإسرائيلية أن يمتد الاشتباك إلى خارج لبنان ، وخوفا من خطابات السادات التي كانت تهدد بالحرب خافت إسرائيل أن تكون سوريا على وشك القيام بتدخل عسكرى لصالح الفدائيين. ومثل هذا لو حدث كان سيجر إلى مضاعفات لابد أن تصل إلى إسرائيل. وكانت في سوريا حالة استعداد عسكري ، وأعلنت حالة الطوارئ بين القوات الإسرائيلية التي بدأت تقوم بمناورات ظاهرة فوق مرتفعات الجولان » .

«كان هذا انذارا كاذبا ، ولكنه يلقى الضوء على المشاكل التي أربكت إسرائيل بعد أربعة شهور ، ذلك أن الانذار الذى أعلن فى مايو ، كما قال الجنرال دافيد العازار رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي، كان بناء على معلومات عن استعدادات عربية للحرب أكثر اقناعا من الظواهر التي لاحظها الإسرائيليون بعد ذلك بشهور ، ويومها كلفت حالة التعبئة الجزئية (فى مايو) إسرائيل ما يقرب من خمسة ملايين جنيه استرليني، الأمر الذى لا تتحمله الخزانة الإسرائيلية مرة كل انذار، والذى كان أحد أسباب التردد حين جاءت بعض النذر فيما بعد».

«وقد كان شهر مايو شهراً حرجاً كذلك بالنسبة لممارسة إسرائيل النهائية ، أمريكا ، والمخابرات الأمريكية تشمل عدة أجهزة مستقلة ، أعمالها تتداخل أحيانا وتقع بينها منازعات

كثيرة، وإن كانت أشهرها هي الـ CIA أو إدارة المخابرات المركزية ، وأصغر هذه الأجهزة هو مكتب المخابرات والأبحاث التابع لوزارة الخارجية الأمريكية : الذي له اتصال مباشر بسائر أجهزة المخابرات دون أن يكون له عملاؤه الذين يعملون لحسابه مباشرة ، وبالتالي فمهمة هذا المكتب هي تحليل المعلومات التي يتلقاها من سائر الأجهزة » .

«وحين راجع هذا المكتب أزمة مايو والنذر الخاصة بتسارع استراتيجية أنور السادات وجد المكتب أنه من المتوقع فعلا أن تقع الحرب ولكن في الخريف ، وأطلع وقتها جهاز المخابرات المركزية على هذا التقدير فوافق عليه ولكنه لم يوافق على تحديد موعد بهذه الدقة .

وأحد هذه العناصر في تقديرات الأجهزة الأمريكية كانت حقيقة تراكم الأسلحة بكميات كبيرة لدى العرب التي بدأوا يتلقونها من روسيا مجددا ، وكانت شحنات السفن الروسية من الدبابات الثقيلة ت - ٦٤ إلى مصر وسوريا لم تقلق إسرائيل كثيرا. ولكن في ٣ مايو قام الرئيس حافظ الأسد برحلة لمدة ٢٤ ساعة إلى موسكو عاد منها بوعد من الاتحاد السوفييتي باقامة شبكة صواريخ سام و ٤٠ طائرة ميج ٢١ .

«وبينما كانت سوريا تتسلح كانت المفاوضات لتحقيق استراتيجية مصرية وسورية موحدة تمضي في طريقها ، وفي اجتماع في دمشق تم يوم ١٢ يونيو ، اتفق الرئيس الأسد على خطة السادات في الحرب .

«وفي يوم ١٠ سبتمبر اجتمع في القاهرة الملك حسين والرئيس الأسد مع الرئيس السادات ، ولاشك أن أمورا كثيرة قد سويت في هذا الاجتماع . وإن كان موعد الحرب قد ترك تقريره للرئيس السادات .

وتستطرد الصنداي تايمز فتقول « ولا أحد يعرف إذا كانت إسرائيل قد أرادت في تلك اللحظة أن تثير حربا مع سوريا أم لا.

لقد رفض رئيس الأركان الإسرائيلي فيما بعد أن يعترف بأي نية من هذا النوع ، ولكن ما الذي كانت تفعله أربع مقاتلات إسرائيلية بتحليقها فوق الشواطئ السورية شمالا عند البحر الأبيض ؟ يقول بعض الإسرائيليين أنها دورية عادية ويقول آخرون أنها حيلة جربها الإسرائيليون من قبل ، على أي حال، فقد حققت الحيلة غرضها، فاستدرجت طائرات سورية إلى الاشتباك معها ، وما حدث بعد ذلك ، أيضا فيه قولان ، قول أن إسرائيل أسرعت بإرسال قوات جوية كبيرة وقول آخر أن القوة الجوية الكبيرة كانت

هناك فى الجو فعلا – فى فخ جوى . على أى حال فقد دارت معركة جوية سقطت فيها ثمانى طائرات سورية .

وتقول الجريدة أن هذا الحادث كان القشة التي عجلت بقرار الحرب – ولكن الأرجح أنه عزز قناعة أنه لا مفر من القتال . ولكن قرار القتال نفسه أو تحديد موعده لايمكن أن يحدد بناء على هذا التحرش الإسرائيلي وحده – مهما كان استفزازيا .

وحين بدأت المدرعات المصرية تتجمع فى الأسبوع الأخير من سبتمبر لم ينزعج كثير من الاسرائيليين ، فطوال السنوات العشر الماضية – باستثناء سنة ١٩٦٧ بالطبع – كان الجيش المصرى يجرى مناوراته فى نفس الموعد تقريبا ، صحيح أن هذه المناورات خلال السنوات الثلاث السابقة كانت تزداد قربا من القناة، وتتكرر عدة مرات فى السنة الواحدة ، ولكن القادة الاسرائيليين لم يهتموا بما رأوا – حتى بالتحصينات والمواقع الجديدة على حافة القناة إذ اعتقدوا أنها مجرد عمليات لشغل القوات .

«ولكن حوالى ٢٤ سبتمبر بدأت المخابرات الأمريكية قلقها من أن هذه أول مرة يجرى فيها المصريون مناورات بهذا الحجم، مستخدمين تشكيلات عسكرية فى مستوى الألوية والفرق . ثم أنهم كانوا يخزنون ذخيرة أكثر من المعتاد ، ويجمعون أكبر قدر من

المعدات المساعدة التى شوهدت حتى ذلك الوقت . وأكثر إثارة للقلق من ذلك أنهم كانوا يقيمون شبكات ميدانية للاتصال أكثر مما تحتاجه المناورات فى العادة . وقد التقطت الاختبارات التى جرت لهذه الشبكات اللاسلكية بواسطة وكالة الأمن الوطنى فى أمريكا المختصة بالتجسس الالكترونى فى أنحاء العالم والتى تتسمع على الشرق الأوسط من محطة سرية جدا فى جنوب إيران وبمجرد أن التقطت أمريكا هذه الاشارات أرسلت تنبه اسرائيل ، وتقول مصادر المخابرات الأمريكية الآن إن إسرائيل فى الواقع قد سئلت فعلا وعلى أعلى المستويات عما إذا كانت لاترى فى هذا دلالة على قرب هجوم مصرى تتوقعه بعض الأجهزة الأمريكية منذ الربيع ولكن إسرائيل رفضت هذه المخاوف .

«وتماما كما توقع مخطط المعركة فى مصر ، كانت إسرائيل مشغولة بأشياء أخرى، كان الساسة فى إسرائيل مشغولين بالانتخابات التى بدأت معركتها فعلا . وفوق ذلك كانت الحكومة ذاتها مشغولة بقضايا محلية وخارجية : فى نيويورك بدأت دورة جديدة للأمم المتحدة ، وكانت إسرائيل تشعر أن هنرى كيسنجر وزير خارجية أمريكا الجديد يريد أن يبدأ فى محاولة التوصل إلى حل لمشكلة الشرق الأوسط . أهم من ذلك أن جاذبية إسرائيل كانت تقل وتخبو حتى بين يهود العالم الخارجى، والهجرة اليهودية

من الدول الغربية صارت صفرا ، ولم يعد يصلها مهاجرون «بيض» إلا من الاتحاد السوفييتي ، بل أن حملات التبرع اليهودية السنوية بدأت تقصر عن الوصول إلى الأرقام المحددة لها .

«ويبدو أن التحركات السورية أيضا بدأت حوالي ٢٤ سبتمبر ، لم تكن هناك حركة كبيرة نحو الجبهة ، ولكن في هدوء وبترتيب ، كانت الدبابات والمدفعية تتجمع حول خطوط الدفاع الثلاثة التي أقامها السوريون بين الجولان ودمشق ، وقد كان من أسباب هذا القلق والانتباه في واشنطن ، ذلك التوافق الزمني بين المناورات المصرية قرب القناة وما سمته المصادر الأمريكية «الطبيعة المريبة للحشود السورية في نفس الوقت » .

«وبعد يومين كان موشي ديان أول من اعترف بقلقه ، ففي يوم ٢٦ سبتمبر قام وزير الدفاع بجولة تفتيشية على قواته في الجولان في جولته الروتينية قبل يوم السنة اليهودية الجديدة . وقد عاد يقول «على طول الجبهة مع سوريا ، هناك مئات من الدبابات والمدفعية السورية تقف على مرمى خطوطنا ، فضلا عن شبكة دفاع جوى كثيفة شبيهة بتلك التي أقامها المصريون عند قناة السويس » ..

كان ديان قد بلغ قلقه إلى درجة جعلته يقوم سرا بأمرين . ففي نفس اليوم أعلن حالة الطوارئ بين القوات الإسرائيلية على

الجبهتين ، وبعد أيام ، خلال أيام العطلة الثلاثة ، أمر بتقوية القوة المدرعة الإسرائيلية على الجولان بأن أضاف اليها اللواء السابع المدرع الذي يعد من خيرة القوات الإسرائيلية المدرعة ، وكان قد سبق سحبه إلى مركز تجمع القوات المدرعة جنوبا عند مدينة بئر سبع ، ولعل هذا كان من أهم قرارات الحرب. فلولا هذا اللواء المدرع السابع لخسرت إسرائيل الجولان كله في الحرب ولكنه فعل هذا كله في سرية تامة .

وحين تسربت أنباء هذه التحركات العسكرية بعد عطلة الأيام الثلاثة، قال الرسميون «أنها إجراءات عادية تتم فى فترات العطلة، ورفضوا منع السواح من الذهاب إلى الجولان » .

ولم يذكر أحد أنه في يوم ٢٧ سبتمبر أى بعد زيارة ديان للجولان بيوم أطلق الأمريكيون من قاعدة فاندنبرج العسكرية فى كاليفورنيا أحد أقمار التجسس الصناعية من طراز «ساموس» في مدار فوق الشرق الأوسط ، ولاشك أن السبب هو أن الأمريكيين شعروا أنه هناك في المنطقة ما يستحق المراقبة واطلاق سفينة التجسس الفضائية خصيصا لهذا الغرض .

وفي اليوم التالي كانت خطبة السادات يوم ٢٨ سبتمبر ..

ولكن اليوم الثالث، جاء باحداث جديدة : فقد هاجم بعض

الفلسطينيين الذين قالوا أنهم ينتمون إلى منظمة نسور الثورة الفلسطينية قطارا على الحدود النمساوية يحمل عددا من المهاجرين اليهود قادمين من موسكو فى طريقهم إلى إسرائيل ، وأخذوا خمسة يهود وموظف جمارك نمسوى كرهائن، وطالبوا النمسا بأن تغلق مركز تلقى المهاجرين اليهود فى فيينا المعروف باسم قلعة شوناو ، وقبل رئيس جمهورية النمسا اليهودى برونوكرايسكي الطلب وأطلق سراح الرهائن وقامت قيامة إسرائيل .

وليس من المبالغة القول أنه منذ ذلك اليوم حتى بدء الهجوم لم يكن لدى إسرائيل مصدر للهم والغيظ إلا هذا الحادث ، وقد غرقت فيه تماما الحكومة الإسرائيلية ورؤساء مخابراتها ، وكان ذلك غريبا ، ففي نفس هذا اليوم، ٣٠ سبتمبر بدأ وزير خارجية أمريكا نفسه هنرى كيسنجر يقلق من التقارير عن الاستعدادات العربية . ولكن المخابرات الأمريكية كانت قد تعودت أن تستمع آخر الأمر إلى تقديرات المخابرات الإسرائيلية فى هذه الأمور .

قال كيسنجر فيما بعد «لقد سألنا مخابراتنا كما سألنا المخابرات الإسرائيلية ثلاث مرات منفصلة خلال الأسبوع الذى سبق نشوب القتال عن تقديرهم للموقف وما قد يحدث وكان ردهم

جميعا أنه لا يوجد أى احتمال قط لنشوب القتال، ولكن الحقيقة كانت أكثر تعقيدا من ذلك .

فمن الناحية الفنية كانت المعلومات ممتازة : فمن أجل تسجيل الاستعدادات المصرية يوجد لدى إسرائيل أجهزة استماع فى سيناء أمريكية الصنع ويديرها أمريكيون . وإذا كانت شبكة صواريخ سام قد عرقلت قدرة الطيران الاسرائيلى على التصوير الجوي، فان القمر الصناعي «ساموس» الأمريكي كان يقوم بسد الثغرة حتى نهاية سبتمبر وقد اعترف كيسنجر بأنه من حيث المعلومات فى حد ذاتها لم يكن هناك أى خطأ . ولكن معرفة المعلومات عادة أسهل من معرفة «النوايا» ، كان خطأ إسرائيل فى أن «يتوقعوا هذه الاستراتيجية العربية . وهناك من ينكرون ذلك ».

فقد قال الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان الإسرائيلى السابق والذى سمي باسمه خط بارليف «لم يكن هناك نقص فيما يعلن بمعرفة نوايا العرب ولكن ضابط مخابرات إسرائيلي آخر قال «كل ما توصلنا إليه وتوقعناه هو أن العرب سيشنون الحرب ذات يوم قريب ، ولكننا أخذنا فى الموعد على غرة» .

وفى المعلومات الخاصة التي كان الإسرائيليون يعطونها للصحفيين الأجانب، طوال العشرة أيام السابقة على القتال كان

الزعماء السياسيين يؤكدون أن العرب غير مستعدين للمعركة وأن العرب «ربما يسيئون التقدير» ويشنون هجوما ، ولكنهم لو فعلوا فسوف يهزمون فورا، وقال زعيم إسرائيلي في ثقة «إسرائيل ليست مهتمة بالحرب - ولذلك ليس على العرب أن يهتموا بذلك».

ويبدو أن المخابرات الأمريكية وصلت رغم معلوماتها إلى نفس الاستنتاج، ففي يوم ٣٠ سبتمبر وبناء على طلب من هنرى كيسنجر أرسلت كل من المخابرات المركزية ومكتب مخابرات وزارة الخارجية تقديرا للموقف بعد هذه الحشود العربية واتفق الاثنان على أنه رغم كل شئ «فمن المشكوك فيه» أن يبدأ العرب بأى هجوم.

قال رجال المخابرات الأمريكيين «كانت غلطتنا أننا اعتمدنا تقدير الإسرائيليين في النهاية». ولكن المخابرات الأمريكية كانت عينها أيضا فى قبول هذا التقدير السياسي ، على ما يدور فى أمريكا ذاتها : وعلى الدورة الجديدة للأمم المتحدة فى نيويورك بالذات، وكان كيسنجر نفسه متأثرا فى حكمه بما يدور أمامه فى نيويورك .

فقد قابل كيسنجر وزراء خارجية الدول العربية ووزير خارجية إسرائيل ، وأعلن للجميع من موقف الرجل الذى سيتسلم جائزة نوبل للسلام « أن أمريكا مستعدة للبدء فى عمل إيجابى لتحقيق

تسوية سلمية فى الشرق الأوسط ، وكان الغداء الذى أقامه للوزراء العرب يوم ٢٥ سبتمبر خطوته الأولى فى هذا الاتجاه (وكان قد تحدث فى الواقع مع الإسرائيليين قبل ذلك . وظن كيسنجر أنه أحرز تقدما ، قال موظف أمريكى كبير «لقد بدأ الوزراء العرب أكثر راحة وثقة فى النفس » . واتفق سرا على أنه يمكن أن تتم لقاءات بعد نوفمبر أى بعد الانتخابات الإسرائيلية للبحث الجدى عن طريق نحو هذه التسوية .

هكذا خدع محللو المعلومات «كان اهتمام العرب بالجانب الدبلوماسى كبيرا لدرجة قللت من حسابنا لقيمة الحشود العسكرية ، كانت لدينا المعلومات ولكننا أخطأنا فهم أولوياتهم» . كذلك ظن كيسنجر أن العرب سيعطون دبلوماسيته الخاصة فرصة أكبر .

فى نفس ذلك اليوم ، ٣٠ سبتمبر الذى وصلت فيه المخابرات الأمريكية إلى اقتناع قلق بأن الحرب لن تقع كان الفريق أحمد إسماعيل يرسل أول تعليماته إلى القيادة السورية التابعة له .

أنه لم يحدد لهم بعد ساعة الصفر . ولكنه أخطرهم أن الهجوم يمكن أن يبدأ فى أى لحظة وان «العد التنازلى» سيبدأ بمجرد اعطاء الاسم السرى للعلمية «بدر» .

وفي الصباح الباكر ليوم الاثنين أول أكتوبر بدأت الدبابات والمدفعية الثقيلة السورية تتحرك من مواقعها الخلفية إلى مواجهة المواقع الإسرائيلية ، وهناك ، لحمايتهم ، كانت شبكة الصواريخ التي حذر منها ديان والتي صارت الآن متراصة في نظام محكم على طول الجبهة .

وفي سيناء لاحظ المراقبون الإسرائيليون الموجودون في حصون خط بارليف نشاطا متزايدا خلف الساتر الرملي على الشاطئ الغربي للقناة. وفي يوم ١ أكتوبر ذاته شوهدت بطارية صواريخ تدخل مدينة الاسماعيلية . وأحيانا كان يمكن سماع صوت طوابير من الدبابات المصرية تتحرك ، كما كان الضباط المصريون يشاهدون فوق حافة القناة وكأنهم يفحصون ويناقشون، وبعد أيام وصلت مجموعات مصرية تجر معابر إلى حافة القناة، وجرافات تمهد لها الأرض ، ولكن لاشئ من هذا كله أثار أى دهشة .. ففي كل مكان على القناة كان المصريون حريصين على أن تكون تصرفاتهم عادية تماما ، كان ثمة جنود يجلسون على حافة الماء ، وأقدامهم في المياه بلا سلاح والجرارات ظلت تمارس نشاطا يبدو دفاعيا لتعزيز الحواجز وعمال الحدائق ظلوا يعتنون بحدائق البيوت المهجورة على شاطئ مدينة الاسماعيلية ، ولم يكن باقيا على ساعة الصفر سوى خمسة أيام .

كذلك بالنسبة للمراقبين الاسرائيليين فوق مرتفعات الجولان ، لقد تصرف السوريون بذكاء فحشدوا دباباهم فى تشكيلات دفاعية، داخل الحفر ومدافعها منكسة ومدفعيتهم فى الخلف وكأنها للدفاع عن سوريا وليس للهجوم ، حتى حين سحب السوريون بعض قواتهم من حدود الأردن وأحضروها إلى مواجهة الجولان ظن الإسرائيليون أن هذه حركة مصالحة نحو الملك حسين بعد اجتماع القاهرة وإعادة العلاقات.

وفي اليوم التالي ٢ أكتوبر ، استدعت سوريا الاحتياطي ، ورأى مراقبو الأمم المتحدة الضباط المصريين على طول القناة يعطون جنودهم تعليمات ، لقد أبلغت التعليمات للجميع وكان اليوم يوم ٢ أكتوبر .. بناقص ثلاثة أيام ..

وفي نفس هذا اليوم ، الأربعاء ٣ أكتوبر اجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلي فى القدس فى اجتماعه الأخير قبل اجازة عيد يوم التكفير ، وخصص الاجتماع لدراسة حادث الفدائيين في النمسا واغلاق معسكر شوناو . كذلك جولدا مائير عائدة لتوها من ستراسبورج حيث مزقت خطبتها التى أعدتها عن الصراع العربى الإسرائيلي لتلقيها أمام المجلس الأوربى والقت بدلها خطابا عن حادث النمسا ، وقد عادت الآن إلى إسرائيل عن طريق فيينا حيث قابلت المستشار كرايسكى فى محاولة لاقناعه بالعدول عن قراره .

وكان على مجلس الوزراء الاسرائيلي أن يتناقش حول ما الذي يمكن عمله بشأن هذه المشكلة ، ولم يأت قط ذكر للحشود العربية، كان الأمر معروفا فقط لتلك المجموعة الخاصة من الوزراء التي تضم أولئك الذين تثق فيهم جولدا مائير .

وإلى جانب عمليات التضليل العسكرية البارعة التي قام بها المصريون (سيأتي ذكرها فيما بعد) فقد القى المصريون ورقة خداع أخيرة : إذ سربوا إلى الدبلوماسيين الأجانب معلومات تقول ان مصر تستعد لمواجهة هجوم يفكر الإسرائيليون في القيام به ، انتقاما لحادث النمسا ، وقد بدا هذا معقولا ، بل أنه يكاد يكون صحيحا ، فالمعلومات المتوفرة تقول ان الجنرال العازار اقترح بالفعل شيئا من هذا القبيل.

وفي يوم الخميس - ٤ أكتوبر - كان لدى المخابرات الأمريكية فرصتها الأخيرة ، فقد اجتمع ممثلو الأجهزة المختلفة في مقر المخابرات المركزية في «لانجلي» بولاية فرجينيا ليناقشوا سؤالا واحدا : هل هناك حرب ستقع ؟ فمنذ تقارير ٣٠ سبتمبر وكيسنجر يسأل يوميا عن الأخبار والمعلومات وفي هذا اليوم ، الخميس ، طلب كيسنجر تقريرا آخر .

ولكن بينما ساد هذا الاجتماع الأمريكي بالذات جو من القلق، ظلت إسرائيل على اقتناعها بأن العرب لن يحاربوا .

كان الحشد العسكرى العربى هو القضية الأولى ولكن أقرب أجهزة المخابرات تعاونا إلى إسرائيل - المخابرات العسكرية الأمريكية - ظلت تنازع فى جدية الحشود (وقد تم بعد الحرب نقل المسئولين الثلاثة عن الشرق الأوسط فى هذا الجهاز) ، وفى نهاية اليوم أرسلت الأجهزة المختلفة خلاصة رأيها : لا حرب ..

وإذا أخذنا فى الاعتبار فرق التوقيت بين مصر وأمريكا - ست ساعات ، فمعنى ذلك أن هذا التقرير وصل إلى كيسنجر مساء الخميس، حيث كان الوقت فى مصر فجر يوم الجمعة وبالتالى كانت النذر قد زادت : إذ بدأ هذا الصباح اجلاء عائلات الخبراء الروس من مصر وسوريا وبدا أن القوات السورية تغير مراكزها الدفاعية إلى اتخاذ مراكز هجومية . كان هذا صباح يوم ه - ناقص يوم .

لقد بقيت ثلاثون ساعة حاسمة على بدء الهجوم ، ومع ذلك فالغموض حول هذه الساعات مازال قائما .

هذا الصباح - الجمعة - حاولت القوات الإسرائيلية أن تستعد كانوا فى حالة تأهب على الجولان منذ تسعة أيام . أى منذ اصدر ديان أمره بذلك . اليوم ، الجمعة ، الساعة الحادية عشرة صباحا أصدر الجنرال العازار رئيس الأركان أمرا بحالة التأهب القصوى وألغى كل الأجازات وبدأ يجهز إجراءات استدعاء الاحتياطى .

وأخطر بالأمر بعض البارزين من قواد الاحتياطى ، فاستدعى الجنرال إرييل شارون من مزرعته فى بئر السبع إلى قيادة الجبهة الجنوبية فى الساعة الحادية عشرة والنصف ، وكان شارون قائدا للجبهة الجنوبية فى سيناء حتى الصيف، فلما عين العازار رئيسا للاركان بدلا منه ، قدم استقالته ، ولكنه طبقا للنظام الإسرائيلى بقى - فى حالة نشوب الحرب - قائد القوات من الاحتياطى فلما رأى الصور الجوية للحشود المصرية ومعدات العبور قال «ستقع الحرب فى يوم أو اثنين » .

على أى حال، كان الجيش الإسرائيلى قد بدأ يستعد فعلا ، فماذا كانت الحكومة تفعل ؟ ..

لا أحد يعرف ماذا كانت تفعل حكومة مائير حتى مساء الجمعة.. وحتى فى مساء الجمعة رفضت الحكومة قرارا باستدعاء الاحتياطى .

ان مجلس الوزراء لم يجتمع ، ولكن مجموعة الوزراء الأقوياء - كالحال فى أى مجلس وزراء - اجتمعوا صباحا على الأغلب وكانوا هم الذين اعطوا الإذن باتخاذ هذه الإجراءات . وفى الساعة الخامسة والنصف أى مع الغروب وبدء عيد يوم التكفير اجتمعت جولدا مائير فى مقر الحكومة بتل أبيب مع أربعة : نائبها

ايجال آلون ، وزير الدفاع موشى ديان ، الوزير القوى بلا وزارة إسرائيل جاليلى ، والرابع مازال غير معروف ولكنه من أهم الشخصيات المؤثرة فى إسرائيل ، ثم انضم إليهم وزير التجارة ورئيس الأركان السابق حاييم بارليف ورئيس الأركان الحالى دافيد العازار . وطلب العازار ، دعوة الاحتياطى ، ولكن المجتمعين رفضوا ، وقال العازار فيما بعد «لقد اتخذ القرار على أعلى مستوى سياسى عسكرى» .

ومازال دور ديان فى هذا الاجتماع غامضا ، ولكن جولدا مائير فى حديث لها يوم ١٥ نوفمبر أشارت بلباقة إلى موقفه حين قالت «حين اقترح الشخص المخول بطلب دعوة الاحتياطى ذلك ، وافقت على الفور» وهذا الشخص هو بالطبع ديان . » وقد دافع ديان عن نفسه أمام اجتماع غاضب للضباط يوم ١٤ نوفمبر قائلا: «لم أكن الوحيد الذى اتخذ هذا الموقف ولم أسمع أحدا يقول أن الحرب واقعة غدا» .

وهذا صحيح . كان هم الإسرائيليين تحليل مغزى جلاء الروس وليس مغزى الحشود ولم يطلب العازار إلا اتخاذ بعض إجراءات احتياطية .

ولكن هذا الوهم تمزق الساعة الرابعة صباح السبت ، فقد التقطت أجهزة التصنت الأمريكية والاسرائيلية معا الاشارات

اللاسلكية التى لم يشك أحد فى أنها الترتيبات الأخيرة للهجوم ، وهنا اقترح العازار أن يقوم الطيران الإسرائيلى بضربة مسبقة مع الفجر .

ورفضت مائير الاقتراح ، خوفا من رد الفعل الأمريكى وقالت لهم «من سيبقى معنا من الأصدقاء لو فعلنا ذلك ؟» وقد جادلها باروليف والعازار . ولكن ضربة ١٩٦٧ الجوية فاجأت الطيران المصرى مرصوصا فى المطارات ، أما هذه المرة فأى ضربة لن تحدث نفس الأثر إزاء عدو مستعد ، له حماية قاتلة من الصواريخ، أكثر ما كان يمكن أن تحققه مثل هذه الضربة ارباك الهجوم ساعات قليلة مقابل خسائر فادحة فى الطيران الإسرائيلى .

وأكد ذلك السفير الأمريكى فى اسرائيل حين أوقظ فى السادسة صباحا ليقابل جولدا مائير ، قال لها «إذا عدلت اسرائيل عن الضربة الأولى، وأوجدت بذلك الدليل القاطع على أن العرب هم الذين بدأوا القتال ، فان أمريكا ستكون ملزمة بمساعدتكم » .

وصدر أمر استدعاء الاحتياطى ، فى نفس الوقت طلبت إسرائيل من كيسنجر أن يحيط العرب علما أن هذا ليس معناه نية أى هجوم من جانب إسرائيل .

كان هذا في نيويورك منتصف ليلة السبت وكان البنتاجون قد غير رأيه واقتنع بأن هناك حربا ستقع ، ولكن كيسنجر، متأثرا بالتقارير السابقة عن استبعاد الحرب، لم يجد داعيا للقلق ولكنه أبلغ الرسالة إلى السفراء العرب على أى حال . وذهب لينام في جناحه في فندق والدورف استوريا في نيويورك متوقعا أن يبدأ اليوم التالي عطلة آخر الاسبوع ، كانت الساعة وقتها فوق سيناء السابعة صباحا ، كان يوم الهجوم ..

ورغم كل استعدادات الأيام الأخيرة كانوا في إسرائيل مطمئنين نسبيا بسبب مناعة خط بارليف على شاطئ القناة . لم يكونوا يعرفون أنه في ساعات الظلام قبل الفجر بقليل كانت قوات كوماندوز مصرية قد عبرت القناة وعطلت مواسير خط بارليف التي كان مفروضا أن تصب النار الملتهبة فوق سطح القناة عند أول اشارة : كان أول سلاح سرى لإسرائيل ضد الهجوم قد تعطل: لم يعد ممكنا إشعال النار في قناة السويس ..

إن خلاصة هذه المعلومات المتوفرة عن «المفاجأة» وعن هذه الفترة الحرجة في حياة إسرائيل ، لتلقى الضوء على أشياء كثيرة هامة : فلاشك أن ترتيبات التضليل الاستراتيجية والتكتيكية التى اتبعها الجانب المصرى، كانت ناجحة إلى حد ليس له مثيل ، إذ أنها أخرت إحساس الإسرائيليين بذلك حتى آخر لحظة ممكنة ..

فحشود بمثل هذا الحجم لم يكن ممكنا الاحتفاظ بعملية دفعها إلى الجبهة وأخذ مواقع الهجوم إلى ما قبل الهجوم بأيام قليلة .. إلا بدرجة عالية من الاتقان فى دراسة كل تفاصيل التحرك العسكرى المعقد ..

ثم إن هذا لم يكن هجوما عسكريا على جبهة عادية ولكنه - فى الجبهة المصرية - كان يواجه حاجزا مائيا عريضا ، يتلوه خط دفاع قوى مدروس (سيأتى ذكره تفاصيله) ، يطرح مئات المشكلات الفنية .. الأمر الذى يضيف إلى عملية القناة وحشد قواتها وأسلحتها عمليات أخرى فنية معقدة، لها معداتها وأجهزتها التى تحتاج أيضا إلى إعداد ضخم يصعب إخفاؤه ..

ولكن القيادة المصرية نجحت فى هذا التضليل الاستراتيجى ، وأخرت احساس العدو بالخطر إلى آخر لحظة ممكنة ..

على أن كافة التقارير تشير إلى أن إسرائيل توفرت لديها معلومات كافية عن نوايا عدوها وذلك عن طريق أقمار التجسس الأمريكية فى الدرجة الأولى ، وسائر وسائل الاستطلاع ، وذلك قبل الهجوم بوقت كاف ..

قبل الهجوم بوقت كاف على الأقل بالنسبة لإسرائيل ..

لأن إسرائيل تزهو - فى الجانب العسكرى - على العالم

بسرعتها القياسية فى تعبئة جيوشها واستدعاء الاحتياطى إذ أن جيشها له وضع خاص هو أن معظمه يعد من الاحتياطى » ..

ونظام استدعاء الاحتياطى الإسرائيلى يقتضى: أن تتم تعبئته كاملا خلال ٧٢ ساعة من لحظة أول انذار : ٥٠٪ من الوحدات تكون جاهزة فى يوم التعبئة ذاته - ٧٥٪ من الوحدات تصبح جاهزة بعد ٤٨ ساعة - ١٠٠٪ من الوحدات تتم تعبئتها ، وفى أماكنها القتالية المعدة لها ، خلال ٧٢ ساعة أى فى آخر اليوم الثالث من لحظة بدء الانذار [(١)] .

---

(١) أنظر كتاب «المذهب العسكرى الإسرائيلي» بقلم هيثم الكيلانى صفحة ١٧٧ وما بعدها «تتبع إسرائيل في تعبئة قواتها وتوجيهها إلى مواقعها القتالية احدي طريقتين : التعبئة بواسطة الإذاعة ، أو التعبئة الصامتة ، وتقوم الطريقة الأولى على إذاعة سلسلة من الرموز يشير كل منها إلي وحدات احتياطية معينة ويلي ذلك اشارات تحدد المكان والزمان اللذين يجب على أفراد تلك الوحدات التجمع فيها . أما الدعوة الصامتة وكالتى استخدمت عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ فتشتمل على عدة مراحل تبدأ الأولى بتوجيه رسالة من الضابط آمر الوحدة الاحتياطية . وحالما يتلقي هذا الآخر الرسالة يوجه بواسطة عدد صغير من الرجال المنتخبين أوامر شخصية إلى كل فرد من أفراد وحدته ويدعوهم فيها إلى التقدم خلال ٢٤ ساعة إلى مركز التعبئة المحدد.. وبعد أن يصل الأفراد إلى مركز التعبئة توزع عليهم التجهيزات الميدانية والأسلحة والذخائر وتقدم اليهم وسائل النقل التى جرت تعبئتها فى الوقت ذاته ، وهكذا تتحرك الوحدة جاهزة للقتال إلي المكان الذى تعينه القيادة .

وقد سبق ذكر كيف أن موشي ديان اشتبه في الحشود السورية منذ يوم ٢٦ سبتمبر على الأكثر وأمر باستدعاء أهم لواء مدرع اسرائيلي من بئر سبع - جنوب اسرائيل عند مدخل النقب .. لاتخاذ مواقعه في الجولان . وكيف أن أمريكا اطلقت في اليوم التالي مباشرة ٢٧ سبتمبر قمرا صناعيا من طراز «ساموس»

«وقد اقتبست اسرائيل أسس نظام التعبئة السويسري ، وأدخلت عليه تعديلات تناسب ظروفها ، ففي سائر البلاد حينما ينهي الشباب خدمتهم العسكرية يعودون الى بيوتهم ويقطعون صلاتهم بوحداتهم التي أدوا فيها الخدمة الالزامية أما في سويسرا أو اسرائيل فإن كل سرية احتياطية تبقى جهازا عضويا حيا له مهنته الدائمة ولا يجوز لهم التخلي عن واجباتهم حين ينصرفون إلى حياتهم المدنية .. ويستنفر الفرد الإسرائيلي خلال العام الواحد عدة مرات ، سواء للتدريب أو بتبليغ تعليمات جديدة ولا يحمل الإسرائيلي سلاحه إلى بيته ولكنه يحمل بزته العسكرية .

« .. ويحتفظ كل فرد احتياطي في دفتره العسكري ، خلف صورة الهوية بقصاصة ورق تشير إلي «كلمة التعارف على التعبئة» أما مكان التجمع فانه يسجله في ذاكرته . وليس هذا المكان ثكنة أو معسكراً ، ولكنه مكان غير معرض للاستطلاع في مزارع البرتقال مثلا وغابات الصنوبر أو الملاعب الرياضية» .

«وفي حرب ١٩٦٧ ، صرفت القيادة عددا كبيرا من الجنود إلى بيوتهم بغية التعمية والتضليل بعد استنفار دام خمسة عشر يوما تم استدعاؤهم خلالها بالطريقة الصامتة ، وفي صبيحة ٥ يونيو استدعيت الوحدات عن طريق الإذاعة ، إذ ظل المذيع يقرأ ألغازا غريبة لاتتيح لاحد تحديد هوية الأسلحة أو الوحدات المدعوة»

أخذ مداره فوق الشرق الأوسط ليتجسس على كل التحركات المصرية والسورية وأن ما أرسله من معلومات كان مثيرا للقلق ثم توالت النذر بعد ذلك كما سبق ذكره ..

هل يمكن القول بان رد الفعل الإسرائيلي هو مجرد إهمال من بعض الأفراد ؟ ..

إن «لجنة التحقيق في الحرب» التي شكلتها اسرائيل بعد الحرب لتهدئة الرأي العام ولايقاف حملات الاتهام المتبادلة بين الزعماء السياسيين والقادة العسكريين على السواء، تستمع الى كثير من الاقوال وما يتسرب منها قليل. ولكن بعض ما تسرب غير مقنع تماما .. وان كان يدخل في باب القاء كل طرف المسئولية على الآخر خصوصا وان هذا كان قبل الانتخابات العامة فكون ايجال آلون كان في قريته لم يصل الا متأخرا في اجتماع مجلس الوزراء الحاسم أو كون بنحاس سابير لم يتم استدعاؤه ولا اخطاره بالمعلومات مقدما ولكنه لاحظ حركة التعبئة في الطريق فأسرع الى مكتب جولدا مائير والقول بانهم ضغطوا التعبئة من ٢٤ ساعة إلى ٦ ساعات ادى الى درجة من التراخي كما قال ونستون تشرشل المؤرخ المتحيز لاسرائيل في مؤلفاته عن حرب ٦٧، فيما كتبه عن حرب ٧٣ .. أو قوله «انه حدث تفكك كبير في سلسلة القيادة فبالرغم من أن مقر القيادة كان في حالة تأهب تام الا ان

الجبهتين لم تبلغا بشئ»، ولم يكن هذا فقط بالنسبة للجنود الذين كان اول ما عرفوه من مظاهر الحرب هو ستار المدفعية الحاشد وانطلاق طائرات الميج فوق رؤوسهم فى هجوم فعال.. بل كان الامر كذلك بالنسبة للجنرالات انفسهم»... كل هذه تفاصيل لا تحجب الحقائق الكبرى..

ان العناصر التى يمكن ان تكون ساهمت كلها او معظمها فى رد الفعل الاسرائيلى يمكن إجمالها فى التالى:

أولا – نجحت القيادة المصرية رغم اكتشاف العدو لحركة القوات غير العادية، فى ابقاء نواياها النهائية غامضة وهل هى الحرب، ام الضغط، أم المناورات، أم الاستعداد للرد.

ثانيا ـ إن إسرائيل كانت أكبر من خدع نفسها ، فهى كانت كما قال معظم المعلقين الأجانب بعد ذلك – ضحية الأسطورة التى خلقتها عن قوتها التى لا رادع لها على الاطلاق ، والأسطورة الثانية التى أوهمت بها العالم وأوهمت نفسها عن أن العرب لن يحاربوا قط ، لقد حفل كل الأدب الاسرائيلى السياسى والفنى والعسكرى منذ ١٩٦٧ بأنواع التهويل من كفاءة الاسرائيلى وعجز العربى ، كجزء من الحرب النفسية ضدنا ونحو العالم كله، وكتصعيد لوضعها واغراء حلفائها بمساعدتها ويهود العالم

بالتبرع لها والهجرة اليها ولكنها صدقت هذا فى النهاية ، ولعب هذا دورا كبيرا في بقائها حتى وقت متأخر معتقدة أن العرب لا يمكن أن يشنوا الحرب فعلا .

ثالثا - مناعة خط بارليف جنوبا وهضبة الجولان شمالا ، فقد انفقت على هذه التحصينات بحيث كان من حقها أن تطمئن إلى أنه حتي فى حالة الهجوم المفاجئ ، تستطيع هذه الخطوط الدفاعية أن تصد أى هجمات وقتا كافيا حتى تستدعى هى كل قواتها - أكثر من ١١٪ من مجموع السكان اليهود - وترد الضربة وتسحق العدو .ويعترف وينستون تشرشل فى كتاباته بعد أن زار إسرائيل عقب حرب ١٩٧٣» .. بعد نجاح حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ تملك الاسرائيليون احساس بالزهو والغطرسة ، وقد قال لى أحد كبار القادة الإسرائيليين «إذا كنا على مسافة ساعتين زمنيا من دمشق و ٢ ساعات من القاهرة ، فمن من كان فى حاجة إلى أن يحمل هجوم العدو على محمل الجد ؟» ..

ولولا استهانتهم الشديدة بالعرب لاستنتجوا العكس تماما وهو: أنه مع وجودهم على بعد ساعات من القاهرة ومن دمشق كان لابد لمصر وسوريا من أن تحاربا ..

رابعا - أن ادراك إسرائيل لعزلتها الدولية وانكشاف موقفها

كدولة معتدية بالإضافة إلى ثقتها المطلقة فى النفس ورغبتها فى أن تخوض الحرب الجديدة من موقف «المعتدى عليه» كل هذا ساهم فى اتخاذها ما وصفه دافيد العازار بأنه «قرار على أعلى مستوى سياسى وعسكرى» بعدم توجيه ضربة مسبقة حتى بعد أن تأكد لها أن هناك هجوما ما ..

خامسا - إننى اطرح هنا احتمال أرى أن هناك كثيرا من الظواهر التى تؤيده ولكن الأيام وحدها هى التى سوف تؤكده أو تنفيه وهو : أن إسرائيل بكل عوامل غرورها السابقة كانت «تريد» هذه الحرب .. لأنها كانت تتوقع نتائج أخرى تماما !!

فمنذ ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٣ كان هناك إحساس لدى كثيرين من العناصر القيادية الاسرائيلية بان حرب ١٩٦٧ حققت النصر العسكرى «دون النصر السياسى المطلوب» ، وكان هناك فريق قوى يرى أنه لا مفر من «حرب أخرى وأخيرة» تفرض فيها شروطا للتسوية فرضا على العرب ، وفريق آخر يرى أنه «طالما أن العرب لن يحاربوا فلا داعى لأن نبدأ حربا جديدة . أما الازعاجات العسكرية المحدودة فيمكن العيش معها زمنا حتى تستنفد طاقتها وتذبل» .

ولا استبعد أنه فى اتخاذ هذا القرار السياسى العسكرى على أعلى مستوى بعدم توجيه ضربة مسبقة ولو فجر يوم القتال أتخذ

بخلفية مشتركة من هذه الثقة بالنفس والازدراء للعدو ، وباتفاق الفريقين على أنه : إذا كانت هذه مظاهر لن تؤدى إلى الحرب فعلا فنحن باقون فى سلام .. وإذا كانت هى الحرب .. فلنترك العرب يبدأونها ، وسوف نسحقهم بسرعة ، وساعتها لايكون لديهم أى عذر ..

وهذا لم يمنعهم كما سبق ذكره من البدء فى اتخاذ ترتيبات كثيرة من بينها استدعاء الاحتياطى قبل الحرب ..

كانت المفاجأة ناجحة ، ولكنها لم تكن وحدها سبب النصر . وتركيز الإسرائيليين وعملائهم من الكتاب والمحللين فى الغرب على عنصر المفاجأة وحده ، يستهدف ابقاء الأسطورة ، من أن هزيمتهم كانت عارضة ، وتستهدف التقليل من الكفاءة القتالية العربية ، حين بدأ القتال فعلا ، ودورها الباسل والأساسى فى تحقيق ما حققته .

فى الجانب العربى ، كيف حددت ساعات الصفر ؟

إن الاعداد والحساب والتقدير الذى أدى إلى هذا التحديد يعطى وحده فكرة عن أن النصر جاء نتيجة الكفاءة التخطيطية والقتالية معا ..

يقول الفريق أول أحمد إسماعيل فى حديثه مع محمد حسنين هيكل (الأهرام ١٨ نوفمبر ١٩٧٣) :

لقد كان تحديد يوم «ى» عمليا علميا على مستوى رفيع ، وحين نطرح وثائقنا كلها للدراسة التاريخية فإن هذا العمل سوف يأخذ حقه من التقدير وسوف يدخل التاريخ العلمي للحروب كنموذج من نماذج الدقة المتناهية والبحث الأمين :

كان لابد أن يتحرك الموقف من وجهة نظر التقدير السياسى سنة ١٩٧٣ بعد وصول التأييد العربي والعالمى لنا فى كل المجالات إلي الذروة العالية التى لا مجال بعدها لاضافة إلا لاضافة نضعها نحن بقوة السلاح ..

هذا من وجهة نظر عامة ..

ومن ناحية التحديد فقد كنا نريد ما يلى :

١ - ليلة مقمرة يتصاعد فيها القمر معنا فى الساعات الحاسمة.

٢ - ليلة يكون تيار القناة فيها مناسبا للعبور من ناحية السرعة .

٣ - ليلة يكون عملنا فيها بعيدا عن توقعات العدو .

٤ – ليلة لا يكون فيها العدو نفسه مستعدا للعمل .

هذه المميزات كلها حددت لنا يوم ٦ أكتوبر من قبلها بشهور :

فالحسابات الفلكية تعطينا فى تلك الليلة قمرا ينمو فى أول الليل ثم يغيب فى آخره .

وعلماؤنا فى القوات المسلحة درسوا تقارير هيئة قناة السويس لسنوات طويلة سبقت لكى يحسبوا سرعة التيارات فى كل يوم من أيام السنة وكان يوم ٦ أكتوبر أكثرها مناسبة .

- العدو لايتوقع منا العمل فى شهر رمضان .

- العدو مشغول بمناسبات مختلفة بينها انتخاباته العامة التى تشد اهتمام الجميع .

- لقد كان شهر رمضان هو الذى أوحى لنا باختيار الاسم الرمزى لعملية الهجوم كان الاسم الرمزى هو «بدر» تيمنا بغزوة بدر .

كان الرئيس السادات من وجهة نظره السياسية يسميها عملية «الشرارة» وأما الاسم الرمزى فى كل خططنا العسكرية فقد كان «بدر».

ذلك كل ما أستطيع أن أقوله الآن عن تحديد يوم «ى» .

وأما عن تحديد ساعة «س» ـ فلقد ظل الموعد الى أيام قبل بدء القتال موضوع مناقشة بيننا وبين إخواننا فى سوريا .

كان السوريون لعدة أسباب من بينها اتجاه الشمس معهم وضد العدو يفضلون العمل مع أول ضوء فى الفجر . وكنا نحن ـ لعدة أسباب من بينها الى جانب اتجاه الشمس ، وضرورات العبور ونصب الكبارى وفتح الطريق لدخول المعدات الثقيلة كالدبابات فى ظلام الليل ـ نفضل العمل فى آخر ضوء فى المساء.

وكنت بوصفى قائدا عاما للجبهتين قد بعثت إلي السوريين يوم ٣٠ سبتمبر إشارة التحذير بأن العملية محتملة فى أى وقت ـ وهنا باشارة تقول : «بدر» ..

وسافرت بنفسى إلى سوريا يوم ٢ أكتوبر وتناقشنا حول الساعة ، وبعد دراسة تفصيلية صدق عليها الفريق حافظ الأسد تحددت الساعة الثانية بعد الظهر موعدا «للساعة س» .

★

لم يكن الاختيار إذن ليوم ٦ أكتوبر سببه أنه «يوم عيد التكفير» فاجازات اليهود التى لايعملون فيها كثيرة ، ولهم يوم كل أسبوع ، ولا توجد دولة تأخذ كلها ، خصوصا جيشها ، يوما أجازة .

★

وصف المحلل العسكري العربي المقدم هيثم الأيوبي «مجلة شئون فلسطينية عدد نوفمبر ٧٣» خط بارليف وصفا مفصلا دقيقا كالتالي :

عقب وقف اطلاق النار في حرب ١٩٦٧ اقامت القيادة العسكرية الإسرائيلية مجموعة من المراكز الدفاعية الخفيفة العادية علي طول القناة . ولكن عندما بدأت المدافع المصرية في أكتوبر ١٩٦٨ تمارس دفاعا ايجابيا في مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية علي مدن القناة وخاصة بعد أن تعززت قواها بوصول مئات من قطع المدفعية الجديدة من الاتحاد السوفييتي شعرت القيادة الإسرائيلية أن هناك ضرورة لمواجهة احتمال ممارسة مصر للضغط عن طريق القصف المدفعي المركز الذي يهدف الي حرمان اسرائيل من حق الوجود المستمر الهادىء على الضفة الشرقية للقناة ، عن طريق إقامة خط دفاعي قوى نسبيا يقلل من حجم القوات اللازمة للسيطرة على ضفة القناة وهو هدف سياسي أساسا ـ ويقلل فى الوقت نفسه من الخسائر التي يمكن أن تلحق بها نتيجة لقصف المدفعية ورصاص القناصة المصريين .

ولذلك شنت القيادة الإسرائيلية عمليات ردع غير مباشرة فى مؤخرة الجبهة المصرية البعيدة بواسطة وحدات فدائية محمولة جوا

«الغارة على محطة كهرباء قرب نجع حمادى وعلى جسر نجع حمادى» حتي تربك القيادة المصرية وتجبرها علي إيقاف قصف المدفعية بعض الوقت وتتيح بذلك فرصة إقامة الخط المذكور .

وكان المشكلة العسكرية والفنية المطروحة علي القيادة الإسرائيلية وقتئذ في ظل فترة رئاسة الجنرال حاييم بارليف للأركان وهي كيف يمكن التوفيق بين اعتبارين متعارضين أولهما ضرورة وجود قوات كافية للسيطرة علي خط القناة معرضة بشدة لتركيز المدفعية داخل تحصينات منيعة توفر لها الحماية والمقدرة على تغطية القناة بالنيران الرادعة للمصريين حتي لايفكروا في عبور القناة مع ماتفرضه هذه الضرورة من تثبيت حركة قوات كبيرة داخل مواقع ثابتة وعدم جدوى هذه المواقع الأمامية في حالة عدم وجود عمق دفاعي مكمل لها وبين ضرورة الاحتفاظ بقوات احتياطية رئيسية متحركة للقيام بالهجمات المعاكسة تتفق وأسلوب حرب الحركة الذى درب الجيش الإسرائيلي على ومارس قتاله العملي وفقا له دائما في حرب ١٩٥٦ و ١٩٦٧ .. بمعنى أن إقامة خط دفاعي ثابت يتطلب أن تكون شبكة المواقع الدفاعية المقامة على طول القناة ذات عمق كاف وإلا تعرضت للاختراق نتيجة تركيز قوة متفرقة فجأة عند أى نقطة في الخط مدعومة بقوات محمولة جوا بطائرات الهليكوبتر يجرى إبرازها في مؤخرة الخط

والانقضاض عليه من الخلف. وهذا يفترض حشد قوات كبيرة ـ فضلا عن النفقات المالية الضخمة للمنشآت الدفاعية ـ وتثبيت حركتها في الوقت نفسه وكلا من الأمرين لا يتوافقان مع إمكانات إسرائيل من حيث الطاقة البشرية ومن حيث ضرورة أن تكون قواتها الرئيسية متحركة حتى تستطيع أن تناور بها على الخطوط الداخلية بين الجبهات المختلفة بمرونة وسرعة .

وكان الحل الممكن واقعيا هو إنشاء مجموعة من النقاط الدفاعية القوية التحصين على مقربة شديدة من القناة بلغ عددها ٣٥ نقطة قوية تبدأ من أول الكيلو متر ١٠ شمالا حتى بورتوفيق جنوبا ، وهي مسافة قدرها ١٢٢ كيلو مترا أي بمعدل نقطة حصينة لكل أربعة كيلو مترات ، باستثناء منطقة البحيرات المرة ، تدعمها في المؤخرة قوات مدرعة ميكانيكية تمثل القبضة الضاربة المتحركة المساندة للنقط الدفاعية التي كان يفترض أن تعوق عمليات العبور المصرية المحتملة لحين تحرك القوى المتحركة وتحديد اتجاهات العبور الرئيسية وبطبيعة الحال اعتبر الطيران هو القوة الضاربة الأساسية المساعدة وقد تم إنشاء مجموعة النقط القوية هذه بحيث تتسع كل منها لقوة كتيبة تقريبا عند الاقتضاء ، ويفصل بين كل نقطة وأخرى بضعة كيلو مترات قليلة يمكن تغطيتها بالنيران الصادرة من النقط المتعاونة مع بعضها

البعض ووضعت هذه النقط على مقربة شديدة من ضفة القناة لتستطيع أن تراقب الحركة عليها وتغطيها بنيرانها المباشرة والمؤلفة من الرشاشات والبنادق والأسلحة المضادة للدبابات بالإضافة الي نيران المدفعية والهاونات الموضوعة فى مواقع خافية . وقد تم سقف الملاجىء والدشم التى تضم الأسلحة المستخدمة داخل النقط الدفاعية فى بداية إنشاء الخط الدفاعي المذكور الذى حمل اسم قائد الأركان الإسرائيلى حايم بارليف في أواخر عام ١٩٦٨ وبداية ١٩٦٩ بكتل من القضبان وفلنكات السكك الحديدية وبكميات كبيرة من أكياس الرمل لتقليل النفقات المالية .

ولكن ثبت ضعف هذه البنية الهندسية فى مواجهة قصف مدفعية الميدان المصرية من عيارات ١٢٢مم، و ١٦٠مم.، وذلك عندما بدأت حرب الاستنزاف بالقصف المدفعي ، الشهير يوم ٨ مارس ١٩٦٩ والذى أدى إلى تدمير ٦٠٪ من دفاعات الخط خلال الشهرين التاليين . ولذلك جرى بعد ذلك وخاصة بعد اطلاق النار عام ١٩٧٠ اعادة بناء النقط الدفاعية وتجهيزها بشكل أقوى وأحدث وسقفت المخابىء والدشم المحفورة تحت الأرض بكتل سميكة منيعة من الأسمنت المسلح أن تتحمل الاصابات المباشرة من قذائفه المدفعية وقنابل الطائرات التى زنتها ألف رطل ، وجهزت المخابىء بكل وسائل الراحة التى تمكن الجنود من الحياة

دون التعرض لخطر القصف المدفعى بما فى ذلك دورات المياه غير المألوفة ميدانيا ووجود مخزون كبير من المياه والمؤن والذخيرة ونقط مراقبة تلسكوبية لعدم تعريض المراقبين لنيران القناصة وبلدوزر لإعادة فتح طرق المواصلات عند الضرورة بين الرمال نتيجة القصف وطبيب مقيم . كما ربطت كل نقطة دفاعية بشبكة الاتصالات التليفونية العسكرية المتصلة بالشبكة المدنية حتى يستطيع كل جندى الاتصال ببيته كل يوم إذا رغب فى ذلك لرفع معنويات الجنود وعدم شعورهم بالعزلة هذا وقد أحيطت النقط القوية من كل اتجاه بحواجز قوية من الأسلاك الشائكة والألغام وبمختلف وسائل الانذار ، ومدت أنابيب المياه إلي أقرب أماكن ممكنة من النقط وبحيث تكون الأنابيب غير مكشوفة من الجو قدر الأماكن «أى تحت الأرض» كما ــ درب الجنود العاملون فى النقط الدفاعية علي العمل كمراقبين أرضيين مساعدين للطيران لتسهيل التعاون بين النقط ولدعم الجوى المباشر لها . وكذلك للعمل كمراقبين معاونين للمدفعية ذاتية الحركة والدبابات المحتشدة في العمق التكتيكى كاحتياطي متحرك والتى كان يجرى ، تحريكها باستمرار من موقع لآخر معنا لتحديد مواقعها بصورة ثابتة دائمة للمدفعية المصرية التى تقع داخل القناة أمام مرماها البعيد .

هذا كما أقيم علي امتداد ضفة القناة أمام النقط الدفاعية حاجز رملي يبلغ ارتفاعه مابين ١٢ و ٢٠ مترا عن سطح الماء بواسطة الجرافات الضخمة وذلك لإعاقة الآليات البرمائية المصرية عند محاولتها عبور القناة وتسلق الضفة الشرقية . وجهز هذا الساتر الترابي بين النقط القوية بخزانات مملوءة بمواد ملتهبة ومواسير خاصة تصل لسطح القناة لعمل ستارة من النيران فوقها .

وقد قدرت جملة نفقات الخطة المالية بنحو ٢٣٨ مليون دولار ، وشبه الكاتب العسكرى الأمريكى المقدم أرفينج هيمونت خط بارليف هذا بخط «مينيسوتا» الدفاعى الأمريكى الذى أقيم خلال المراحل الأخيرة من الحرب الكورية . ولكن الجندى المصرى والتخطيط العسكرى المصرى الجيد الذى وصل الى حد إقامة نماذج للخط وتدريب الجنود عليها حطمها أسطورة خط بارليف الذى قيل إنه لايقهر يوم ٦ أكتوبر المجيد» .

وفى أبريل ٦٩ ، وصف الجنرال ابراهام دان مدير المدرعات الإسرائيلى خط بارليف أيضا فقال : «إن الاستحكامات التى أقامتها اسرائيلى على الضفة الشرقية للقناة والمسماه بخط بارليف قد غيرت الموقف العسكرى تماما لصالح إسرائيل» .

وقال الجنرال بارليف نفسه في ابريل ٧١ «إنني متأكد من أن مصر إذا استأنفت القتال لن تتمكن من تحقيق أى عبور لاستحالة اجتياز خط الدفاعات الإسرائيلي المقام على امتداد الضفة الشرقية للقناة كما أن قواتها لن تتمكن على الاطلاق من عبور قناة السويس بسبب ما يشكله هذا الخط الحصين من القوات التي قد تحاول العبور» .

وكنت قد سمعت بارليف على التليفزيون الأمريكى فى سنة ١٩٧٠ يقول : «إن المصريين لايعرفون أى جحيم سينصب عليهم بمجرد أن يضعوا أقدامهم خارج الضفة الغربية للقناة .

ووصف المراسلون الذين زاروا خط بارليف بعد سقوطه بأن تحصيناته مكونة فى الواقع من ثلاثة طوابق ، الطابق السفلى يضم مخازن الطعام والذخيرة ، ووسائل توليد الكهرباء والتهوية والمياه الجارية والطابق الثاني مخصص لحياة الجنود .. من غرف ودورات مياه مجهزة بكل شيء بما فى ذلك قاعة صغيرة لعرض الأفلام والطابق الثالث هو المخصص لمباشرة القتال منه وهو محصن فوق الأرض ، بأسقف وجدران لاتخترقها القنابل .

أما موشي ديان فقد قال: إن خط بارليف أكثر تحصينا وتنظيما من أى خط مشابه وأنه منيع لدرجة تسمح لنا بالاحتفاظ به الى الأبد .

وقد قال موشي ديان بعد ذلك عندما استولت قواتنا على خط بارليف هذا أنه كان كقطعة الجبن المليئة بالثغرات ، تهوينا من ضربه وتدميره والاستيلاء عليه ، ولكنه في الواقع لم يصبح حقا كقطعة الجبن إلا بعد أن اقتحمه جنودنا واستولوا عليه بأكمله .

★

كيف يمكن وضع تصور لخطة عسكرية إزاء هذا الوضع ؟

أعود الى حديث القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل :

كانت المشكلة بالنسبة لقواتنا أن الظروف فرضت عليها أن تعيش ست أو سبع سنوات في الدفاع .. معظما في الدفاع الجامد ، والقوات على هذا النحو ، أي قوات في الدنيا ، معرضة لما نسميه في العسكرية «بمرض الخنادق» . كان لابد أن نتخلص من تأثير مرض الخنادق وعقده وركزت في تلك الفترة «فترة الاستعداد للمعركة» على مجموعة ضرورات رأيت أننا بغيرها لن نستطيع عمل شيء ..

أول هذه الضرورات أن تقتنع القوات بأنه لا مفر من القتال ولا حل بدونه .

وتمت بزيارات للقوات المسلحة في مواقعها أشرح الظروف للرجال وأقول لهم: إن الوقع الذى نحن فيه لابد من تغييره ، واذا

لم نغيره نحن فان العدو قد يفرض علينا التغير ، ومعنى ذلك إننا اذا لم نبدأ القتال فان العدو سوف يبدأ هو بالقتال لأن حالة اللاسلم واللاحرب غير قابلة للاستمرار الي مالا نهاية .

وكانت الثانية بين الضرورات أن يأخذ الرجال ثقة فى سلاحهم، وكنت أريد تغيير المفهوم القديم ، بأن الرجل بالسلاح والحقيقة أن السلاح بالرجل .. اذا لم يكن واثقا من نفسه فلن يحميه أى سلاح واذا كان واثقا فان كل سلاح في يده يحميه .

ربما نستطيع أن نفهم فى التطبيق العملى اذا تذكرنا أن طائرة من طراز ميج ١٧ تمكنت أثناء القتال من اسقاط طائرة فانتوم، وهذا ما أقصد بأن السلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح.

وثالث هذه الضرورات وهى تتصل بذلك مباشرة : أن يكون التدريب كثيفا فأن كان السلاح بالرجل فذلك يعنى أول مايعنى قدرة الرجل علي استيعابه والسيطرة الكاملة عليه .

وكانت الرابعة بين الضرورات ، أن نجعل قوات أدركت حتمية القتال، وعرفت قيمة سلاحها وأحسنت التدريب عليه ـ ترى رأى العين ماسو تواجهه وتكسر الرهبة مابينها وبينه ، وهكذا بدأنا نختار للتدريب ميادين قريبة الشبه الى أقصى حد بظروف وطبيعة المهمة التى سوف تقوم بها القوات وأولها عبور القناة ، اخترنا

مناطق للتدريب فيها مجار مائية ، بعمق القناة تقريبا ، وعليها سواتر بارتفاع سواتر القناة وفيها تيارات بقوة تيارات القناة . بل إننا فى بعض المرات أجرينا تدريباتنا على القناة ذاتها فى منطقة فيها تمتد فى فرعين أحدهما الى ناحيتنا وكان تحت السيطرة الكاملة لقواتنا .

فى ذلك الوقت كانت الخطة العامة لما سوف نقوم به تختمر وتتبلور .. تظهر ملامحها شيئا فشيئا بالدراسة المستمرة والتطوير.

ثم بدأت الخطة ذاتها تتبلور وتستقر عند منطلقاتها الأساسية، ثم تفاصيلها ..

يقول القائد العام :

«كيف يمكن وضع تصور لخطة عسكرية إزاء هذا الوضع؟»

«وكان تقديرى بالنسبة للعدو أنه يملك أربع ميزات أساسية :

ـ تفوقه الجوى .

ـ مقدرته التكنولوجية .

ـ تدريبه الدقيق .

ـ اعتماده علي معاونة سريعة من الولايات المتحدة الأمريكية ، تكفل له إمداد مستمرا .

ولكن هذا العدو كانت له عيوبه الأساسية إلى جانب ميزاته الأساسية :

ـ خطوط مواصلاته طويلة كما أن هذه الخطوط علي الجهات المتعددة ممتدة يصعب الدفاع عنها .

ـ أوضاعه البشرية لاتسمح له بتحمل خسائر كبيرة .

ـ ظروفه الاقتصادية تمنعه من قبول حرب طويلة الأمد .

ـ ثم هو عدو أصابه الغرور .

وكان علينا أن نحاول قدر ما نستطيع تلافى نقط امتيازه واستغلال نقط ضعفه . ولست أريد أن أدخل فى تفاصيل كل ما فعلناه لتحقيق هذا المنطق ولكن سوف أركز على نقطة واحدة لعلها تشرح هـــذا المنطق .

لقد اخترت مثلا أن يكون هجومنا عل خط المواجهة .. علي خط يمتد ١٨٠ كيلو مترا ، بطول القناة من بورسعيد ، فى الشمال إلي السويس فى الجنوب وكان ذلك فى إطار منطق تلافى نقط امتيازه لأن الهجوم علي طول المواجهة بهذا الشكل سوف يفرض علي العدو مايلي :

١ ـ سوف يكون مرغما على توزيع ضرباته الجوية المضادة على قواتنا .

٢ ـ بسبب هذا التوزيع فإن هذه الهجمات المضادة فى كل مكان سوف تكون ضعيفة فى كل مكان لأن المواجهة متسعة .

٣ ـ بسبب هذا الاتساع فان العدو لن يستطيع مبكرا اكتشاف اتجاه المجهود الرئيسى لقواتنا المهاجمة وبالتالى فإنه لن يستطيع التركيز عليه .

وعلى سبيل المثال فلقد تصورنا وخططنا ونفذنا بالفعل عندما بدأت العمليات مجموعة كبيرة من الكبارى ورؤس الكبارى ، وكان ما نفذناه أكثر مما نحتاجه فعلا وكنت مستعدا لاحتمال تدمير بعضها ولكنها جميعا نجحت وفشل العدو فى تدمير أى منها .

٤ ـ بسبب هذا الاتساع نفسه فان العدو سوف يتأخر فى رد فعله بالهجمات المضادة على الأرض ، لأنه سوف ينتظر لكى يكتشف اتجاه المجهود الرئيسى لقواتنا وبعده يتحرك .

ولقد أحسست مع تقدم مراحل التخطيط بأنه يتحتم علينا أن نقوم بعملياتنا من قاعدة وطيدة.. وأحسست أن دفاعاتنا فى القناة ينقصها التحصين الكافى ، وهكذا بدأنا نبنى دفاعاتنا استعدادا للهجوم : كان علينا أن نبنى ونرفع مواقع قادرة على التحكم في الشاطىء الغربى للقناة وفى الشاطىء الشرقي أيضا : كان خط بارليف أمامنا يكشف مواقعنا . ورحنا نبنى ونرفع ونكشف الضفة

الشرقية ونتحكم فيها . وكان ذلك عملا صعبا غاليا في تكاليفه ولكنه كان ضروريا حتى أستطيع مساعدة قواتي ، وهي تعبر من الغرب إلى الشرق ، ثم حتى أستطيع حماية قواتي للحشد واخفاءها قبل التقدم كمفاجأة للعبور .

كان ذلك يعطينا ثباتا في الموقع ثم أنه يعطينا ميزة فيما لو أحس العدو بنوايانا وحاول القيام بضربة إحباط أو ضربة اجهاض .. فيمكننا صده وتدميره ..»

هذا عن التصور العام للخطة ..

ولكن إعداد الدولة للحرب وإعداد مسرح العمليات وإعداد الجيش للعمليات الرهيبة المقبل عليه كلها عبارات تخفي وراءها آلاف من التفاصيل نجد لمحات منها في الأقوال التي أدلى بها قادة الأسلحة المختلفة لقواتنا المسلحة :

قال اللواء جمال محمد على مدير سلاح المهندسين :

وراء النجاح العظيم الذى حققته قواتنا المسلحة بقفزتها الباسلة عبر القناة واجتياحها الجارف لخط بارليف كانت جهود المهندسين العسكريين المصريين وكانت ابتكاراتهم الفذة وحلولهم العملية للمشاكل التي كانت تواجه عبور القوات فوق المانع المائي «قناة السويس» ثم المانع الآخر المتمثل في السد الترابي الذى أقامه الإسرائيليون بارتفاع ٢٠ مترا من حول خط بارليف .

وقبل ذلك كله كانت هناك جهود المهندسين العسكريين طوال السنوات الست الماضية من أجل التجهيز الهندسي لمسرح العمليات والذى امتد بطول سواحل مصر دعما لسلاحنا البحرى وبطول جبهة القناة دعما لقواتنا التي كانت تنتظر قرار العبور وبعمق مصر كلها فى المطارات العديدة التي تم تجهيزها فى العمق المصرى تفاديا لضربة مفاجئة من العدو .

- استطاعت ابتكارات المصريين فى بناء دشم الطائرات أن تكون نموذجا أخذ به بعد ذلك خلف غرب أوربا «الاطلنطى» .

- استطاعت ابتكارات المصريين في بناء قواعد الصواريخ أن تكون نموذجا عدلت على أساسه أساليب بناء قواعد حلف وارسو.

- استطاع الجهد المصرى أن يقلل المدة الزمنية لبناء كبارى الاقتحام عبر القناة من ٢٤ ساعة الى ٥ ساعات واستطاع المهندسون العسكريون بمعاونة المؤسسات الصناعية فى مصر أن يصنعوا محليا نصف معدات العبور .

- استطاع المهندسون العسكريون بعد تجارب عديدة أن يتغلبوا علي مشكلة السد الترابى باستخدام طلمبات المياه التوربينية التي تدفع المياه بمدفع مائى ومن خلال ٣٠٠ تجربة علمية بدأت أولها بمعاونة من المهندس صدقى سليمان أيام كان

وزيرا للسد العالى استطاع المهندسون العسكريون أن يصنعوا المفاجآت التى أذهلت العدو .

ظهرت أيضا مشكلة اصلاح الممرات بعد قصفها بقنابل الطائرات فى وقت قصير قياسي حتي لايؤثر ذلك على حبس . الطائرات وتقليل كفاءة القوات الجوية وقد تمت أبحاث فى هذا الموضوع استغرقت حوالى ٦ شهور مع وزارة البحث العلمى من خلطة أسفلتية مخزنة وأسمنت سريع التصلب وخرسانة عادية وأخيرا وصلنا إلى ألواح صلب خاصة تم تصنيعها محليا .

كما أن مشكلة ازالة القنابل التى لاتنفجر وخاصة الزمنية منها كانت مشكلة كبرى أمكن التغلب عليها بتدبير الأجهزة الحديثة للتعامل معها والتى يفاجئنا العدو بأنواع مختلفة فى كل حرب من حروبه وقد شكلت وحدات ودربت فى المطارات وزودت بالأجهزة اللازمة لهذا الغرض .

وكان إنشاء المواقع فى منطقة القناة معركة تحدى فيها سلاح المهندسين الطيران الإسرائيلى والتحم فيها القطاع المدنى بشركاته بكتائب المهندسين العسكريين اذ كانت الوحدة المنفذة تتكون من شركة من القطاع العام ومعها كتيبة مهندسين وقد ظهرت أهمية وجود القطاع العام بالدولة وشاركت المرأة رجلها فى

تنفيذ هذه المواقع وقدم الشعب شهداء أبرياء في هذه المعركة مدنيين وعسكريين وكان للسرعة فى الإنشاء أثر أذهل العدو وكان العمل يتم ليلا فقط وتحت تأثير غارات العدو الجوية والقنابل الزمنية وتشمل إنشاءات الدفاع الجوى كتائب الصواريخ والرادارات ومراكز السيطرة .

أيضا استطاع سلاح المهندسين إنشاء أعمال وقائية لجميع أسلحة الدفاع الساحلي من مدفعيات وصواريخ وغيرها وكذلك تم إنشاء مراكز القيادة ، وكل ذلك كان يجرى فى مرحلة الاستنزاف.

وكدراسة لتقدير الحجم المطلوب من وحدات المهندسين اللازمة لعملية العبور من الوحدات السابقة ، ظهرت الحاجة الى تطوير مهمات الكباري المتيسرة لتكون كبارى اقتحام تنشأ فى ٥ ساعات بدلا من ٢٤ ساعة ، وذلك بالتصنيع المحلى فى جميع شركات الصناعات المعدنية ، وذلك استكمالا لعدد الكبارى التى وصلت من الاتحاد السوفييتي ، وكذا تصنيع القوارب الخشبية فى أحد المصانع الحربية ، وجاكتات النجاة وغير ذلك من مهمات العبور ، فقد وصل التطوير والتصنيع المحلي حجما يعادل ما وصل من الخارج .

وكانت مشكلة الساتر الترابى قد ظهر بشكل أكبر بعد إيقاف النيران فى أغسطس سنة ١٩٧٠ ، بإنشاء خط بارليف المكون من

حـوالى ٢٧ قطعـة قـوية على طول القناة بواقع نقطة كل ٤ كم تقريبا، تم توصيلها بساتر ترابى يتراوح ارتفاعه بين ١٢ ـ ٢٠ مترا ، وهذه النقط الحصينة تم إنشاؤها علي الهيئات الحاكمة على المحاور الرئيسية فى المناطق الصالحة للعبور ، وتبلغ مساحتها فى المتوسط ٢٠٠ × ٢٥٠ مترا ، ومحاطة بأسلاك شائكة وحقول ألغام بعمق ٢٠٠ متر فى المتوسط ، وبها جميع مرابض نيران الأسلحة المختلفة من رشاشات ومدفعيات وهاونات ودبابات فى شكل دفاع دائرى بمدخل واحد ، وبها ملاجىء للافراد من طوابق مختلفة وبدرجة وقاية عالية جدا ، اذ تقاوم قنابل الطائرات زنة أكثر من ١٠٠٠ رطل ، وزودت بأجهزة تهوية وتنقية ضد الغازات وأسلحة التدمير الشامل ، وبها وحدات إنارة وتكييف هواء وغير ذلك من المرافق الصـحـيـة ، وقـد تكلف خط بارليف ، حـسب تقـدير الإسـرائيليين ٢٢٨ مليون دولار ، والذى يعد من أقوى الخطوط الدفاعية وقته فى أنه يرتكز علي المانع المائى قناة السويس التى بلغ طولها حوالى ١٦٣ كيلو مترا ، ويتميز القطاع الجنوبى منها بسرعة التيار الذى يبلغ ١.٥ م/ث ، وارتفاع المد والجزر يصل إلى ١.٥ م ، كما يتميز المانع المائى بتكسية حجرية وستائر معدنية على جانبيه .

ونتيجة لذلك ظهرت مشكلة التغلب على الساتر الترابي وعمل فتحات به لعبور الدبابات ومركبات القتال ، مع تركيب الكبارى لتلحق بالمشاة التي تتسلق هذا الساتر ، وقد تم عمل تجارب عديدة للتغلب على هذا الساتر بإنشاء ميادين على فروع النيل بالعرض الطبيعى لقناة السويس ، وإنشاء ساتر ترابى بالحجم الطبيعي للتجارب والتدريب .

وقال قائد سلاح الامداد والتموين :

«الامداد والتموين قد لاتظهر في صورة مباشرة كقتال لتلاحم مع العدو ، ولكنها تقف باستمرار خلف الجندى المقاتل ، مزودة إياه بكل ما يحتاجه من ذخائر للمدفع ووقود للدبابة أو للطائرة أو للقطعة البحرية اينما كانت في مضيق المندب أو في البحر الأبيض.

تقف وراء الجندى تمده بما يحتاجه من غذاء ومن ماء في مسرح صحراوى تندر فيه الموارد المحلية ، تمده بملبسه وبما يحتويه ملبسه من عتاد ، كما تقوم بمهمة النقل بوسائله المختلفة بجميع أنواع الاحتياجات، سواء كانت احتياجات ادارية أو معدات حربية لأجهزة أخرى ، كما تقوم بمهمة كبيرة وهى الخدمة الطبية.

وهناك مهام أخرى ، ولكننا اخترنا هذه المهام لارتباطها المباشر بمهمة القتال فى المعارك التى دارت فى ٦ أكتوبر .

طبعا الامداد يمثل شقا من مهام الامداد والتموين ، وهناك شق آخر لايظهر ، وهو التدبير ، وهنا برز الاعداد في اتجاهين : اعداد لجبهة القتال ، الجيوش الميدانية والبحر الأحمر ، وهذا ماسمي بتجهيز مسرح العمليات ، واعداد آخر فى العمق .

وأنا سأدمج الموضوعين فى بعضهم ، منعا أو تلافيا للتكرار .

الهدف للموضوعين هو تجهيز مسرح العمليات ، وخلق أفضل الظروف للمعاونة الادارية والطبية في المعركة الهجومية ، يلخص هذه المشروعات فى الآتى :

تم تطوير جميع محطات السكة الحديد فى الجبهة .

أنشئت المراسى فى الممرات المائية فى الجبهة ، ده من ناحية النقل، من ناحية الوقود ، كان لابد لتأمين الوقود باعتبار أن خزانات الوقود الكبيرة هدف من الأهداف الحيوية التى تتعرض لقصف العدو، فأنشئت في عمق الدولة سعات وقود مأمونة تحت الأرض ، تسع مايكفى لاستهلاك العملية ، بل مايكفى لاستهلاك عمليتين أو أكثر .

بالنسبة للمياه ، أنشئت سعات تخزين تبدأ من بورسعيد شمالا وفى مواجهة الجيشين ، وفى البحر الأحمر ، فى كل

القطاعات ، بحيث نأمن لكل قطاع على حدة مايكفى لاستهلاك ٣٠ يوما كيفما كانت ظروف العمليات وتطوراتها .

كما أنشئت أطوال من خطوط الانابيب للمياه فى كل المحاور، وتخدم الاتجاهات من أول بورسعيد شمالا حتى برنيس جنوبا .

.. تم تجهيز اعداد من الأسرة فى المستشفيات المدنية ، بحيث تستوعب اعداد الجرحى المقدرين للعملية ، وطبعا الاعداد الحقيقية كانت أقل كثيرا جدا من المقدر .

تم تجهيز عربات لنقل الدم ، بحيث يصل الدم لغاية مستوى الفرقة وتجرى العمليات الجراحية «الجراحة المؤهلة» حتى مستوى الفرقة بامداد متواصل من الدم .

كما جهزت قطارات الجرحى وأنشئت غرف عمليات جراحية تحت الأرض فى غرب القنال تسمح بأن الأطباء يجروا هذه العمليات وهم فى ظروف مؤمنة علي قدر الامكان .

عندما بدأت العمليات فى ٦ أكتوبر ، فى الواقع ، بالنسبة لتجهيز المسرح ولمهمة الامداد والتموين ، كان جزء كبير من العمل قد تم ، وأننا كنا جاهزين لادارة المعركة بالامكانات التى تم بناؤها خلال ٦ سنوات ونصف .

وكل هذا أدى إلى انتظام الامداد وانتظام الاخلاء الطبى دون أدنى خلل أو قصور ، وإنما أود بالإضافة الي انتظام هذا الامداد، أن أبرز بعض الجهود الواضحة .

حجم النقل في هذه الفترة كان حجما كبيرا جدا وبمختلف وسائل النقل ، راعيت أننا نشرك كل الوسائل ، نقل بالعربات سواء كانت عربات عسكرية أو مدنية معبأة ، اشتركت كذلك السكك الحديدية، اشترك النقل المائي لغاية قناة السويس .

الموضوع الثاني الذى أحب أن أبرزه هو خطوط الأنابيب للوقود والمياه اعتبارا من ٨ أكتوبر كانت هناك معابر للوقود والمياه موجودة بالنسبة لكل رأس شاطىء من رءوس الشواطىء .

ثالث نقطة أود أن أبرزها هي ما حققته الخدمة الطبية بنجاح، ويمكن أن توضح بأن أول الجرحى فى المعركة وصل الى المستشفى في القاهرة، هنا في كوبرى القبة ، خلال يوم ٧ أكتوبر أى خلال ٢٤ ساعة من الإصابة ، بعد أن تلقى الاسعاف الأولى والعلاج المؤهل فى مستشفيات الجيش .

ولاشك أن مما ساعد على أن تكون الخدمة الطبية جيدة ، هو قلة عدد الخسائر ، مما أتاح للمستشفيات أنها تقدم العلاج بدرجة عالية .

ويقال اللواء سعد الدين مأمون مساعد وزير الحربية :

«اتخذ السيد الرئيس قرار المعركة وهو يقدر تماما أن هذه المعركة ستؤثر علي مستقبل مصر لأجيال مقبلة إلا أنه في الحقيقة كان يثق في القوات المسلحة وراجع الخطط .. وقدر صعوبة التنفيذ إلا أنه كان واثقا من النجاح .

اتخذ القرار ثقة في التخطيط .. ثقة في القوات المسلحة المصرية التي واجهتها مشاكل كان لابد من حلها :

أول مشكلة : العدو محصن في خط بارليف الحصين الذي لايمكن تدميره بنيران المدفعية لأن نيران المدفعية لا تؤثر فيه بمنتهى البساطة .

ثانيا : لايمكن استخدام الطيران ضده من الناحية العملية لأنه على مسافة ٢٠٠ متر من قواتنا .

أنشأ علاوة علي المواقع الحصينة والنقط الحصينة ساتر ترابي بارتفاع من ١٠ أو من ١٢ الى ٢٠ مترا بنأخذ المتوسط ١٥ مترا .

أدي المنظر اللى قدامنا من الناحية التانية ، بالنسبة لقواتنا ده معناه أيه ببساطة .. هل عندنا هليكوبترات كفاية تشيل قواتنا من هنا الى الناحية التانية ؟ كان بقى الموضوع فى منتهى السهولة .

مـاعندناش، وده اللي قدره العـدو تمامـا وهـو حـقـيـقي حنضطر كقوات مسلحة مصرية لعبور القناة بالمشاه فقط أو بمعني أصح مترجلين سواء كانوا مشاه أو بالمدفعيات أو نقط ملاحظة مدفعية . وأقصد بكلمة مشاه أى واحد مترجل يكون مسلح حنعبر بالمشاه فقط . مـسلحين بإيه.. بالأسلحـة الصـغيـرة مـسلحين بإيه بالمدافع المضادة للدبابات قصيرة المدى وهى التى يمكن حملها حتى وزن ٣٥٠ كيلو الـ l l .b أقصى مرمى لهذه الأسلحة أيها السادة ٦٠٠ متر ضد دبابات العدو وعدد محدود جدا للسرية لا أقوله من بعض الصواريخ المضادة للدبابات ذات المدى الأطول .

طيب حنضطر إذن وفي قوارب مطاط يروحوا يعبروا يتسلقوا الساتر الترابي وأجزاء أخرى تهاجم خط بارليف وتعدى الناحية التانية وتقاتل. تقاتل أد أيه بالحساب .. يا مهندسين وبكل وسائل الحساب لايمكن فتح ثغرة حتى بدون تدخل ونهارا أو ممرات فى الساتر الترابي قبل سبع أو تسع ساعات .. العدو إذا أدخل فى الاعتبارات أن الليل .. وهو بالتأكيد متصور أننا هنهجم ليلا فحندخل كـامل علي الأقل ١.٥ ضعف ثم تدخل النيران سواء بالطيران أو من نيران المدفعية حتتضاعف هذه المدة .

وفى الوقت نفسه ليست هذه هى المهمة فقط بل من ضمن المهمة تصفية والاستيلاء علي خط بارليف والنقط الحصينة مش

حتى لمجرد أنه مجرد أمر .. لا .. لأن هذا أمر واجب ليه لأن النقط الحصينة متحكمة فى جميع الاتجاهات السليمة اللى ننزل فيها المعابر والمعديات وفى الوقت نفسه نتخذها فى هذه الحصون الغير معقولة اللى حاطط فيها ضباط يديروا نيران الطيران والمدفعية .. يعنى بيصحح النيران تماما على صدور أبنائنا اللى بتعبر وعلى هذا كان من الواجب أيضا من ضمن الخطة أننا نهاجم خط بارليف في الوقت نفسه .

طيب مشكلة تانية فى منتهى البساطة هذا الساتر كلمة بسيطة كده لكن تعنى الكثير .. الساتر الترابى اللى حابس أسلحتنا ثم الذخيرة اللى إحنا راح نديها للأسلحة أسلحة صغيرة أو مضادة للدبابات أو ، أو كافية ؟ علشان تقاتل لحد ما الحملة تشيل باقى الذخيرة وتروح الناحية التانية والدبابات تروح الناحية التانية ..؟ كلام غير حقيقى يعنى يدويك تقضينا ثلاث أربع ساعات .. الله طيب ولما أحنا هناك الكبارى ماتتعملش ولا المعديات ولا .. ولا .. ولا ونعمل هجمة مضادة العدد أتنين زى ما أحنا مقدرين تلاتة .. نعمل ايه مانلاقيش ولا طلقة واحدة مع الأسلحة .. طيب وايه الحل أدى حاجة في منتهى البساطة .. اضطرينا نعلم كلام بدائى لكن أفلح .. عملنا عربيات جر صغيرة ، بتتجر بالعسكرى ،

مثلا مهاجمة خط بارليف حوائط حصينة فظيعة أسلاك ألغام فظيعة بكميات رهيبة غير معقولة .. حصينة فظيعة تتهاجم من الخلف أو بالمواجهة من قناة السويس .

المنطق العسكرى أقول لحضراتكم: أحنا اختلفنا كثير جدا على كل المستويات لكن المنطق الواحد يقول يهاجمها من الأجناب والخلف قعدنا نوازن بمنتهى العمق من أول مستوى القيادة العامة لغاية أقل الناس وقررنا أن نهاجمها من الأصعب لاحقاق المفاجأة وفيه حاجات أخرى راح أقولها لحضراتكم برضه مش سر .. قررنا مهاجمتها من الأمام . ننزل من الضفة الغربية .. نركب القوارب ويتطلع علي النقط القوية ونخش جواها ونقتل العدو .

أولا .. الابتكار الأول طيب احنا نفتح ازاى الثغرات فى هذه الحصون .. الناس قدرت وضباط صغيرين مش كبار هم اللى قدروا ولكن احنا بنستفيد من جميع الآراء أننا نقدر نفتح الثغرات مادامت المسافة ٢٠٠ متر بالمدفعية بتاعة الضرب المباشر علي هذه النقطة حتروح فاتحين ثغرة فى الألغام والأسلاك كلما نفتح اثنين فى ثلاثة القوات حتنزل وتعدى ولا نحور وتنتظر الدبابات تيجى لأن من ورا ٢٠٠ متر حقول الألغام ما تتشالش .. نعلم أن خط بارليف لاتؤثر فيه المدفعية ولا الطيران كانت النتيجة أننا قلنا

نكتفي باطلاق النيران علشان العساكر بتوع العدو تخش تحت وتستخبي أثناء هذا بنضرب الطلقات الضرب المباشر وبعدين بننزل ونطلع نهاجمهم .

طيب ونيران الدفعية بنرفعها ١٠٠ متر قبل قواتنا راح تصيبها الشظايا بتاعتها .. طيب نستعيض عنها بإيه بقنابل يدوية حطينها في حاجة اسمها كاسات اطلاق علي البنادق وتفضل نضربها تنزل تكمل العملية تستر آخر فترة الناس تدخل جوه .. عندئـذ يبقى يا قاتل يا مقتول .. العساكر دخلت النقطة والعدو جوه والقتال المتلاحم بالقنبلة اليدوية بالسونكي بالطلقات وهذا ما تم فعلا وكانت المفاجأة للعدو لأنه لايتصور أن ده بيحصل .

موضوع تاني في التخطيط قبل بمنتهى البساطة .. انتخاب الساعة اثنين الظهر .. جميع العقائد يا أما الصبح بعد أول ضوء بساعة .. اثنين يا أما آخر ضوء .. يا أما قبل آخر ضوء بساعة علشان نضرب مدفعيته .. أما الساعة اثنين ده لم يرد في التاريخ من قبل ومع هذا التقدير العام اتوزن وقررت القيادة العامة أن ده يكون الساعة اثنين وهذا أيضا كان مفاجأة وبل الروس والأمريكان نفسهم والإسرائيليين نفسهم لم يكن متصورين أن مثل هذا التوقيت يمكن يكون هو ساعة بدء الهجوم .

دي عينات من بطولة التخطيط والتفكير البسيط .

قررنا رغم أن ده يكون ضد كثير جدا من مبادىء الحرب أن قادة الكتائب وقائد الكتيبة مقدم أو عقيد .. ده يعدى مع الجنود بعد ١٥ دقيقة من بدء القتال .. يكون علي الناحية التانية بقارب مطاط مع العساكر قائد اللواء بعد ٤٥ دقيقة يكون علي الناحية التانية مع قواته .. قائد الفرقة العميد أى مايساوى مدير عام .. تصوروا مديرى العموم بعد ساعة ونص يلاقى نفسه الناحية التانية فى الضفة الشرقية علي القناة مع كل وسائل السيطرة القانونية وكان قرارا جريئا لكن هو ده اللي حصل القادة في الأمام مع الجنود فكان لها فعل السحر فعلا في المعركة ، أدى مثل للروح المعنوية والتصاق القادة بالجنود .

هؤلاء الناس والقادة عبروا تماما زى الجنود على قارب مطاط معاه أسلحته وطلع الساتر الترابى ١٥ مترا .

مثال ثانى .. ولعله سر وهذا ما لا أريد أن أذكره ولكن لازم أقوله .. خسائر القادة بتاعتنا علي كل المستويات والضباط فى هذه المعركة رغم أنها قليلة جدا وغم أنها لم نكن نقدر أن هذه الخسائر تكاد تصل الى عشر الخسائر اللى كنا متصورينها هى أعلى نسبة فى الخسائر فى أى حرب في العالم حتى الآن .. ليه .. لأن القادة كانوا فى الأمام دائما ..

وقال اللواء حسني مبارك قائد القوات الجوية المصرية :

«من الحقائق المعروفة عن حرب ٦٧ أن العدو قد تمكن في ضربة جوية مركزة ضد القوات الجوية المصرية من إحداث خسائر كثيرة بها ، الأمر الذي جعل القوات وقتئذ غير قادرة على تنفيذ مهامها أو القيام بواجباتها أثناء العمليات .

إن القوات الجوية لم يكن بها إلا عدد محدود من المطارات غير المحصنة وغير المحمية تتمركز بها الطائرات في العراء وفي غير دشم محصنة مما يعرضها للخسائر الكثيرة في الهجمات الجوية.

حقيقة حرب ٦٧ كانت منطلقا لنا لبناء القوات الجوية وأعطتنا خبرة كبيرة وخرجنا بدروس مستفادة منها حتى ننشيء قوات جوية حديثة تمكنها من تنفيذ مهامها حيال الوطن .

بعد حرب ٦٧ وبعد دراسة الموقف للقوات الجوية وجدنا أنه لابد من إكثار عدد الطيارين بالقوات الجوية حتى تتمكن من أداء مهامها . إعداد الطيارين كما هو معروف مسألة وقت والطيار لايشترى وإنما الطيار يدرب ويحتاج إلى وقت كبير في التدريب من أربع الى خمس سنوات .

أنشأنا في المطارات ممرات كثيرة حتى أن ده يصعب علي العدو اذا جه علشان يدمر مطار حايدمر ممر، إن دمر واحد مش

حايدمر الثاني أو حايدمر الثالث، عملنا دشم حصينة عشان نحط فيها الطيارات وافتكر مدير المهندسين امبارح تكلم عن موضوع الدشم .

عندنا حالات استعداد بصفة مستمرة في أنحاء الجمهورية يعني طائرات جاهزة للاقلاع خلال من دقيقتين ونص إلى ثلاثة لاعتراض أي هدف معادي ، يظهر على شاشات الرادار أو يبلغ عنه بالمراقبة بالنظر. دي مهمة مستمرة من بعد ٦٧ لم تنته وإلى الآن . جت حرب الاستنزاف . كل ده حمل زائد علي القوات الجوية أثناء تجهيزها وبنائها وتدريب طياريها وأطقمها للعمليات طبعا كنا مابين حالات استعداد وما بين تدريب ومابين قتال جوي حاجات كثيرة جداً في وقت واحد إلا أن احنا أمكننا أننا نجتاز هذه المرحلة ولتصميمنا علي أن المعركة آتية لا مفر منها فكرنا لابد أن نستمر في البناء بأي شكل كان كان .

القوات الجوية في أي عملية هجومية وأي قوات جوية في أي عمليات هجومية لها مهام رئيسية تنفذها في هذه العملية مهمة .

من مهامها أن القوات الجوية تقوم بضربة مركزة أو ضربة رئيسية أو ضربة كبيرة زي ماتسميها ضد أهداف العدو مطاراته حتى لا تؤثر على هجوم القوات علي قيام القوات البرية بالعمليات الهجومية .

كان على وسائل الدفاع الجوى وصواريخه الحماية ضد هجمات العدو حتى لا تؤثر علي طياراتنا عندما تقوم بمعاونة الجيش وضرب مركز السيطرة بتاعتنا ، يعنى المركز الرئيسى اللى بيدير الطيران بتاعه، يوجه الطيران بتاعه تضربه وتشل فاعليته يقوم بربكة في استخدام طيرانه ولو لفترة ما الى أن تنفذ أول مراحل العمليات اذا كان له محطات شوشرة تشوشر على محطات الرادار التي تؤثر علي الدفاع الجوى وعلى القوات الجوية فى عملياتها دى برضه من مهامه . إذن الضربة الرئيسية هى ضربة رئيسية كبيرة بقوة كبيرة من الطيارات لتؤثر أو تشل أو تدمر هذه الأهداف بسرعة حتى تمكن القوات البرية أو قوات الدفاع الجوى من إمكان تنفيذ مهامها وكذا القوات الجوية .

القوات الجوية لها مهمة أخرى وهى الاشتراك مع قوات الدفاع الجوى فى حماية الأهداف الحيوية لأى دفاع وكذلك قواعدها الجوية .

القواعد الجوية والأهداف الجوية فى الدولة حاجة مهمة جدا لابد من تأمينها وحمايتها .

القوات الجوية برضه بتضرب احتياطيات الجيش المعادى كلما تقدم فى اتجاه قواتنا أثناء تقدمها . أيضا القوات الجوية تشارك القوات البرية فى معاونتها أثناء عملياتها تعاون القوات البحرية .

القوات الجوية تقوم بصد الهجمات الجوية أيضا المعادية بالاشتراك مع قوات الدفاع الجوى .

القوات الجوية أيضا عليها مهمة الاستطلاع الجوى . ومهمة أخيرة للقوات الجوية عموما هى التعاون مع قوات الابرار يعنى انزال قوات الابرار ، قوات الصاعقة اللى بتنزل فى أوقات معينة علشان عمليات تخريب أو علشان تعطيل ..إلخ .. اللى بتقوم بنقلها وتنفيذها هى القوات الجوية عمليات الانزال اذا كان فيه انزال من طيارات للمظليين اللى بتقوم بها القوات الجوية .

قبل أن أبدأ فى سرد أحداث أكتوبر ١٩٧٣ من وجهة نظر الدفاع الجوى أود أن أوضح دور الدفاع الجوى فى مواجهة وسائل الهجوم الإسرائيلى ، والمهام التي تؤديها قوات الدفاع الجوى فى السلم والحرب، إذا تصورنا أن لدى اسرائيل حوالى ٥٠٠ طائرة قتال تستطيع أن تلقى في طلعة واحدة حوالى ٢٠٠٠ طن من المتفجرات أى تستطيع في خلال ثلاثة أيام قتال أن تلقى فوق الجبهة مايعادل أول قنبلة ذرية ألقيت فوق هيروشيما .

هذه القوة الجوية الكبيرة والتي كان العدو يفخر بقدرتها ويعتبرها سلاحه الرئيسى الذى لايقهر .. سلاحه الرئيسى اللى بيقوم به بتأديب أى دولة تسول لها نفسها تحرير أراضيها المغتصبة .. هذا السلاح الذى مكن اسرائيل من العربدة فى

المنطقة ، كما قال قائدنا الأعلى ورئيسنا أنور السادات ، تلك القوات هي التى كان على قوات الدفاع الجوى أن تواجهها وأن تحمي أهدافنا الحيوية ضدها ، كما كان عليها أيضا توفير الحماية للقوات البرية والبحرية والجوية ضد الهجمات الإسرائيلية.

إذن كان علي قوات الدفاع الجوى أن تكون على درجة استعداد عالية باستمرار سواء في فترة اللاسلم واللا حرب أو مع اندلاع الحرب لحماية الأهداف الحيوية الرئيسية في الدولة بالإضافة الى حماية القوات البرية والبحرية والجوية ، لصد الهجمات المعادية وإنزال أكبر خسائر في طائرات العدو .

احنا حققنا نصر، ونصر كبير كدفاع جوى ، هذا النصر ليس وليد ساعة أو وليد تجهيز أسبوع وأنا مباقولش سر اذا كنت بأقول يمكن أن هوه أقوى نظام صواريخ ودفاع جوي موجود فى منطقة الشرق الأوسط. طيب إزاى احنا من أين لنا هذا كدولة نامية ؟ علشان كده أنا بأقول هذه المقدمة لأن عايز أرجع بحضراتكم ، إلى المدى البعيد شوية ، الخلفيات بتاعة إنشاء الدفاع الجوى ، لأنه كله مفاخر ، وتاريخ ، عندنا قاعدة عريضة ابتدينا عليها ، ابتدينا علي الرجل السليمة وكانت عندنا القوة الدافعة ، وكانت عندنا خبرة المعارك السابقة وعلشان كده قدرنا نعد فى أقصر وقت ممكن اللي مقدرتش تعده أى دولة نامية أخرى .

والنكسة بقدر ما كانت مؤلمة .. بقدر مما كان لها فضل كبير جدا على الدفاع الجوى .. حائط الصواريخ كان قدامنا وجهة نظر، بنقول إن احنا نقفز نجيب حائط الصواريخ ونقفز به مرة واحدة للأمام لمنطقة الجبهة ، ووجهة النظر الثانية بتقول إن احنا نعمل عدة نطاقات وننتقل ببطء ونسميه الزحف البطىء، وكل نطاق بنبنيه وبنحتله في حماية النطاق الذى سبقه، كل وجهة نظر لها مزايا ولها عيوب ، وأخذت نقاشا كبيرا على أعلى المستويات ، واستقر الرأى والمفاضلة على أنا نأخذ بالنظرية الثانية اللى هى الزحف البطىء وفعلا تم إنشاء مواقع النطاق الأول وتم احتلالها خارج مدينة القاهرة دون أى رد فعل من اسرائيل .

استغلالا للنجاح قررنا إنشاء ثلاث طاقات فى منتصف المسافة بين القاهرة وبين الجبهة ووضعت خطة دقيقة وطموحة فعلى مدى ليلتين فقط كان علينا ان احنا ننشىء تحصينات بتاعة حوالى ٢٤ موقعا ، نجهز مراكز القيادة بالمواصلات وخلافه ، نمهد الطريق والمدقات ، نحرك بطاريات الصواريخ وتحتل مواقعها مع وسائل الدفاع مط المباشر عنها، ووسائل الانذار المختلفة اللازمة لها، تدفع مجموعات من مهندسى الالكترونيات علشان تضبط وتختبر وتجهز هذا العدد الكبير من المعدات اللى كان عليه

يجب أن يكون جاهزا للقتال في خلال ساعات قليلة من وصوله الي مواقعه .

كل الأعمال دي يجب أن تتم بنجاح وتعمل ليلا وليس نهارا حتى تتم المفاجأة للعدو ، وفعلا تم تنفيذ العملية في تناسق كامل ، وتم تنفيذ هذه الأعمال في التوقيت المحدد وبدقة مثالية كسمفونية لا نشاز فيها ، وفي صباح يوم ٣٠ يونيو عام ١٩٧٠ حصل إيه ؟ فوجئت الطائرات الإسرائيلية المغيرة بالصواريخ المصرية ، وتكبدت خسائر لم تكن تتوقعها ، وتكررت المحاولات بمزيد من الطائرات ومزيد من أسلحة الاعاقة ومزيد من التكتيكات المضادة للصواريخ ومزيد من أعمال الخداع والنتيجة كانت إيه؟ مزيدا من الخسائر ومزيدا من الأسرى الطيارين الإسرائيليين .

وبدأت اسرائيل تتباكى ولا أنسى في هذا المجال تصريح أبا ايبان لما قام في الكنيست وقال «لقد بدأ الطيران الاسرائيلي يتاكل» وكانت خسائر العدو الجوى في الفترة من ٣٠ يوليو الى ٨ اغسطس ١٩٧٠ طبقا للبلاغات الرسمية اللي صدرت من جانبنا عدد ١٦ طائرة.. هذا العدد كان عددا متواضعا من ناحيتنا زي المعتاد ، لأن كل مانوقع طيارات ، سيادة الوزير يقول لي لتجيب لي الطيارة لحسبهاش لك ، ففعلا كان عددا متواضعا لأن بعد

وقف اطلاق النار «بيرجس» المشرف علي رعاية المصالح الامريكية أبلغ أحد كبار المسئولين المصريين .. أننا قللنا جدا من الخسائر التي أنزلناها بالطيران الإسرائيلي ويعزز ذلك ماصدر في إحدى المجلات الأمريكية «مجلة أفيشن ويك» بتاريخ ١٦ نوفمبر حيث قدرت خسائر اسرائيل بعدد ٥١ طائرة ، دمر منها ١٧ وأصيب ٣٤ وقد استعاضوا هذه الطائرات بواسطة أمريكا يعنى معظم الخسائر بتاعتهم حصلت فى آخر عشرة أيام .

وكانت لنتيجة نجاح خطة الخداع أثر كبير على العدو ، ويبرز ذلك في قول مائير : «ان كتائب الصواريخ المصرية كعش الغراب المشئوم» كلما دمرنا إحداها نبتت بدالها أخرى» .

إن ديناميكية قواتنا والتى أتبعت مبدأ العمل ثم العمل والسرعة جعلت العدو فى متاهة بالنسبة لماهية حائط الصواريخ اذا كانت حائطا فعلا بالنسبة لقوته ومنعته وأسراره .

طيب نتيجة هذا العمل في هذه المرحلة إيه ؟ كان علينا أن احنا نستكمل أعداد القوات بتاعتنا بتاعة الدفاع الجوى علشان تحرير سيناء؛ وكان نتيجة الأعمال اللى تمت خلال هذه الفترة ان احنا ـ أعني القيادة ـ اكتسبت خبرة كبيرة في التخطيط والتفكير وادارة أعمال القتال بسرعة والتصرف بذكاء في المواقف الطارئة ،

اكتسبت القوات خبرة عملية فى استعمال المعدات الالكترونية المعقدة ، ثم تطوير اساليب التدريب بطريقة مبتكرة فعالة وبعيدة عن الأساليب التقليدية .

وقد يبدو أمام الكثيرين أن هذا التطوير قد استغرق مدة طويلة، ولكن ذلك يعتبر فى الحقيقة قفزة رائعة تمت بنجاح اذا حطينا في اعتبارنا ، علشان ننشىء قوات صواريخ بالاعداد الهائلة اللى موجودة عندنا والأنواع المختلفة . وكلها حاجات الكترونية ومعقدة . علشان ننشىء قاعدة الصيانة والاصلاح لمثل هذه المعدات المعقدة وعلشان نفهم أسرار هذه المعدات ونجيد استخدامها بدقة وفاعلية كل ده لايتم فى سنة ولا فى سنتين» .

وتحطمت الاسطورة عند الظهر

في الساعة ٢ تماما ظهر يوم السبت ٦ اكتوبر كانت موجات كثيفة من الطيران المصرى تعبر خط قناة السويس متوجهة في ثوان الي الاهداف المحددة لها في سيناء . كانت هذه الأهداف في الدرجة الأولى هي المطارات المتقدمة ومراكز قيادة العدو ومراكز التشويش الالكترونية ومواقع الصواريخ المعادية المضادة للطائرات.

كانت هذه أهدافا بالغة الأهمية في الساعات الأولى للمعركة .. وصفها قائد القوات الجوية المصرية بقوله «ضربنا مركز سيطرة كبير في سيناء ، هو مركز «أم مرجم» الذي يسيطر على القوات الجوية والدفاع الجوى للعدو في سيناء . وضربنا محطات الرادار الأمر الذى شل هذا المركز واضطر العدو الى نقل مركز السيطرة الى مكان

أخر . وحدث ارتباك كبير في هذه اللحظات الحاسمة لدي القيادة الاسرائيلية. لم يكن قادرا وقتها على السيطرة على طائراته لأن مركز القيادة والسيطرة دمر تقريبا ، كذلك تم تدمير مركز التشويش ، وهو المخصص للتشويش على أجهزة راداراتنا وبالتالي يؤثر علي عمل صواريخنا في الدفاع الجوي وعلى عمليات قواتنا الجوية عند توجيه المقاتلات الى أهداف معادية وكذلك ضرب المطار الرئيسى في سيناء لقربه الشديد من قواتنا ولكونه مركز النشاط الرئيسى لطيران العدو» .

وفي نفس اللحظة ظهرت على شاطىء القناة فجأة آلاف من المدافع بشتى أنواعها واحجامها تركز نيرانها الهائلة على سلسلة تحصينات العدو في صورها وأعماقها المختلفة .

وكانت هذه المدافع قد تسللت في الأيام السابقة الى مواقعها التي أعدت من قبل في هدوء حتى برزت فجأة يوم القتال ولم يشعر العدو المتحصن في الدشم والخنادق إلا ونيرانها تنصب عليه بكميات هائلة .

كان هذا القصف المركز لمواقع العدو يستهدف تدمير أقصى قدر ممكن منها وارباكها وشل فاعليتها في اللحظات التي تسبق وتصاحب عبور القوات : من نسف حقول الألغام وتدمير خطوط الأسلاك الشائكة واسكات مواقع المدفعية المضادة وسد مداخل سلسلة تحصينات خط بارليف .

وليس ضرب المدفعية عملا عشوائيا . ولكنه عمل ينطوى على حسابات دقيقة بدوره ، للتنسيق بين الاهداف المطلوبة من كل نوع وحجم من المدفعية ، ولتوجيه تصويباتها وتعديل هذه التصويبات خصوصا على الاهداف التى لن تلبث أن تتحرك وراء خط الدفاع الثابت وفى مقدمتها الدبابات ، ثم الاستمرار فى القصف فوق رءوس قواتنا المهاجمة من حيث تسقط قنابلنا بمسافة محسوبة أمام هذه القوات وهى تتقدم وهى مسافة حساسة تتراوح بين مائة وخمسمائة متر فقط لا غير بين القوات الزاحفة وبين أماكن سقوط القنابل المنطلقة من خلفها والمتجهة الى اهداف العدو ..

وفي الوقت نفسه كما قال العميد نبيل شكري قائد القوات الخاصة، «كانت قوات الصاعقة تعبر بقواربها قناة السويس على امتدادها من بورسعيد شمالا الى السويس جنوبا ، وكان لهم شرف رفع أول مجموعة من الأعلام فوق تراب سيناء لتنطلق من بعدها موجات متتالية من المشاه بروح معنوية عالية بعد أن شاهدوا من الضفة الغربية قبل دقائق من زحفهم رفاقهم أبناء الصاعقة يعبرون المانع الرهيب وينقضون على العدو داخل مواقعه الحصينة محطمين أسطورة الجيش الذى لايقهر .. وكانوا أول من يقهر الساتر الترابى العالى الذى أنشأه العدو على الضفة الشرقية ، مستخدمين الحبال ليصلوا الى أعلى جزء فيه ، بغرض تأمين قواتنا عن استخدام العدو لهذا الساتر ، واستولوا على المصاطب التى أعدها العدو لدباباته كمواقع تعمل منها .. ثم قاموا ببث الألغام فى هذه المصاطب ونصبوا كمائن لاقتناص الدبابات المعادية التى ستحاول الدخول اليها» .

وكان العدو يعتمد هذا الساتر الذى يرتفع بين ١٥ و ٢٠ مترا أى أشبه بعمارة ارتفاعها خمسة طوابق ـ كما يعتمد على أنابيب المواد المشتعلة فى عملية الرد الأولى ..

وكما فوجيء العدو بأن مواسير المواد المشتعلة قد قطعت وأغلقت عند الفجر «يقول ونستون تشرشل أن أحد المهندسين الإسرائيليين كان قد بدأ فى اصلاح أول ماسورة عندما فوجيء بجنود الصاعقة المصريين فوق رأسه» ، وقال مراسل آخر «إن أول مهندس وصل لاصلاحها وقع فى الأسره كذلك فوجى العدو بأن المصريين قد توصلوا الى حل آخر لهذا الساتر لم يخطر لهم على بال : فلابد من فتح ثغرات فى هذا الساتر الملاصق للمياه مباشرة لتركيب كبارى كافية لعبور القوات الرئيسية . ولم تكن المدفعية تؤثر فيه ، ولكن شباب سلاح المهندسين والأجهزة الفنية فى القوات المسلحة كانوا قد توصلوا خلال مرحلة الاعداد للحرب الى صيغة بسيطة : موتورات تدفع المياه بقوة ضخمة جدا على الساتر فيتفتت الجزء المطلوب شقه ويبدأ فى الانهيار «وان كان الاسرائيليون يعتقدون أن فى الأمر سرا آخر لم يعلن ، وربما كان مادة كيمائية معينة فى المياه المندفعة» .

وفى الوقت نفسه كانت هناك أعداد كبيرة من طائرات الهليوكوبتر المصرية قد أفرغت حمولاتها من رجال الصاعقة فى عمق سيناء .. يهاجمون خلف خطوط العدو وعلى أهداف محددة لهم .. وكانت وحدات من هذه القوات تزحف علي مياه البحر الأحمر والبحر الأبيض وتصل الى أهدافها على سواحل سيناء فى أماكن بعيدة وغير متوقعة .

وفى وهجة هذه النيران المشتعلة ، والقنابل المتفجرة فى كل مكان ، وعمليات الاقتحام التى تقوم به القوات الخاصة ، تتلوها قوات من المشاه تحمل مدفعيتها وصواريخها المضادة للدبابات ، كان لابد أن تتم عملية من أكثر العمليات حساسية فى المعركة كلها : وهى إقامة الكبارى الموصلة بين الضفتين حتى تعبر فوقها القوات الرئيسية وخصوصا الدبابات .. وكان لابد أن يتم هذا بسرعة كبيرة ، تسبق سرعة العدو فى تجميع قواته المدرعة وشن هجمات مضادة بها على قوات الصاعقة والمشاه التى عبرت بصدورها ، وكان عليها أن تعطل بصدورها وأسلحتها هذه الدروع حتى تعبر قواتنا المدرعة الأساسية .

ولعل حسابات العدو وكانت كما قالوا بعد ذلك على ألسنة بعض المحررين العسكريين ، أن تركيب الكوبرى خلال المعركة يستغرق في المعدل بين ١٥ و ١٧ ساعة ، ولكن المهندسين الذين كانوا في كل مكان أمكنهم تركيب بعضها في خمس ساعات .

وعبرت أول قوات رئيسية وقوات مدرعة لتكون في وضع الاستعداد لهجمات العدو المضادة التى لامفر منها ..

ونفس التحرك الذي شمل القوات البرية والجوية كان قد شمل بدوره القوات البحرية .

يقول الفريق فؤاد ذكرى قائد القوات البحرية « .. قبل بدء العمليات بفترة كان لابد أن تحتل الوحدات البحرية أماكن معينة في البحر، دون أن تؤدى تحركاتها الى كشف نوايانا ، ولذلك كانت خطتنا الاعلان عن تنفيذ المناورة السنوية للقوات البحرية مع مناورات للقوات المسلحة لاختبار فعلى لنتائج تدريبنا السنوى .

«وتتمركز وحداتنا في بورسعيد والاسكندرية ومرسى مطروح في البحر الأبيض ، وفى الغردقة وسفاجة بالبحر الأحمر ، وبمقارنة القوات يتضح تفوق قواتنا فى المدمرات والغواصات

وبحدات بث وكسح الألغام .. ويتفوق العدو فى لنشات الصواريخ وقواته الجوية وطائرات الهليكوبتر .

ويتميز مسرح العمليات البحرية بطول سواحلنا وقدرها ١٦٠٠ كيلو متر ، بينما تبلغ سواحل العدو فى البحر الأبيض بما فيها الأراضى المحتلة «غزة وسيناء» ٤٠٠ كيلو متر ، ونتيجة لوضع اسرائيل السياسى والجغرافى تعتبر خطوط مواصلات البحرية لها بمثابة الشريان الرئيسى لاستمرار اقتصادها وامدادها بالمواد العسكرية والاقتصادية .

وكانت خطتنا أساسا مبنية على التعامل مع العدو على جبهة عريضة فى البحرين الأبيض والأحمر مع استخدام أقصى جهد للوحدات البحرية خلال الأيام الأولى للعمليات ، باستغلال عامل المفاجأة الى أقصى حد ، وتشتيت جهود العدو وارباك قياداته .

وفى اليوم الأول للعمليات ، اشتركت القوات البحرية بجميع تشكيلاتها من مدمرات وغواصات ومدفعية ساحلية ولنشات طوربيد ولنشات صواريخ وقوات الصاعقة البحرية وقوات الضفادع البشرية. فقامت لنشات الصواريخ والمدفعية بتوجيه ضرباتها بالصواريخ الى مناطق شرق بورفؤاد ورمانه ورأس برم،

كما قامت المدفعية الساحلية بمعاونة قوات وقطاع بورسعيد بالنيران .

«أما فى البحر الأحمر فقد تم قصف شرم الشيخ بجميع أنواع الصواريخ ، وفى خليج السويس قامت الصاعقة البحرية بمهاجمة منطقة أبو دربة على الساحل الشرقى لخليج السويس، وهاجمت مجموعات الضفادع البشرية منطقة البترول في بلاعيم ، ودمرت حفارا ضخما ، كما قصفت منطقة رأس سدر بالصواريخ. واشتركت بالمدفعية الساحلية أثناء التمهيد بالنيران لعبور قوات الجيش الثالث .

«وقد اشترك فى مهمات اليوم الأول حوالى ٥٠ وحدة بحرية بخلاف وحدات تأمين القواعد» .

وفى الساعة الثانية بعد ظهر نفس اليوم فى نفس اليوم «ى» والساعة «س» كانت المدفعية السورية فى الجبهة الشمالية تطلق نيرانها بغزارة على طول خط المواجهة ، وألوية المدرعات تتخذ طريقها فى خطط الهجوم المرسومة لها على الخطوط الإسرائيلية.. قال وينستون تشرشل من الجانب الإسرائيلى «اختار السوريون قطاعا طوله ٢٥ ميلا وشنوا هجوما بطوله مستخدمين حوالى

١٢٠٠ دبابة أكثر من ضعف العدد الذي استخدمه روميل في حرب العلمين، وبدبابات أقوى بكثير ، وكان يصحب الدبابات في زحفها قوات من المشاة مسلحة بالصاروخ السوفييتي المضاد للدبابات المسمى في الغرب باسم «ساحر» وهي صواريخ تسمح للمشاة بالتصويب على أى دبابة معادية بدقة بالغة وهي على بعد ميل كامل منها . وكان لابد أن تقتحم هذه القوة المواقع الإسرائيلية .

وقد قاتل الإسرائيليون على الجبهتين قتالا مريرا ، واختصروا مدة حشد الاحتياطي الأول من ٢٤ ساعة الى ٦ ساعات ، ولكن سلاح طيرانهم كان أهم سلاح لجئوا اليه في اللحظات الأولى ، اذ خرجت كل قواتهم الجوية في طلعات متتالية لاتنقطع ، تضرب القوات المهاجمة على الجبهتين ، ومتحملة خسائر لم يسبق لها مثيل في نسبتها الى عدد الطيران الإسرائيلي كله ، مستميتة في منع العبور في قناة السويس والاختراق في سوريا .

وقبل أن تنقضي الليلة الأولى من بدء القتال وقبل أن يشرق فجر اليوم التالي ، أي بعد حوالي ١٢ ساعة من بدء القتال ، كانت قد صدرت عن قواتنا في الجبهتين البلاغات التالية :

الجبهة المصرية :

ـ البلاغ الأول «الساعة الثانية والربع بعد الظهر» قام العدو في الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا في منطقتي الزعفرانة والسخنة في خليج السويس بواسطة عدة تشكيلات من قواته الجوية عندما كانت بعض زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربي من الخليج وتقوم قواتنا حاليا بالتصدي للقوات المغيرة .

ـ البلاغ الثاني «الساعة الثانية وخمسة وثلاثون دقيقة» ردا على العدوان الغادر الذي قام به العدو ضد قواتنا في كل من مصر وسوريا تقوم حاليا بعض من تشكيلات الجوية ـ بقصف قواعد العدو وأهدافه العسكرية في الأراضي المحتلة .

ـ البلاغ الثالث «الساعة الثالثة بعد الظهر » الحاقا للبيان رقم ٢ نفذت قواتنا الجوية مهامها بنجاح وأصابت مواقع العدو باصابات مباشرة وعادت جميع طائراتنا الى قواعدها سالمة عدا طائرة واحدة .

ـ البلاغ الرابع «الساعة الثالثة وعشرون دقيق» حاولت قوات معادية الاستيلاء على جزء من أراضينا غرب القناة . وقد تصدت

لها قواتنا البرية وقامت بهجوم مضاد ناجح ضدها بعد قصفات مركزة من مدفعيتنا على النقط القوية المعادية ثم قامت بعض من قواتنا باقتحام قناة السويس مطاردة للعدو إلى الضفة الشرقية فى بعض مناطقها ولازال الاشتباك مستمرا على الضفة الشرقية لقناة السويس.

● البلاغ الخامس (الساعة الرابعة و٦ دقائق) نجحت قواتنا فى اقتحام قناة السويس فى قطاعات عديدة واستولت على نقط العدو القوية بها، ورفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة كما قامت القوات المسلحة السورية باقتحام مواقع العدو فى مواجهتها وحققت نجاحا مماثلا فى قطاعات مختلفة.

● البلاغ السادس (الساعة الخامسة مساء) نتيجة لنجاح قواتنا فى عبور قناة السويس قام العدو بدفع قواته الجوية بأعداد كبيرة فتصدت لها بمقاتلاتنا واشتبكت معه فى معارك عنيفة وقد أسفرت المعارك عن تدمير إحدى عشرة طائرة فى هذه المعارك.

● البلاغ رقم (٧) (الساعة السابعة وخمسة وثلاثون دقيقة):

نجحت قواتنا المسلحة فى عبور قناة السويس على طول

الجبهة وتم الاستيلاء على معظم الشاطيء الشرقي للقناة. وتواصل قواتنا حاليا قتالها مع العدو بنجاح كما قامت قواتنا البحرية بحماية الجانب الأيسر لقواتنا على شاطيء البحر الأبيض المتوسط. وقد قامت بضرب الأهداف الهامة للعدو على الساحل الشمالي لسيناء وإصابتها اصابات مباشرة.

● البلاغ رقم (٨) (الساعة ١٢ و٤٣ دقيقة بعد منتصف الليل):

قام العدو بعد آخر ضوء اليوم بهجمات مضادة بالدبابات والمشاة الميكانيكية ضد قواتنا التي عبرت قناة السويس ومن اتجاهات مختلفة وقد تمكنت قواتنا من صد جميع الهجمات وتدمير العدو وتكبيده خسائر كبيرة في الأفراد والمعدات، ولازالت قواتنا تقاتل بنجاح من مواقعها على الضفة الشرقية للقناة.

● البلاغ رقم (٩) (الساعة السابعة وثلاثون دقيقة صباحا):

قام بتلخيص أحداث اليوم السابق وأضاف أنه في ليلة ٧/٦ استمر قتال قواتنا مع العدو ودارت معارك عنيفة قام العدو بهجمات مضادة محاولا استعادة الموقف ولكنه فشل وتمكنت قواتنا من صد هجمات العدو مع تكبيده خسائر فادحة في المعدات والأفراد وقامت قواتنا البحرية بتدمير خمس قطع بحرية

للعدو فى البحر الأبيض المتوسط وقامت بقصف بعض المناطق المعادية بالشاطىء الشرقى لخليج السويس ونتيجة لهذه المعارك وصلت نتائج القتال منذ بدئه الآتى: خسائر العدو - إسقاط ٢٧ طائرة للعدو وتدمير ٦٠ دبابة - تدمير ١٥ موقعا معينا شرق القناة وعدد من الأسرى يجرى حصره. علاوة على تكبيده خسائر جسيمة فى الأرواح بينما كانت خسائر قواتنا ١٥ طائرة مقاتلة وبعض طائرات الهيلوكوبتر كما تكبدت قواتنا بعض الخسائر فى الأفراد. ومازالت قواتنا تتدفق عبر القناة وتواصل تقدمها شرقا والاشتباكات الأرضية والجوية مستمرة.

● البلاغ رقم (١٠) (الساعة التاسعة صباحا):

لازالت قواتنا السلحة مستمرة فى تدفقها وقتالها فى سيناء مكبدة العدو خسائر كبيرة. وقد قامت القوات الجوية للعدو صباح اليوم بقصف جوى بتشكيلات كبيرة على بعض المطارات واشتبكت معها مقاتلاتنا ووسائل دفاعنا الجوى. وتم تدمير وإسقاط خمس طائرات للعدو ولم تحقق غارات العدو الجوية أهدافها.

● البلاغ رقم (١١) (الساعة الثانية عشرة و٣٥ دقيقة) :

نتيجة لنجاح قواتنا فى عملياتها فى سيناء قام العدو فى الساعة ١١ قبل ظهر اليوم بتركيز قواته المدرعة تعاونها قواته

الجوية للقيام بالهجمات المضادة ضد قواتنا فى القطاع الشمالى والجنوبى من الجبهة وقد قامت قواتنا البرية بمعاونة قواتنا المقاتلة وبتركيز من مدفعيتنا وتمت ستر دفاعنا الجوى لصد هجمات العدو المضادة تماما وتكبيده خسائر فادحة فى قواته المدرعة وفى الأفراد،. كما تم أسر عدد منهم وبدأت قواته تنسحب شرقا.

● البلاغ رقم (١٢) (الساعة الثانية و٤٠ دقيقة بعد الظهر) قامت تشكيلاتنا الجوية ظهر اليوم بتوجيه ضربة جوية ضد مواقع الأفراد فى القطاع الأوسط والشمالى من سيناء شملت بعض مواقع العدو الإدارية وبطاريات مدفعيته ووسائل دفاعه الجوى وأحدثت بها خسائر كبيرة فى الأفراد والمعدات. وعادت جميع طائراتنا الى قواعدها سالمة عدا طائرة واحدة. وعلى الساحل الشمالى لسيناء قامت قواتنا البحرية بتنفيذ مهامها بنجاح فى قصف مواقع العدو الساحلية كما تمكنت من اسقاط طائرة هليكوبتر للعدو حاولت التدخل فى المعركة ومازالت قواتنا البرية تقوم بتصفية جيوب المقاومة المعادية بنجاح وتم أسر عدد آخر من أفراد العدو كما تم احداث العديد من الخسائر فى افراده ومعداته. وقد حاول تشكيل جوى معاد التدخل ضد

قواتنا البرية أثناء تنفيذ مهامها فى القطاع الشمالى فتصدت له وسائل دفاعنا الجوى وأسقطت له طائرتين.

كانت هذه البيانات التى صدرت خلال الاثنتى عشرة ساعة الأولى من القتال (وقد وصل عددها مع وقف اطلاق النار الى ٥٢ بيانا).

أما عن الجانب السورى فقد صدرت البيانات التالية فى نفس الفترة الزمنية:

● البلاغ الأول (الساعة الثانية و٢٥ دقيقة):

فى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم بدأت قوات العدو بالاعتداء على القوات السورية الأمامية على طول خط وقف اطلاق النار وتقوم قواتنا بالرد على مصادر النيران واسكاتها.

كذلك حاولت مجموعات من طائرات العدو خرق مجالنا الجوى فى القطاع الشمالى من الجبهة فتصدت له مقاتلاتنا وتدور الآن معركة جوية بين طائراتنا وطائرات العدو ولاتزال الاشتباكات مستمرة حتى الآن.

● البلاغ الثانى (الساعة الرابعة والثلث):

نجحت قواتنا فى ايقاف هجوم العدو على مواقعنا وانتقلت الى الهجوم المعاكس وقد حررت قواتنا بعض المواقع ومنها جبل الشيخ ويدور القتال الآن غربى خط وقف اطلاق النار.

● البلاغ الثالث (الساعة التاسعة والربع):

نجحت قواتنا فى اقتحام نقاط الدفاع - المعادية والتحصينات الأمامية والحواجز الهندسية للعدو واحتلت عدة مراكز من دفاعاته، فى هضبة الجولان المحتلة، وتتابع تشكيلاتنا تقدمها حتى الآن كما اسقطت وسائل دفاعنا الجوى ثلاث طائرات معادية.

● البلاغ الرابع (الساعة الحادية عشرة والربع):

تمكنت قواتنا بعد معارك ضارية بالدبابات ومختلف أنواع الأسلحة من تكبيد العدو فيها خسائر فادحة وتحرير عدد من المواقع والقرى فى هضبة الجولان المحتلة. كما أسرت قواتنا عددا من جنود العدو.

● البلاغ الخامس (الساعة السادسة وعشر دقائق):

اعتبارا من الساعة الخامسة والربع من صباح اليوم (الاثنين) استأنف الطيران المعادى نشاطه فوق منطقة الجولان. فتصدت له مقاتلاتنا ووسائل دفاعنا الجوى واسقطت له عشر طائرات وعادت طائراتنا سالمة.

● البلاغ السادس (الساعة الثامنة واربعون دقيقة):

جرت فى الساعة السابعة والنصف من صباح هذا اليوم معركة جوية بين مقاتلاتنا ووسائل دفاعنا الجوى وبين طائرات

العدو، أسفرت عن اسقاط اربع طائرات معادية وعادت طائراتنا سالمة وبهذا تكون طائراتنا قد اسقطت اربع عشرة طائرة هذا اليوم.

● البلاغ السابع (الساعة العاشرة و٢٥ دقيقة):

مازالت الاشتباكات الجوية مستمرة بين مقاتلاتنا ووسائل دفاعنا الجوى وبين طائرات العدو. وقد تمكنا من اسقاط طائرتين معاديتين فى معركة جرت فى الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والاربعين من صباح اليوم.

● البلاغ الثامن (الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة):

فى الساعة ١١,٤٠ من صباح اليوم قامت تشكيلات من طائرات العدو بمحاولة قصف معسكراتنا فى قطنة ودرعا ومراكز دفاعنا الجوى فتصدت لها وسائل دفاعنا الجوى واسقطت منها ثمانى عشرة طائرة سقطت معظمها فى أراضينا.

● البلاغ التاسع (الساعة الثانية والربع):

فى تمام الساعة الواحدة والثلث حاول طيران العدو الاغارة على قواتنا المتقدمة بهدف تثبيط مسيرة تقدمها فتصدت له تشكيلاتنا الجوية واسقطت طائرة معادية فوق خسنين فى منطقة الجولان.

وصف الفريق أول أحمد إسماعيل شعوره ساعة العبور مع لمحة من المشهد العام [1] فقال:

«كنا جميعا فى مقاعدنا.. وكانت الخطة أمامنا والعمليات تجرى أمام عيوننا، تحملها إلينا البلاغات من الجبهة: المهمة كذا بدأ تنفيذها، المهمة «كذا» تم تنفيذها.

«من الساعة الثانية بعد الظهر كان المشهد فى غرفة العمليات مثيرا إلى أبعد حد: كان العمل دقيقا بأكثر مما يتصور أحد. اثبتت الخطة كفاءتها وكانت المهام تنفذ بجسارة واقتدار، وكانت هناك لحظات تهز المشاعر إلى الأعماق. ولكننا لم نسمح لأنفسنا بأى انفعال.

«ضربة الطيران الرئيسية الأولى – تمهيد المدفعية ونيرانها الكثيفة – موجات العبور الأولى – عمليات الاقتحام المبكرة لخط بارليف – بداية اقامة الجسور – الجيش الثانى يفرغ من اقامة جسوره فى الموعد المحدد – الجيش الثالث يتأخر بعض الشىء بسبب طبيعة الأرض فى اتمام اقامة جسوره. الهجمات المضادة للعدو بالدبابات تجىء فى الموعد الذى توقعناه فى الخطة – جسور الجيش الثالث لابد من تركيبها بسرعة لكى تعبر الدبابات قبل أن تبدأ الهجمات المضادة للعدو أمام الموجات

---

(١) الحديث السابق

الأولى التي عبرت بالأسلحة المضادة للدبابات لابد أن تجيء دباباتها وراءها بسرعة.. أعصابنا يجب أن تظل قوية لان أى ارتباك فى مركز القيادة.. يحدث خللا في توازن العمليات كلها - العدو يقاوم على الجسور وامام الحصون - قواتنا تواصل تنفيذ مهماتها - أبطال من رجالنا يستشهدون على الجسور وأمام الحصون ولكنهم يعبرون ويقتحمون - خسائرنا أقل مما توقعنا - خسائر العدو أكبر مما توقع. لم يعد هناك شك فى أننا حققنا انتصارا كبيرا».

●

كم تنطوى وراء هذه الصورة الموجزة المؤثرة من تفاصيل!

وكم كانت البلاغات العسكرية - بكلماتها الرزينة الموجزة - تخفى وراءها من ملاحم!

وقبل كل شيء وبعد كل شيء كان هناك بعد الخطة وبعد السلاح ذلك العنصر الحاسم آخر الأمر: العنصر البشرى.

عنصر الرجال:

رجالنا..

الضباط والجنود الذين كانت هذه السطور بالنسبة لنا، هولا وجحيما ، وبالنسبة لهم مخاطرة بالموت مئات المرات بالنسبة للواحد منهم فى كل دقيقة بل كل ثانية.

ذلك ان تنفيذ الخطة الموضوعة، بكل تفاصيلها المعقدة فى الوقت المحسوب لها كان جوهريا لنجاح العملية كلها: كان الوقت حقا من ذهب. أو مما هو أغلى من الذهب، وهو الدم.

ولم يتردد القادة والضباط والجنود فى الميدان فى دفع هذا الثمن بسخاء، من أجل انجاح الخطة.

ولاشك ان التنسيق بين شتى عناصر عملية العبور بمهماتها الشديدة التنوع كان أمرا بالغ التعقيد.

فى وقت واحد كانت ملحمة انسانية عسكرية كبرى تعزف سيمفونيتها..

الطيارون فى طائراتهم يقذفون مواقع العدو الخلفية ومراكز القيادة والتحكم وانطلاق الطائرات.. ورجال الصاعقة يتسللون عبر القناة والبحار والاجواء الى نقط فى عمق سيناء للقيام بعمليات شتى من المراقبة الى التدمير إلى ارشاد المدفعية الرابضة على الضفة الغربية ، رجال المدفعية وراء آلاف المدافع يضربون أهدافا شتى محددة لهم: منها النيران التى تغطى تحرك الجنود عبر القناة. والنيران التى تنصب على تحصينات العدو مباشرة، والنيرات التى تذهب الى عمق أبعد لتعطيل تحركاته ونجداته.. والمهندسون بايديهم وأجسادهم ينفذون عملية سد مواسير المواد الملتهبة بالاسمنت التى تنبع من

مستودعات يسع كل منها ٢٠٠ طن من المواد الملتهبة مستعدة للاندفاع بالنار فوق سطح القناة، وقوات صاعقة أخرى تستعد لاحتمال عدم نجاح هذه العملية بالاستيلاء على المستودعات ذاتها.. والماكينات التى تمتص الماء وتدفعه بقوة هائلة على الساتر الترابى تفتح شقوقا فى هذا الساتر.. وفى الوقت الذى بدأ فيه الرجال الذين مهمتهم اقامة الكبارى يخرجون معداتهم تحت هذا الجحيم ليصلوا مابين الضفتين.. ثم قوات المشاة التى كان عليها أن تتواجد بأسرع وقت على الضفة الشرقية لتقتحم الحصون الأولى ذاتها وتستولى على المصاطب المرتفعة قبل أن يتحكم فيها العدو، ثم لتصد هجماته التى سوف يشنها بالطائرات وأسلحة مدرعاته الشديدة عليها.

كان على هذه القوات أن تعبر وتستبسل بل وتستشهد بالتحديد، حماية لمناطق العبور ورءوس الجسور.

كان مطلوبا منها فى الخطة أن تصمد مايقرب من ٢٤ ساعة، هى المدة التى قدرت تقريبا لعبور القوات المدرعة.

ولهذا عبرت القوات القناة مجهزة تجهيزا خاصا.

فقد درست أقصى حمولة يمكن أن يحملها الجندى معه عابرا القناة، وصاعدا على قدميه الساتر الترابى، ثم صامدا ومقاتلا.

وكان التقدير يدور بين ٢٥ و٣٥ كيلوجراما يجب أن تتسع لما يحتاجه من طعام وماء ودواء وسلاح وذخيرة. واختصرت مواد الغذاء الى اقصى حد لحساب مواد القتال، صنعت لهذه العملية خصيصا «عربات نقل خفيفة يجرها الجنود باليد عند صعودهم الساتر الترابي، تتسع لحمل الذخيرة التي سيحتاجون اليها. ثم تسليحهم في الدرجة الأولى الى جانب اسلحة المشاة التقليدية بالصواريخ الخفيفة التي تستخدم ضد الدبابات أو ضد الطائرات.. فسيكون عليهم أن يواجهوا بأجسادهم هول الطائرات والمدرعات خلال هذه الفترة.

وكان العدو يقاتل قتالا عنيفا..

فاذا كانت بعض مواقعه قد أخذت على غرة، إلا انهم لم يلبثوا ان قاوموا من هذه المواقع الحصينة بكل الأسلحة المتاحة لهم، والذخائر المخزونة لديهم في كل موقع.. وبدأت قبل الغروب هجمات مضادة متفرقة على طول الجبهة معززة بقصف جوى كثيف من طائراتهم.. وعندما وصل جنودنا الى جدران الحصون ذاتها ثم إلى قلبها، دار القتال الرهيب رجلا لرجل وسلاحا لسلاح. تحت سماء تتفجر بالبروق والرعود والموت والدمار.. اما نيران مدفعيتهم ودباباتهم فكانت تركز كذلك على كل مابدا لهم انه نقط العبور في محاولة لتدمير «المعابر» المؤقتة

السريعة فى محاولة لمنعها من أن تستقر وتصبح جسورا وتتدفق من فوقها القوات.

وكانت أول نقطة حصينة من خط بارليف تسقط فى يد الجيش الثانى هى النقطة التى تقع عند الكيلومتر ١٩ جنوب بورسعيد بعد ساعة و٢٣ دقيقة. وكانت أول نقطة حصينة تسقط فى يد الجيش الثالث عند الكيلو متر ١٢٤ جنوبا بعد الأولى بسبع دقائق.

ثم توالى سقوط حصون خط بارليف.

وكان ما يسقط منها بعد ذلك أشد صعوبة. بقدر تنبه العدو واسترداده لتوازنه وحشد لقواته.. فالنقطة رقم (٢) جنوب الفردان فى قطاع الجيش الثانى مثلا دام القتال فيها ٤٨ ساعة متواصلة قبل سقوطها.. والنقطة الحصينة عند البلاح استولت عليها قواتنا ثم استردها العدو فى هجوم مضاد، ثم عادت قواتنا فهاجمتها واستردتها من جديد. كل هذا فى ليلة واحدة هى ليلة ٧ أكتوبر. . وأمام الجيش الثالث وحده كان هناك أحد عشر حصنا عليه اقتحامها والاستيلاء عليها وقد ظهر ان الأرض امامه ذات طبيعة «طفلية» كما ظهر أن الساتر الترابى فى بعض الأجزاء يصل سمكه الى مائتى متر.. الأمر الذى أخر عمل سلاح المهندسين فى فتح الثغرات المطلوبة طبقا للخطة..

وبالتالى دخول الدبابات الى سيناء، والمزيد من بطولات الضباط والجنود من قوات المشاه الذين كانوا يقاتلون على الضفة الشرقية حتى يتم تأمين العبور.

●

قال أحد الضباط الذين قادوا عملية العبور فى ساعاتها الأولى.

«الدفعات الأولى التى عبرت القناة كانت تحمل الاعلام وعندما عبرت القناة كان أول ما فعلته ان غرست اعلامها فوق التلال وتابعت الزحف لتصل الى نقطة جديدة وتنصب فوقها اعلاما جديدة.. رغم ما فى ذلك فى خطورة بالغة. ولكنك لاتستطيع أن تصف هؤلاء المقاتلين الاشداء. كنت أنظر اليهم فأشعر بأن تيارا كهربائيا قد مسهم. كانوا قد قرروا ان يعطوا حياتهم من أجل الوصول إلى سيناء».

فى اليوم التالى كان قد تم اقامة كل الجسور المطلوب اقامتها وعبرت القناة قوات تضم جيشين كاملين.

انتصفت شمس الظهيرة يوم ٧ أكتوبر على هذه الحقيقة التى لم تكن قد تخطر علي بال العدو ولا على بال اى مراقب عسكرى اجنبى.

وكان الاسرائيليون قد بدأوا يشنون هجماتهم المضادة مع اخر خيط من الضوء يوم ٦ أكتوبر.

ولكن مع نجاح القوات المصرية فى العبور بكامل اسلحتها على الجبهة المصرية، ومع اجتياح القوات السورية لخطوط دفاع العدو فى الجبهة الشمالية، تحول اليومان التاليان الى هجمات مضادة اسرائيلية بقوات مدرعة كبيرة فى الجبهتين وقتال عنيف من المصريين والسوريين لتدعيم مواقعهم ورد الهجمات المضادة.. وبدأت معارك الدبابات فى الاتساع.

واتخذ رد الفعل الاسرائيلى ضد سوريا طابعا انتقاما وعلى الأغلب فى محاولة لتصفية سوريا بسرعة والتركيز على مصر، اذ لم يقتصر الطيران الاسرائيلى على الضرب فى الجبهة.. ولكنه إزاء الخسائر الفادحة التى لحقت به من بطاريات صواريخ سام ٦ وسام ٧. عمد إلى الانتقام بضرب الأهداف المدنية والاقتصادية. فأخذ يضرب قلب مدن دمشق وحمص وطرطوس واللاذقية.. ولكن الروح المعنوية العالية، التى لامثيل لها والتى واجه بها الشعب السورى هذا القصف والتدمير فى قلب مدنه وفى أرواح ابنائه كان لايقل شهادة للأمة العربية على بسالتها عن الشهادة التى كان يقدمها مقاتلوها فى جبهات القتال.

في حين اتخذ رد الفعل الاسرائيلى فى مصر محاولة تدمير رؤوس الكبارى على قناة السويس ومنع تدفق القوات فراح يشن الهجمات المضادة بالألوية المدرعة المعززة بالمدفعية والطائرات بغير انقطاع.

ويوم الثلاثاء أعلن بيان عسكرى مصرى فيما أعلن تدمير لواء اسرائيلى مدرع - اللواء رقم ١٩٠ - بأكمله وأسر قائده الجنرال عساف ياجورى.

ويوم السبت بعد أسبوع من بدء القتال أعلنت اسرائيل مصرع الجنرال مندلر قائد كل قواتها المدرعة.

وصف اللواء حسن أبوسعدة قائد الفرقة المصرية التى دمرت اللواء الاسرائيلى ١٩٠ المعركة كنموذج لقتالنا ضد هجمات العدو المضادة فقال [١] :

فى اليوم الثاني من الحرب شاءت إسرائيل أن تلعب على المستوى الاستراتيجي. كان قادتها يحاولون الوصول إلى أعماقنا بأى شكل وكانوا يظنون انهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك كما فعلوا عام ١٩٦٧.

وقد بدأوا محاولتهم الأولى بارسال اللواء المدرع ١٩٠ من «بئر شوباه على طريق العريش فى اتجاه الفردان. ثم أخذوا

(١) حديث عزت صافى ، جريدة الأنوار .

يدفعون مجموعات صغيرة من الدبابات الى الجناح الايسر لجس النبض. كانوا يتصورننا نظريين. وأخذنا نحن نصد هذه الدبابات على انها الهجوم الرئيسي للعدو.

بعد ذلك ارسلوا قوات صغيرة أخرى لدعم المجموعات المتقدمة.

ومرة أخرى ارسل العدو مجموعة ثانية باتجاه آخر. فأظهرنا له خطة متجاوبة مع هدفه بمعنى اننا تصرفنا وكأننا نلبى خطته.

وبعد ذلك دفع بمجموعة جديدة الى خلف قواتنا فى مكان جديد. ثم جاءت معلومات بأن قوات العدو تتجمع على بعد ٦ كيلومترات الى الشمال الشرقى من هذه المنطقة. وكنت تصورت اين سيكون الهجوم المضاد وكان فى منطقة الوسط وكنت مستعدا وبدأنا ننصب فخا للعدو.

وبعد عشر دقائق بدأ العدو هجومه بسرعة ٤٠ كيلو مترا، فأمرت الخط الأول بالنزول فى المخابىء وقلت لجنودى: اتركوا اللواء ١٩٠ يمر حتى نأخذه بالأحضان!

وعندما بدأت الدبابات الاسرائيلية تمر على حفر المشاة المموهة عندنا أخذ هؤلاء يقفزون من الحفر المموهة كالشياطين

ويدكون دبابات اللواء ١٩٠ فيما كانت دباباتنا وكل وسائلنا المضادة للمدرعات تطبق على العدو.

وكان قائد اللواء الاسرائيلى عساف ياجورى بعيدا عن قواته بثلاثة كيلو مترات. وطبعا لم تكن هذه المفاجأة تخطر له. وقد حاول أن يقفز بدبابته ولكن أحد ضباطنا الممتازين اسرع بدبابته خلف دبابة ياجورى وضربها فأصابها، فقفز ياجورى منها ومعه جنديان، وأسرعت مركبة قيادة اسرائيلية لتلتقطه، الا أن مجموعة من جنودى على رأسها ضابط كانت له بالمرصاد.. وبصاروخ واحد صغير ضربت مركبة القيادة الاسرائيلية فقفز منها عساف ياجورى ومعه أربعة جنود.

وامرتهم مجموعتنا بالاستسلام، فرفع ياجورى يديه مستسلما، وأمر جنوده بالاستسلام أيضا، إلا أن أحدهم حاول اطلاق رشاشه «العوزى» فالتحمت معهم مجموعتنا بالسلاح الأبيض واستعملت مجرفة الرمل فى هذه المعركة فقتل ثلاثة جنود اسرائيليين واستسلم الرابع وهو بحالة سيئة ووقع عساف ياجورى فى الأسر.

وقد طلب مقابلتى فوافقت.

«وجيىء به إلىّ. كان خائفا على مصيره وسألنى عن مصيره فقلت له: انك ضابط كبير والحرب قد انتهت بالنسبة اليك. فأنت

الآن أسير حرب وسوف تعامل حسب اتفاقية جنيف الخاصة بأسرى الحرب».

وفى ظل هذا القتال المتلاحم من الجانبين كانت القوات المصرية قد استولت تماما على خط بارليف بكل مواقعه وتحصيناته وشبكاته الدفاعية وطهرت شاطىء القناة الشرقى من كل وجود اسرائيلى عليها. وكان آخر ما أعلن سقوطه عاصمة سيناء مدينة القنطرة شرق. أعلن ذلك البلاغ العسكرى رقم ١٦ يوم الاثنين ٨ أكتوبر فى الساعة التاسعة والنصف مساء قائلا: «عاد العلم المصرى الى مكانه عزيز فوق المدينة الثانية فى سيناء كلها وهى القنطرة شرق وذلك بعد أن تم تحريرها بواسطة قواتنا المسلحة وكانت أهمية عملية تحريرها راجعة الى أن القوات المصرية كانت تراعى اعتبارين فى نفس الوقت. وهما: تدمير قوات العدو فيها والمحافظة على ارواح المواطنين المصريين الذين بقوا فيها يعانون ظروف الاحتلال. ولتحقيق هذا الغرض تم حصار المدينة داخليا وخارجيا. ثم جرى اقتحام مشارفها ودار قتال مع جنود العدو فى الشوارع والمبانى حتى انهارت قوات العدو واستسلمت. وقد استولت القوات المصرية على كميات كبيرة من سلاح العدو وعتاده بينها عدد من دبابات سنتوريون واكس ايه ام رأسه ثلاثين فردا للعدو

هم كل من بقى حيا منهم فى المدينة. وكانت فرحة المواطنين المصريين داخل المدينة بعد تمام تحريرها فرحة كبرى حيث اندفعوا الى الحفاوة باخوانهم المقاتلين المصريين من أجل شرف الوطن وعزته. وتعبر القيادة العامة للقوات المسلحة عن اعتزازها باشتراك هؤلاء المواطنين عمليا فى مساعدة قواتهم المسلحة. وكان جهدهم معها وعونهم لها رمزا للتلاحم بين قوى الشعب وقوات جيش الشعب.

● ● ●

كانت فى صفوف القوات المصرية قوات كويتية وفلسطينية.. وأسرعت قوات جزائرية الى الجبهة المصرية بأقصى سرعة..

وكانت فى صفوف القوات السورية قوة مغربية. وعندما سمعت بغداد أنباء اشتعال القتال وأنها الحرب حقا بادرت فارسلت خيرة قواتها المدرعة التى أسرعت عبر طريق الصحرا الطويلة المكشوفة لطيران العدو الى اتخاذ مواقعها فى الجناح الأيسر للقوات السورية. ودخلت لحظة وصولها رغم اجهادها المعركة فورا فى مرحلة من مراحل القتال الحاسم على الجبهة السورية. كما قاتلت طائرات عراقية من الجبهتين المصرية والسورية فى نفس الوقت.

وأعلنت سائر الدول العربية عن دعمها المالى والاقتصادى للقوات التي تقاتل عن الأمة العربية كلها على الجبهة.

●●●

كان طبيعيا أن يكون للمقاومة الفلسطينية التي لم تتوقف بنادقها قط، دور فى هذا القتال الضخم.

كان للمقاومة الفلسطينية مكانها فى القتال على الجبهة السورية وكان لها نصيبها من العمليات الفدائية طوال أيام المعركة.

ومن أمثلة البلاغات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية.

● قصف الثوار الفلسطينيون أجهزة رادار العدو العسكرية على قمة جبل الجرمق بالجليل الغربي بالصواريخ وأصابوها مباشرة.

● قام ثوارنا فى الأراضى المحتلة بايقاع قافلة امداد وتموين مؤلفة من ثلاث سيارات نقل عسكرية في الطريق العام بين بئر سبع وعصلوج حيث كانت هذه القافلة متجهة الى منطقة القتال فى سيناء. دمرت الثلاث سيارات وقتل جميع من فيها.

● قام ثوارنا بنسف قطار محمل بالذخيرة بالقرب من مدينة خان يونس في قطاع غزة، ونتج عن ذلك تدمير عدة

● قامت مجموعة من الفدائيين بضرب مؤخرة العدو فى الجولان وأوقعت فى العدو خسائر فادحة.. واستشهد فى هذه العملية ثمانية من رفاقنا.

●●●

منذ البداية اعترفت اسرائيل بنجاح المفاجأة الاستراتيجية والمفاجأة التكتيكية ضدها.

واعترفت بأن هذه حرب من نوع آخر غير ما واجهته من قبل، وان خسائرها فادحة غير خسائر الحروب السابقة (قال ابا ايبان بعد ذلك فى خطابه فى مؤتمر جنيف ان خسائر حرب ٧٣ بالنسبة لاسرائيل تساوى كل خسائر اسرائيل منذ ١٩٤٨ فى الحروب وفى كل عمليات العنف الأخرى).

ولكن الغرور لم يبرح اسرائيل وقادتها بسهولة.

فى اليوم الأول قال الجنرال دافيد العازار، قائد عملية اختراق الجولان سنة ١٩٦٧، ورئيس الأركان: اننا سندق لحمهم وعظامهم.

وقالت البيانات العسكرية - متسرعة - انها دمرت كل رءوس الكبارى المصرية.. ثم تراجعت الى زعم تدمير «معظمها».. قبل أن يعرف العالم انه لم يدمر كوبرى واحد.

ثم لم تلبث لهجة البيانات والتصريحات الاسرائيلية ان تراجعت خطوة إلى الوراء.

قال الجنرال العازار نفسه بعد يومين «نحن الآن في وسط معركة، ومستمرون في الهجوم المضاد حتى ندمر كل القوات المهاجمة».

قال موشى ديان في الاذاعة الاسرائيلية في تحديد شامل لتصوره للمعركة: «سوف ينتهى القتال في ستة أيام! فيومان يكفيان لاستكمال التعبئة الشاملة ويومان لايقاف الهجوم علينا ويومان لتدمير قوات العدو على الجبهتين».

ولكن ما كان يجرى وراء هذا الستار من الثقة كان أمرا آخر بدأ العالم يلمحه لأول مرة يوم الأربعاء ١٠ اكتوبر (اليوم الخامس للقتال) حين اضطرت اسرائيل الى أن تعلن على العالم عن تغيير قياداتها العسكرية في صيغة مبطنة هي: استدعاء ستة جنرالات سابقين للخدمة تحت ستار «القيام بمهمات خاصة» وهم:

- الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان السابق مباشرة على العازار لمدة أربع سنوات وخبير اسرائيل الأول في حرب المدرعات.

– الجنرال جافيتشي، وقد أرسل الى «الجبهة الجنوبية» وكان قائدا لها من قبل ذلك.

– الجنرال اموس هوريف كبير علماء الجيش الاسرائيلي سابقا وقد عين مساعدا لرئيس اركان الحرب (على الأغلب للاشراف على وضع أساليب لمواجهة الاساليب الجديدة التي كشف عنها القتال وخصوصا الصواريخ المضادة للدبابات التي تحملها المشاة).

– الجنرال موردخاي هود القائد السابق لسلاح الطيران الاسرائيلي والمشرف على ضربة ١٩٦٧ الجوية.

– الجنرال أهارون ياريف مدير المخابرات السابق ومستشار رئيسة الوزراء العسكري.

– الجنرال رحابون زيجيني، قائد القطاع الأوسط (الضفة الغربية سابقا).

ولكن القصة كما ظهرت فيما بعد كانت أعمق من ذلك بكثير.

ومن مجموع ما نشرته الصحف الأجنبية لمراسليها المتصلين بالدوائر الاسرائيلية (خصوصا الصنداي تايمز، والاوبزيرفر، والصنداي تلجراف، والنوفيل اوبزرفاتير) نجد أن القدر المتيقن مما حدث كان كما يلي:

بعد ٤٨ ساعة فقط من نشوب القتال كان الاسرائيليون يواجهون كارثة على الجبهتين. فقد اقتحم المصريون قناة السويس بقوات ضخمة، واخترقت الدبابات السورية الخطوط الاسرائيلية واستولت على جبل الشيخ، وأحاطت بالقنيطرة، وتساقطت الطائرات الاسرائيلية بنسبة لم يسبق لها مثيل بالنسبة لأى سلاح جوى آخر فى العالم. وفى هذا الجو - كأى جو هزيمة - انفجرت أزمة حادة فى القيادة الاسرائيلية العامة فى داخل الحكومة ذاتها حول طريقة ادارة الحرب..

فى تل أبيب، بدأ العسكريون يتهمون السياسيين بعدم تقدير الموقف تقديرا صحيحا وبالعكس أخذ الوزراء الذين لم يستشاروا فى الأيام الحاسمة قبل الحرب يتهمون غيرهم بأنهم لم يستخلصوا النتائج الصحيحة من العلامات والنذر التى سبقت القتال. ونالت المخابرات العامة والمخابرات العسكرية حظها من النقد.

ولكن الكارثة الكبرى كانت فى الجبهة الجنوبية حيث صار هناك جيشان مصريان كاملان متماسكان شرق القناة، وتم الاستيلاء على خط بارليف، وأقيمت رءوس الكبارى القوية التى فشلت كل الجهود لتدميرها. ثم ان هناك مشكلة الخسائر

الفادحة خصوصا في أعز ما تملك اسرائيل من الطائرات والدبابات وأطقمها البشرية - على الجبهتين المصرية والسورية.

وكان الجنرال شارون وصل ليقود قواته الى مقر القيادة الميدانية المتقدمة في «الخشيبة» ليعمل تحت قيادة الجنرال جونين قائد الجبهة الجنوبية.

ولكن شارون كان قائدا للجبهة الجنوبية قبل شهور، وطوال سنوات عديدة، وقد استقال لأنه لم يعين رئيسا للأركان بدلا من العازار، وهو يتهم مائير وديان بأنهما تخطياه لأنه من حزب جحل المعارض وليس من جنرالات حزب العمل مثل ديان ويارليف وغيرهما، اي أنه كان مطلوبا منه أن يعمل مرءوسا تحت من كان مرءوسا له شخصيا قبل شهور وهو «جونين». ثم انه يعتبر نفسه الخبير الأول بالحرب في سيناء بالذات التى عرفها سنة ٥٦ و٦٧ وظل مسيطرا عليها منذ ١٩٦٧، بالقياس الى الجنرال جونين الذى تولى القيادة الجنوبية منذ شهرين فقط.

وكان الجنرال جونين قد بدأ يفقد سيطرته على نفسه تحت تأثير الهزائم غير المتوقعة التى ألحقها به المصريون والخسائر الكبيرة التى منيت بها قواته.

وقال أحد الذين كانوا حاضرين فى مقر القيادة الجنوبية فى ذلك الوقت أن الجنرال جونين أشاع جوا من اليأس وفقد هدوء أعصابه وكان يصيح باستمرار وتدهورت علاقاته مع قواد الميدان الثلاثة التابعين له: شارون وابراهام أدان وكالمان ماجين. واختلف معه شارون بالذات خلافا عنيفا حول ادارة العمليات وقال له مرة «لقد أوصلتنا الى موقف جعلنا المصريون فيه نرقص على نغماتهم دون أن نبذل شيئا لتغيير هذه النغمة».

ووصلت أنباء هذا الانهيار بسرعة الى الجنرال ديان وزير الدفاع فى تل أبيب فى مقر قيادته فى شارع كابلان رقم ٣١، وحاول ديان أن يحل المشكلة بأن اقترح على دافيد العازار رئيس الأركان أن يتبادل شارون وجونين منصبيهما، أى يصبح شارون من جديد هو قائد الجبهة الجنوبية. ورأى العازار أن هذا التبديل بين الرجلين سيخلق موقفا أكثر تفجرا، فذهب بنفسه الى مقر القيادة الجنوبية وعاد باقتراح أن يرأس الاثنين قائد أكبر منهما: الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان السابق.

واستدعي بارليف للخدمة من منصبه كوزير للتجارة تحت ستار تكليفه بواجبات خاصة «ولكن هذه الواجبات الخاصة» كانت ببساطة: قيادة الجبهة الجنوبية ضد الجيش المصرى. ومن تلك اللحظة صار هو المسئول الحقيقى عن توجيه الحرب

فى سيناء وإن كانت الأوامر والتعليمات ظلت تصدر باسم الجنرال جونين.

على أن شارون وإن كان يكن الاحترام لحاييم بارليف الا انه كان على خلاف معه أيضا..

فمن الناحية السياسية ينتمى بارليف أيضا الى كتلة حزب العمل وينتمى شارون الى المعارضة اليمنية المتمثلة فى كتلة ليكود، وكانا قبل الحرب مباشرة مشتبكين فى صراع سياسى عنيف.

ومن الناحية العسكرية كانت هناك قصة قديمة، وقصة جديدة.

فالجنرال شارون أذاع بعد الحرب عندما رأى صور التجسس الجوى قبل الحرب بأيام أيقن أن الحرب ستنشب فورا وأعلن رأيه هذا للمسئولين ولكنهم ومن بينهم بارليف الذى كان فى مجلس الوزراء لم يتخذوا الاجراءات اللازمة.

القصة الأخرى ان شارون، كما روى بعد ذلك، كان خلال حرب الاستنزاف وخصوصا فى الشهور الأخيرة حين بدأت شبكات الصواريخ الجديدة تقام رغم الضرب الجوى الشديد وتسقط الطائرات الاسرائيلية بدرجة وصفها ايبان بأنه «تآكل»..

وضع شارون بوصفه قائدا للجبهة الجنوبية خطة للعبور بقوات

مدرعة الى غرب القناة، تقوم بتدمير هذه الشبكات على الأرض بعد أن تعذر تدميرها بالطيران وحده، وسميت الخطة من وقتها باسم «الغزال» وقال شارون انه وضع تفاصيلها حتى انه حدد نقطة العبور شمال البحيرات المرة قام بوضع علامات بالطوب الأحمر على نقطة العبور لكي تتعرف الجرافات عليها حين تأتى لتمهيد الطريق.

وقد رد بارليف بعد ذلك علنا على شارون (بعد حرب ٧٣) بأن هذه الخطة ليست خطة شارون كما يدعي، وهذه دعاية انتخابية. ولكنها خطة اشتركت فيها الأركان العامة كلها، وكان طبيعيا أن يكون لشارون دور فيها كقائد للجبهة الجنوبية، واستشهد بارليف على ذلك بعشرات الضباط الذين ساهموا فى وضع هذه الخطة.

الآن وفى اليوم الثالث من القتال كان رأى شارون انه يجب ان تعدل خطة الغزال هذه الى حجم آخر، وان تنفذ فورا، لأن هذه هى الطريقة الوحيدة لارباك الهجوم المصرى الشامل الذى يزداد ترسخا فى الجبهة الغربية، والذى تكسرت أمامه كل الهجمات المضادة بالدبابات والطائرات.

ولكن قيادة الأركان وجدت ان الوقت ليس مناسبا لتنفيذ هذه الخطة: فالهجوم الشامل على كل الجبهة لم يترك لاسرائيل قوة

اضافية تلقيها لعمل هذه الثغرة. والقوات المتاحة فى تلك الوقت لايمكن لها تأمين اقامة جسور مأمونة العبور ستكون تحت مرمى المدفعية المصرية.

واحتكم شارون فى خلافه مع قيادة الأركان الى الجنرال ديان وزير الدفاع، وقال له ديان بصراحة «ان كل مايمكن ان نستغنى عنه ونعطيه لك الآن هو لواء مظلات نغطى به بوادر هجوم من الجيش الثالث المصرى نحو الممرات، ومحاولتك الآن قد يكتب لها النجاح ولكنها اذا فشلت فلن يبقى لاسرائيل شىء فى سيناء وسوف تتعرض اسرائيل ذاتها للخطر».

وقد عملت السلطات الاسرائيلية على اخفاء هذه الأزمة الحادة، ومنعت جنرالاتها من مقابلة الصحفيين الأجانب، ولكن الموقف كان يتدهور فى سيناء.

«كانت القوات الاسرائيلية قد انهكت فى مواجهة المشاة المصريين بصواريخهم المضادة للدبابات . وفى اليوم الثالث أنزل المصريون هزيمة ضخمة بالاسرائيليين اشاعت أكبر قدر من الكآبة فى القيادة الاسرائيلية فقد وقع اختيار الكولونيل امنون ريتشيف قائد القوات المدرعة الأساسية فى سيناء على الفتنانت كولونيل عساف ياجورى لكى يقوم بأول هجوم مضاد حقيقى بكتيبة رقم ١٩٠ من دبابات باتون الأمريكية .

ثم حدث لهذا الهجوم المضاد ما سبق ذكره ..

وتستطرد الجريدة قائلة «وهكذا انخفض حجم قوات ريتشيف من ٢٥٠ الى ٩٠ دبابة ظلت فى عمليات مستمرة لمدة يومين . ولم يهتد أطقم رجال الدبابات المجهدون والذين كانوا فى رعب بالغ أحيانا الى وسيلة لمحاربة تكتيكات المشاة المصريين الذين كانوا يزحفون فوق الرمال بصواريخهم وينصبون الكمائن ويطلقون سحابة رهيبة من الصواريخ عندما تظهر الدبابات الاسرائيلية .

«وكان المصريون يتقدمون بعنف فيما وصفه ريتشيف بأنه «هجوم زاحف» وكانوا ، يخلفون وراءهم فى الطريق الحطام المتناثر للدبابات الاسرائيلية المحترقة فى الوقت الذى ظلت فيه مدرعاتهم سليمة آمنة وراء ستار الصواريخ المضادة للدبابات فى البر ، وستار الصواريخ المضادة للطائرات فى الجو .

«لقد دخلت أطقم الدبابات الاسرائيلية المعركة وهى على استعداد لمقاتلة الدبابات الأخرى وملأوا خزائنهم بالصواريخ الخارقة للدروع، فى حين أنهم كانوا يحتاجون الى ذخيرة مضادة للأفراد لاستخدامها ضد المشاه الذين كانوا يصبون عليهم نيران الموت . وانقضت أيام قبل أن يتمكنوا من الحصول على الذخيرة الصحيحة .

قالت الجريدة الانجليزية «... قبل أن يتمكنوا من الحصول على الذخيرة الصحيحة» ..

أى قبل أن يدخل الأمريكيون ساحة الحرب لانقاذ اسرائيل!.

وهذا ما سيجيء أوانه بعد قليل ..

●●●

انقضى أسبوع منذ بدء القتال ولم تتمكن قوات موشى ديان من انهاء المعركة فى ستة أيام كما وعد فى أول الحرب ..

بل لقد كانت الصورة فى نهاية الاسبوع مختلفة تماما ..

فبعد أن تم للقوات المصرية الاستيلاء على خط بارليف وتطهير جبهة القناة كلها من أى قوة اسرائيلية ، قضت القوات الاسرائيلية بقية الاسبوع الأول وهى تشن هجمات مضادة بلا انقطاع .. مستخدمة الوية كاملة من الدبابات وقوات المشاة المحمولة وكل طاقة سلاح طيرانها الموزعة «بين الجبهتين» وكان القتال يدور ليلا ونهارا فى محاولات مستميتة للعدو تستهدف منع الجيشين الثانى والثالث من تثبيت مراكزهما على الضفة الشرقية أو تدمير رءوس الكبارى المقامة او ايقاف تدفق التعزيزات من الرجال والأسلحة والعتاد ..

ظلت القوات الاسرائيلية حتى يوم ١٤ اكتوبر تبذل هذا الجهد الجبار، وبلاغاتها العسكرية وتعليقات المحللين فيها

وتصريحات الرسميين تؤكد أنهم على وشك تدمير الوجود المصرى شرقى قناة السويس .

ولقد بدأوا وقتها يقللون من شأن خط بارليف ، ويقولون ان المصريين بعد استيلائهم على هذا الخط لن يلبثوا ان يهزموا فى معارك الدبابات المفتوحة فى الصحراء أمام القوات الاسرائيلية المدرعة الشهيرة .

ولكن هذا كله ضاع عبثا ..

لقد خسر الاسرائيليون رغم كل ما بذلوه معركة شاطىء القناة خسروا معركة منع قوات الجيش المصرى من احتلال الشاطىء الشرقى عنوة مواجهة . وفى فجر يوم الرابع عشر من اكتوبر ، أى بعد ثمانية أيام من بدء القتال الذى لم يتوقف قط ، ومع اول ضوء من صباح الأحد ١٤ اكتوبر ، شنت القوات المدرعة المصرية على طول الجبهة هجومها الثانى الكبير لتدمير اكبر قدر ممكن من قوات العدو ولتوسيع العمق الذى تسيطر عليه القوات المصرية فى سيناء ..

وكان هذا الهجوم فاتحة أكبر معارك للمدرعات عرفتها الحروب منذ الحرب العالمية الثانية ..

ولم تلبث أن اشتركت فى القتال كافة الأسلحة ..

فقد أسرعت طائرات العدو الى دخول المعركة لمساعدة قواتها الأرضية . وعلى الفور اشتركت قواتنا الجوية وأجهزة الدفاع الجوى فى القتال ضدها . وقدر المراقبون الاجانب القوات المشتركة فى القتال بألفى دبابة ..

وكانت البيانات الاسرائيلية قد كفت عن مزاعم تدمير قواتنا واحتوائها وتدمير رءوس الكبارى وانتقلت مع بداية هجومنا الى نغمة دفاعية ..

كان أول نبأ من تل أبيب يقول «أن القوات المصرية بدأت مع الفجر هجوما عاما بطول الجبهة من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب وقد مهد للهجوم قصف شديد بالمدفعية وهجوم مركز بالطيران» .

وبعد مرور سحابة اليوم الأول قال معلقهم العسكرى الرسمى . حاييم هرتزوج : «ان الهجوم الذى شنته القوات المسلحة المصرية صباح اليوم فى صحراء سيناء يدور على جبهة واسعة جدا كما يبدو عنيفا للغاية .. وان كافة الدلائل تشير الى أننا أصبحنا الآن فى مرحلة حرجة من الحرب الدائرة على الجبهة الجنوبية وقال : «ان الانسان يعجز عن التنبؤ بشىء قبل نهاية هذا الهجوم».

وفى نهاية اليوم أعلنت اسرائيل أن الجنرال ابراهام مندلر ، القائد العام للقوات المدرعة فى سيناء لقى مصرعه فى القتال .

وفى الليل كان موشى ديان يظهر على شاشة التليفزيون الاسرائيلى ليتحدث بلغة جديدة ..هذه حرب صعبة ، معارك الدبابات فيها قاسية، ومعارك الجو فيها مريرة .. إنها حرب ثقيلة بأيامها وثقيلة بدمارها .. وليس أمامنا الا نقاتل بقلوب مكتئبة.

وفى نفس الوقت كانت اسرائيل تبذل جهدا جبارا فى الجبهة السورية دون جدوى لاختراق الخطوط السورية . وزعمت اذاعاتها عدة مرات أنها على الطريق الى دمشق ، ولكن القوات السورية دمرت كل هذه المحاولات وأحبطت كما قالت الصحف الأجنبية عدة محاولات اسرائيلية لتطويقها . ولم يفلح الضرب الانتقامى ضد المدنيين فى مدن الداخل فى زعزعة روح الصمود والقتال السورية فلما بدأ هذا الهجوم المصرى الشامل اختفت نهائيا مزاعم اسرائيل عن الزحف الى دمشق : ذلك انها أدركت أن الجبهتين لم تبذلا كل ما لديهما فى الهجوم الأول . وانهما بعد أسبوعين قادرتان على توجيه ضربات جديدة وانزال خسائر فادحة بالقوات الاسرائيلية .

لقد أزال الأسبوع الثانى من القتال أسطورة تفوق الجيش الاسرائيلى فى حرب المدرعات المفتوحة فى الصحراء المكشوفة.

وبدأت كل تعليقات الخبراء العسكريين الأجانب تتنبه الى دروس هذه الحرب الجديدة والأساليب الحديثة التى اتبعت فيها.

وقد يكون مناسبا ان نقف هنا ، ومعارك الدبابات الكبرى دائرة يوما بعد يوم ، عند بعض هذه التعليقات .

كتب دور ميدلتون ، الخبير العسكرى الأمريكى ، عدة تعليقات هامة من بينها :

يوم ١٢ اكتوبر كتب يقول :

اتسعت ابعاد الحرب في الشرق الأوسط ، وتغير ميزان القوى لصالح العرب، على حد قول المصادر العسكرية البريطانية والأمريكية العلمية .

وقد بدأ السلاح الجوى الاسرائيلى مضغوطا ، وفقد من طائراته طبقا لأقوال المصادر الأمريكية ، نحو ٦٠ طائرة على الأقل خلال ثلاثة أيام .

وقد ذكرت المصادر العسكرية الأمريكية، استنادا الى تقديرات المخابرات من الشرق الأوسط ، أن للمصريين الآن قوات هائلة فى الضفة الشرقية للقناة ومئات الدبابات .

وتعتمد هذه القوة فى حمايتها من الضربات الجوية الاسرائيلية على صواريخ «سام - ٢» و«سام -٣» ، وصواريخ «فروج» أرض - أرض .

وذكر احد المصادر أن التكتيك المصرى واضح ، وهو حمل الاسرائيليين على مهاجمة راس الجسر وتجنب حرب المناورة .

وكما قال ضابط أمريكى ، وافق على هذا التقييم ، ان التكتيك المصرى - على ما يبدو - هو «أن يفعل العدو ما تريده انت أن يفعل» .

وقالت المصادر أن المحاولة الاسرائيلية الاولى لتصفية راس الجسر جرت دون استعداد كاف ، وبقوة غير كافية . وليس من الأرجح أن تتكرر هذه الأخطاء ، التى تعكس افراط القوات الاسرائيلية فى الثقة بنفسها ، نتيجة انتصارها عام ١٩٦٧ .

الا أنه ليس من المؤكد أن تقوم اسرائيل بضربة ناجحة مضادة وذلك بسبب الامدادات المنظمة من القوات المصرية عبر القناة ، وإمكان تزويد مواقع الاطلاق فى الضفة الشرقية بامدادات جديدة من الصواريخ ارض - جو ، وأرض - أرض .

ويرى المراقبون أن وصول مزيد من الامدادات للمصريين فى سيناء، قد يجعل استراتيجية الاستنزاف اقل جاذبية

للإسرائيليين مما كانت عليه منذ يومين عندما استخدمت هذه العبارة لأول مرة في تل أبيب .

فنجاح عمليات الاستنزاف يرتهن بتوافر عدد من الرجال ومقادير من العتاد أكثر مما لدى الجانب الآخر . ولم يكن لدى الاسرائيليين ابدا عدد من الرجال، حتى في حالة التعبئة الشاملة، أكثر مما لدى المصريين والسوريين . واذا استمر الجسر الجوى من الأسلحة السوفييتية لمصر، واذا استمرت خسائر الاسرائيليين فسيكونون أقل مستوى في شبكات الأسلحة الحديثة: الطائرات المقاتلة ، والصواريخ ، والدبابات ، والمدافع المضادة للدبابات والطائرات ، وهناك احتمال قائم ، هو أنه بالنظر إلى قوة رأس الجسر في سيناء وأجهزة الدفاع المتينة هناك ، فأنه قد يتم ارسال بعض الاسرائيليين في الشمال الى شبه جزيرة سيناء لتعزيز الهجوم المتوقع في سيناء .

ويرتهن موقف اسرائيل العام بقدرة جيشها على الاحتفاظ بالمرونة في مخططاته وتكتيكاته. وهذا هو السبب في أن الاسرائيليين أعادوا تنظيم القيادة العليا، بالاستعانة بالضباط القدامى وترقية القادة الذين لهم إدراك بالقدرات الجديدة للقوات المصرية .

وترى أغلبية المصادر العسكرية الغربية أنه يتعين على اسرائيل أن تتخلص من رأس الجسر المصرى إذا أرادت أن تستعيد موقف المساومات فى الجانب السياسى . ويتعين كذلك على المصريين أن يتمسكوا بمواقعهم لتحسين موقفهم ، وليس أمام أى من الجانبين مهمة سهلة فى هذا الشأن .

ولكنه بعد يومين كتب يقول :

بعد ثمانية أيام من القتال العنيف ، كان كبار المسئولين العسكريين فى الولايات المتحدة والغرب يعتقدون أن المرحلة الحاسمة فى الحرب قد اقتربت . فاسرائيل تحاول بأكبر جهد ممكن فتح طريق الى دمشق . وفى سيناء فإن قوافل السيارات التى تحمل الرجال والامدادات توضح وجود حشد للقوات الاسرائيلية يفوق أى حشود لها تشهدها هذه الحرب .

وقالت المصادر العسكرية أن هدف اسرائيل هو تحطيم الجيش السورى ورد القوات المصرية عبر قناة السويس على أن نفس المصادر تتساءل عما اذا كان ما تنفقه اسرائيل من الرجال والعتاد وحالة التوقف التى تسود الاقتصاد الاسرائيلى، سيكون أمرا ممكنا من الناحية السياسية لدولة قوام شعبها ثلاثة ملايين نسمة .

ويقول أحد التقديرات الغربية ان اسرائيل قد خسرت حتى اليوم الرابع للقتال ٢٠٠٠ جندى فى المعارك . وإذا صح هذا التقدير فإن ذلك يكون لطمة خطيرة لدولة تتكون من ثلاثة ملايين نسمة . إذ ان ذلك الرقم سيكون مساويا لأن تخسر الولايات المتحدة ، التى يبلغ تعدادها ٢٢٠ مليون نسمة ، ١٥٠ ألف جندي، وهو مايوازى تقريبا ثلاثة أضعاف الجنود الأمريكيين الذين قاتلوا فى الحرب العالمية الأولى .

ومن ناحية أخرى فإن استمرار القتال اسبوعا اخر ضد المقاومة العربية المتسمة بالتصميم يمكن أن تتضاعف خسائر اسرائيل في البشر والعتاد وتزيد من حدة المشاكل الاقتصادية.

ويتساءل الضباط العسكريون في الغرب عما إذا كانت اسرائيل يمكنها أن تحتفظ - وقد أنهكتها مثل تلك الخسائر - بقوة سياسية وعسكرية تتيح لها التفاوض لوقف اطلاق النار وعلى قدم المساواة مع الدول العربية .

ومن المحتمل أن تكون ثمة ضغوط داخل القيادة الاسرائيلية لخفض الخسائر فى سيناء وقصر العمليات العسكرية هناك على نشاط الطيران والمدفعية ونشاط المدرعات الذى يهدف الى ازعاج القوات المصرية هناك.

وأيما كانت النتائج فهناك اتفاق عام على أن القتال الدائر حتى الآن قد غير السنوات القادمة لميزان القوى فى الشرق الأوسط . ولقد أظهرت الحرب أن العرب قادرون على تشغيل الأسلحة الحديثة والمعقدة فى ميدان القتال .

وتشير جميع التقارير التى وصلت الى مصادر غربية ان الجيوش العربية تقاتل بعناد وحماسة . وكانت القيادة على مستوى كتائب المشاة وأسراب الدبابات على مستوى مرتفع . كما كانت القيادة العامة تتسم بالفطنة والحكمة . وقال ضابط بريطانى «ان الجيشين المصرى والسورى قد استعادا شرفهما وهذا عامل جديد سيؤثر على المستقبل فى الشرق الأوسط كله».

ولقد كان اهم تطور تكنولوجى هو استخدام القوات العربية للصواريخ التى تطلق من الأرض للجو ضد سلاح الطيران الاسرائيلى . وقد اثبتت صواريخ سام – ٢ وسام – ٣ وصواريخ سام – ٦ المتحركة فعاليتها فى حماية المواقع المتقدمة وحشود القوات ضد الهجمات الجوية الاسرائيلية .

ومن ناحية أخرى فإن الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات من طراز «ساجر» التى زود الاتحاد السوفييتى العرب بها أيضا قد زودت القوات العربية بسلاح جديد قوى لمواجهة القدرة التكتيكية لاسرائيل على استخدام المدرعات .

وقد أكدت عملية عبور القوات المصرية للقناة أن القوات المصرية قد تطورت منذ عام ١٩٦٧ . وأثبتت تلك العملية أن المصريين قادرون على الابقاء على السر وأنه في وسعهم ، بعد ما حققوا من مفاجأة ونجاح أن يتصرفوا في انضباط .

وفى يوم ١٦ اكتوبر كتب يقول :

ان التفوق الجوى لاسرائيل الذى كانت الولايات المتحدة والسلطات العسكرية الغربية تأخذه كأمر مسلم به عند بداية حرب الشرق الأوسط قد انخفض بصورة خطيرة ، فيما يبدو من النتائج ذات المغزى التى تتضح مع سير القتال .

ويضع الخبراء الغربيون ثلاث عوامل باعتبارها مسئولة عن حرب جوية يسير فيها القتال فى ظروف أكثر تكافؤا مما كان متوقعا .

هذه العوامل هى :

١ - إن مصر وسوريا تستخدمان المخزون لديهما من الصواريخ «أرض - جو» بمهارة ضد قوة جوية اسرائيلية تفتقر - فيما يبدو - الى أحدث المعدات الالكترونية المضادة التى تم انتاجها فى الولايات المتحدة.

٢ - إن القوات الجوية العربية قد ظهرت على مستوى عال بصورة لم تكن متوقعة حيث أظهر الطيارون أنهم لا يفتقرون الى

الخسارة بينما أظهرت الأطقم الأرضية – فيما يبدو – أنها قادرة على تشغيل طائرات معقدة مثل الميج ٢١ تحت ظروف القتال .

٣ – كانت القيادة الجوية المصرية قادرة على دعوة الدول العربية الحليفة لتقديم تعزيزات من المقاتلات ودعوة الاتحاد السوفييتي الى اعادة امدادها بالصواريخ أرض – جو .

والملاحظ أنه فى الحرب الجوية الدائرة الآن فان الصواريخ أرض – جو والطائرات المطاردة والرادار تعمل كلها كفريق متكامل وبناء على التجربة الأمريكية فى فيتنام الشمالية فإن الوسيلة الوحيدة لإلحاق الهزيمة بهذا الفريق هى أن يستخدم المهاجمون أحدث المعدات الألكترونية المضادة التى تم انتاجها فى المراحل الأخيرة من حرب الهند الصينية .

وتستخدم الاجراءات الأليكترونية المضادة لإرباك أجهزة الرادار عن طريق التشويش عليها بواسطة إرسال موجات مستمرة ذات جهد عال على نفس الترددات التى تعمل عليها أجهزة رادار الخصم ، أو عن طريق خداع تلك الأجهزة بواسطة نبضات رادارية زائفة تشبه الأهداف الحقيقية ويتم إرسالها إلى تلك الأجهزة .

وتقول المصادر العلمية أن السلاح الجوى الاسرائيلى لا يمكنه أن يحقق تفوقا بدون شحنات ضخمة من الطائرات الأساسية والمتخصصة من الولايات المتحدة .

والطائرات الأساسية هى «فانتوم ٤» و سكاى هوك «ايه ٤ اى» والطائرات المتخصصة هى النماذج الجديدة من الطائرات «تى سى -١٢١» التى أثبتت فعاليتها .

أما أحدث الطائرات الأمريكية التى تحمل معدات اليكترونية مضادة فهى «انترودر تى ايه - ٦ ب» وهى تنطلق من على حاملة طائرات وقد انتجتها البحرية الأمريكية خلال حرب فيتنام.

وقد ذكرت المصادر المطلعة أن المشكلة التى تواجه إسرائيل لاتختلف كثيرا عن المشكلة التى تمت مواجهتها فى فيتنام . فإن عددا كبيرا من صواريخ «سام - ٢» و «سام - ٣» قد وضعت في قواعدها حول الأهداف العربية الرئيسية فى رأس الجسر فى سيناء .

وقد أضيف إلى هذه الصواريخ صواريخ «سام - ٦» التى تنطلق من قواعد متحركة . وتعمل صواريخ «سام - ٣» و «سام - ٦» على مستوى منخفض ، أما صواريخ «سام - ٢» فان مداها يبلغ حوالى ٢٥ ميلا .

وكانت الولايات المتحدة قد بدأت خلال حرب فيتنام فى تطوير معدات الكترونية للتشويش ولكن لم يتم تزويد المقاتلات بها الا فى عام ١٩٦٧ . وقد تضمنت هذه المعدات أجهزة للتشويش على أجهزة الانذار المبكر لرادارات صواريخ سام وعلى اجهزة الرادار للرصد فى المراقبة الأرضية .

ولقد تعلم طيارو المقاتلات أن يحلقوا فى تشكيلات محددة ، لأنه إذا خرج أحد الطيارين من نطاق هذا التشكيل فانه يفقد الحماية التى توفرها الأجهزة الالكترونية المضادة ويمكن لأجهزة رادار العدو ان تراقب طائرته .

وعندما ضاعفت الولايات المتحدة من هجومها الجوى على فيتنام فى عام ١٩٧٢ فإن السلاح الجوى الأمريكى استخدم الطائرات من طراز «مرنيخ ستار اى سى - ١٢١» وقد مكنت هذه الطائرات الطيارين من اعترض طائرات العدو ومن التعرف على الأهداف الأرضية للعدو . كما كانت تستخدم كوسيلة للاتصال الجوى وكمركز قيادة .

وفيما يبدو فإن اسرائيل قد توفرت لديها المعلومات الأمريكية فيما يتعلق بالأجهزة الالكترونية المضادة ، غير أن المصادر العلمية ذكرت ان أحدث هذه الأجهزة التى تم تطويرها فى العام الماضى لم يتم بيعها لاسرائيل .

وبناء على الوضع الراهن فإنه يبدو من المرجح أن السلاح الجوى الإسرائيلى سيقاتل وهو لا يتمتع بميزة التفوق التكنولوجى .

• ذلك أن آخر ما حصل عليه من المعدات الألكترونية المضادة يرجع تاريخه إلى عام ١٩٧٠ أي قبل فترة طويلة من تطوير المعدات الأمريكية الحديثة .

ويتفق الخبراء فى شئون الطيران على أن القتال فى جبهة سيناء قد أظهر قدرة مصر على توفير دفاع جوى متماسك لقواتها البرية . وقد تم ذلك اعتمادا على صواريخ أرض - جو ، وأمدادات وفيرة من المدفعية المضادة للطائرات رباعية المواسير ، علاوة على شبكة رادار وإنذار عالية الكفاءة .

وأن الافتراض بأن حصول إسرائيل على طائرات أمريكية اضافية مزودة بمعدات الكترونية مضادة تعيد إلى السلاح الجوى الإسرائيلى ميزة التفوق التكنولوجى ، يقوم على الاعتقاد بأن من الممكن التشويش على الموجات والترددات الخاصة بأجهزة الرادار المصرية . وفى حين أن إحدى الموجات التى تستخدمها أجهزة الرادار للأسطول السوفييتى فى البحر الأبيض المتوسط لايمكن التشويش عليها .

وكتب ك . تانر مراسل اليونايتد برس :

إن معارك الدبابات التي تدور رحاها في الشرق الأوسط الآن قد وصلت وتجاوزت في بعض الحالات أكبر معارك المصفحات على الاطلاق التي وقعت في الصحراء وفي ستالينجراد خلال الحرب العالمية الثانية . إن خبراء الدفاع يبدون دهشتهم إزاء كمية المدرعات التي تم حشدها في هذه المعارك وخاصة على الجانب المصري .

ففي معركة العلمين الصحراوية (سنة ١٩٤٢) التي اشتبكت فيه القوات البريطانية مع قوات روميل كان للبريطانيين نحو ١٤٠٠ دبابة ضد قوات ايطالية تتكون من ٥٥٠ دبابة .

وفي معركة ستالينجراد التي كانت من أعنف معارك الحرب العالمية الثانية حشد السوفييت نحو ٩٠٠ دبابة ضد نحو ٧٠٠ دبابة ألمانية .

وفي القتال الذي يدور في الشرق الأوسط الآن قالت الأنباء أن سوريا هاجمت بنحو ١٤٠٠ دبابة ، وأن المصريين نقلوا إلى ضفة قناة السويس الشرقية أكثر من ٥٠٠ دبابة تشتبك منذ نقلها في معارك مع الدبابات الإسرائيلية .

ويقدر مجموع ما لدى الاسرائيليين من دبابات عند بدء القتال بنحو ١٧٠٠ دبابة هناك فضلا عن ذلك احتياطى كبير من الدبابات لدى سوريا لابد من وضعه فى الاعتبار كما أن لدى المصريين احتياطيا يقدر بمئات الدبابات على الضفة الغربية للقناة . ولدى العراق أكثر من ألف دبابة .

ويقول خبراء الدفاع أن استخدام هذا العدد الكبير من المدرعات على جبهات صغيرة نسبيا ومن جانب دول صغيرة نسبيا يعتبر فى الواقع حدثا لم يسبق له مثيل فى التاريخ العسكرى بما فى ذلك القتال الذى خاضته الدول العسكرية الكبيرة وهى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا وألمانيا فى الحرب العالمية الثانية .

لعلنا نقف هنا وقفة قصيرة والقتال مازال دائرا عند الجبهة الداخلية التى ربما لم تنل حظها من الكتابة .

لقد كان معروفا أن إسرائيل بعد أن تم لها الاستيلاء على سيناء بأكملها فى سنة ١٩٦٧ ، وبعد أن زودتها أمريكا بطائرات الفانتوم البعيدة المدى ، صار فى مقدورها أن تصل بسلاحها الجوى إلى كل نقطة حيوية تقريبا فى القطر المصرى بأكمله .

وعندما جرى إحصاء فى احدى المرات عن المرافق الحيوية التى يمكن أن توجه إسرائيل إليها ضرباتها فى حالة تجدد الحرب وصل عددها إلى مايقرب من ١٥٠٠ هدف حيوى .

وإلى جانب الصناعات الحديثة التى أقامها الشعب بعرقه ودموعه هناك شبكة الجسور والكبارى والسدود التى تتحكم فى مياه النيل منذ مئات السنين وآخرها السد العالى ثم شبكات ومحطات الكهرباء والمياه القديمة والحديثة والموانىء وإلى جانب إتساع مساحة القطر المصرى فانه يواجه مشكلة أخرى فى تمركز حياته حول مجرى نهر النيل وفروعه وبالتالى مركزية كثير من مرافقه كخطوط السكك الحديدية والطرق .

ولم يكن سرا أن إسرائيل فى أى لحظة من لحظات الخطر ليس لديها أى مانع من تدمير أى شىء يمكن أن تمتد يداها إليه .

ففى حرب ١٩٤٨ كما كشفت مذكرات اسرائيل بعد ذلك كان قد وضعت خطط لضرب القاهرة ودمشق وبيروت بمجرد أن حصل الجيش الإسرائيلى على أول طائراته الحربية .

وفى سنة ١٩٥٦ عندما احتلت إسرائيل سيناء ثم انسحبت منها ، نزعت كل ما أمكنها نزعه من أدوات وآلات

من سيناء حتى خطوط السكك الحديدية وأعمدة التلغرافات والتليفون وهدمت مالم يكن ممكنا أخذه بما في ذلك الطرق الصحراوية .

وبعد حرب ١٩٦٧ عندما أغرقت زوارقنا الحربية المدمرة الاسرائيلية «إيلات» ردت إسرائيل بضرب مباشر على معامل تكرير البترول المصرية الواقعة على شاطىء السويس والمنطقة الصناعية المجاورة لها .

وخلال معارك المدافع عبر القناة كانت إذا لم تجد حيلة لإسكات مدفعيتنا عمدت إلى ضرب الأحياء المزدحمة بالسكان ضربا مباشرا .

وخلال حرب الاستنزاف لم يقتصر طيرانها على شن الغارات على منطقة القناة بل حاولت ضرب العمق المصرى كما سبق ذكره مرة لأغراق مساحات شاسعة من الأراضى المزروعة والمسكونة ومرات لضرب المرافق الانتاجية : ودائما لمحاولة ضرب الروح المعنوية لدى الشعب المصرى .

وإزاء عمليات المقاومة الفلسطينية ضدها كانت طوال سنوات لاتكف عن الرد بضرب مخيمات اللاجئين في الأردن وسوريا ولبنان .

كان هذا هو أسلوبها وكان مؤشرا إلى ما علينا أن نتوقعه حين يبدأ القتال الجدى ضدها .

هكذا انطلقت الأجهزة الداخلية في مصر نحو تلك المهمة الصعبة المتشعبة التي سميت إعداد الدولة للحرب .

وكان هذا يعني وضع كل الخطط الممكنة لمواجهة كافة الاحتمالات : من وقاية الأفراد والمنشآت إلى ضمان سير عمل الأجهزة الحكومية والإدارية والانتاجية تحت ظروف الحرب إلى إيجاد رصيد كاف من التموين ، لا في مجالات الطعام والشراب فقط ولكن في مجال كل المواد اللازمة للانتاج .

وإذا كان مايتم عمله في هذا المجال ليس من شأنه إثارة الاهتمام إلا أن ماتم عمله كثير ، وهو على تفصيلاته بالغ الأهمية .. من صفارات الأنذار في مناطق العمران إلى الاستعاضة عنها بصفارات المطاحن والوابورات في المناطق الريفية إلى انشاء غرفة عمليات رئيسية تربط ما بين قيادة القوات المسلحة وقيادة الجبهة الداخلية من جهة وترتبط بكل الأجهزة والوزارات العامة في العاصمة وأنحاء القطر من ناحية أخرى ، متصلة في ذلك بغرف عمليات في كل مرفق لهم أو محافظة مع تحصين كل هذه المراكز الحساسة وإيجاد غرف بديلة لها في حالة إصابة إحدى الغرف الأصلية .

وعلى مستوى تقليل الخسائر كانت هناك ضرورة اعداد أجهزة الأطفاء والأفراد المدربين على كل مكان قدر الطاقة وأجهزة الأنقاذ بمعداتها ابتداء من أجهزة ثقيلة لرفع الأنقاض إلى سيارات لنقل المصابين إلى معدات طبية لعلاجهم .

ووزعت هذا كله على عدة مناطق رئيسية في القطر : بطريقة تجعل كل مركز قادر على التحرك بامكانياته بسرعة في اتجاه المنطقة التي تتعرض للضرب.

وفي جميع مراكز التدريب التى أقيمت للدفاع المدنى فى أنحاء القطر شمل التدريب ٤٠.٠٠٠ مواطن على الدفاع المدنى والأطفاء والأنقاذ ليمارسوها في مواقعهم الانتاجية وتم اعداد فرق الخدمات العامة التي بلغ عدد المدربين فيها أكثر من سبعمائة ألف مواطن ، فضلا عن تدريب ضباط وطلبة كلية الشرطة ومعهد الأمناء وقوات الأمن المركزي وقوات الأمن في كل المحافظات .

ووضعت خطط مفصلة لمواجهة حالات تعطل شبكات الرى والصرف والمياه والمجارى والكهرباء بل لقد تم تحديد ٦٢ مدينة فى الدولة يتولى أفراد من المتطوعين من أبنائها مسئوليات الدفاع عنها وأسهمت وزارة الداخلية في مجال تزويد كل هؤلاء بالتدريب والسلاح والذخيرة .

ولم يذهب هذا الجهد عبثا بل انه أثبت أهمية وحيوية فى المناطق القريبة من ساحات القتال حيث يركز العدو جزءا من ضرباته على المرافق من هذا النوع .

كان لابد مثلا أن يضرب طرق المواصلات القريبة من الجبهة لإرباك الجهد العسكرى والمدنى معا : ضرب طريق دمياط بورسعيد الساحلى وطريق بورسعيد الإسماعيلية ، وطريق القاهرة الاسكندرية الزراعى .

وضرب خطوط السكك الحديدية فى محافظات الاسماعيلية والشرقية والسويس .

وضرب محطة المياه فى بورسعيد وماسورة المياه الرئيسية الموصلة مابين دمياط وبورسعيد وترعة الاسماعيلية .

وقصف محطات الكهرباء فى بورسعيد وبورتوفيق وبعض أبراج الضغط العالى فى محافظة الدقهلية وخط الكهرباء الرئيسى لمدينة الاسماعيلية .

ولم تكن الخسائر التى ألحقها العدو بالجسامة التى تتناسب مع حجم غاراته المكثفة على هذه المواقع ولا بحجم اصراره أحيانا على مواصلة الضرب فترات طويلة بقصد منع عمليات الأطفاء والانقاذ والاصلاح .

وكان الفضل فى ذلك إلي جانب شبكة الدفاع الجوى وقواتنا الجوية إلى جماهير الشعب فى هذه المناطق وأجهزة الدفاع المدنى بشتى أنواعها .

ولعل أروع صفحات البطولة تجلت فى بورسعيد وفى السويس بالذات.

فلقد صب العدو جام غضبه على مدينة بورسعيد طوال أيام القتال محاولا تدمير كل مرافقها الحيوية وكانت جماهير الشعب وقوات الأمن وفرق الدفاع المدنى من إنقاذ ومكافحة حرائق وغيرها تمارس كلها وحدها فى بسالة رائعة وتحت النيران المستمرة فى ملحمة رائعة .

وكانت الملحمة الرائعة الأخرى بعد قرار وقف اطلاق النار حين أسرعت القوات الاسرائيلية المدرعة فى إتجاه مدينة السويس بقصد الاستيلاء عليها بأى ثمن .

ومن الساعة الثامنة صباح يوم ٢٤ أكتوبر حين أتجهت القوات المدرعة الاسرائيلية إلى السويس عن طريق شارع الجيش ، اقتحمت قوات الجيش والشرطة والدفاع الشعبى والجماهير العمالية والمتطوعة فى معركة طويلة انتهت بتدمير كل الهجمات الاسرائيلية حيث مازالت دباباتهم راقدة فى أماكنها شاهدة على مرارة القتال والهزيمة رغم عدم متانة السلاح ، بتضحيات رجال القوات المسلحة والشرطة والجماهير وامتزاج دمائهم معا .

الاستغاثة

قال الرئيس أنور السادات في مؤتمره الصحفي مع الصحفيين الأجانب بعد الحرب ، أن إسرائيل كانت على وشك الأنحدار ، وأنه لم يكن قد بقي لها بعد ١٢ يوما من الحرب إلا القليل من الذخيرة ولكن الولايات المتحدة الأمريكية التي تدخلت لأنقاذها .

وكان هذا صحيحا وبأقوال المسئولين والمراسلين الأمريكيين أنفسهم.

فمع التآكل الرهيب لأهم أسلحة إسرائيل – الطيران والمدرعات – ومع الخسائر البشرية الضخمة في الأرواح . دارت اتصالات محمومة بين تل أبيب وواشنطن كانت في الواقع كما قال سياسي أجنبي : أشبه بالأستغاثة التي ترسلها سفينة مهددة بالغرق .

ولعل الأمريكيين سمعوا من إسرائيل لأول مرة لهجة غير لهجة الغرور المألوف وغير التأكيدات المطلقة بأنهم قادرون دائما على سحق العرب وبسرعة .

ومعروف أن إسرائيل لم تدخل الحرب بغير سلاح . وأن إعلامها الضخم عن تزويد الاتحاد السوفييتي لنا بالسلاح الحديث لايعني أنها محرومة من السلاح الحديث . وسياسة أمريكا «المعلنة» هي توازن القوى في المنطقة وترجمتها «المعلنة» لتوازن القوى هو أن تكون لدى إسرائيل قوة عسكرية تعادل كل ما لدى الدول العربية مجتمعة . والسياسة الحقيقية المعلنة ، هي أن تكون إسرائيل متفوقة في السلاح دائما على كل الدول العربية مجتمعة . ومنطقهم الرسمي أن قدرة اسرائيل على تهديد العرب وهزيمتهم هي وحدها التي تمنع العرب من القضاء على اسرائيل .

فالمفاجأة إذن في الحرب لم تكن تشمل السلاح . وما لدى اسرائيل من سلاح كان كثيرا وغزيرا وحديثا يعادل إن لم يكن بالتأكيد أكثر مما لدى العرب .

وقد ترددت واشنطن فترة في تزويد اسرائيل بالسلاح إذ كانت تظن أن إسرائيل تبالغ في طلباتها وأنها بما لديها قادرة على إنهاء الحرب لمصلحتها .

ولكن مجريات القتال العنيف جعلها تغير رأيها بالتدريج وتأخذ استغاثات إسرائيل مأخذ الجد ..

كتب جون فينى محرر جريدة النيويورك تايمز فى تلك الفترة يقول :

«يعترف المسئولون الأمريكيون فى واشنطن أنه بالرغم من عديد من الدلالات المثيرة للشكوك إلا أنهم لم يتوقعوا ما حدث» .

فقبل عام ونصف مضى حصلت إسرائيل على صور مفصلة لطرق جديدة تؤدى إلى نقط التقاء هامة على الضفة الغربية لقناة السويس . وكشفت هذه الصور أيضاً عن معدات سوفيتية لبناء الكبارى مخزونة عند كل نقطة من النقاط التى يمكن استخدامها للعبور . وبالقرب من الخنادق شيدت معسكرات كبيرة مزودة بأجهزة الرادار والدبابات ومخازن الذخيرة ولكن عدد الأفراد فيها كانوا قليلين .

ولكن عندما عرضت الصور على الخبراء الأمريكيين فى حينها، خرجت التقديرات الأمريكية والاسرائيلية معا بنتيجة واحدة هى : أن عبور القناة على نطاق واسع يشكل تحديا يتجاوز قدرة القوات المصرية المسلحة . وبناء على ذلك فقد فوجئت اسرائيل التى بنت استراتيجيتها العسكرية على أساس الأحتفاظ بزمام المبادرة .

ونفس الشيء حدث بالنسبة للجبهة السورية من سوء تقدير عواقب بناء خط متقدم من صواريخ أرض - جو قرب خطوط وقف اطلاق النار بين سوريا واسرائيل .

إن هذا يضيف بعداً آخر لمعنى «المفاجأة» يوم ٦ أكتوبر : كان الظن لدى أمريكا واسرائيل أنه حتى لو حدث هجوم فهو أكبر من طاقة مصر وسوريا وبالتالى لن يكون شاملا وانه سوف يمكن سحقه بسهولة.

ولكن مع تساقط الطيران الاسرائيلى أمام شبكات الصواريخ ، ومع الدمار الذى لحق بالمدرعات الاسرائيلية وأطقمها من الأفراد ، وما أبدته القوات المصرية والسورية حيث أتيحت لها الفرصة من مهارة وروح قتالية عالية ، جعلت أمريكا تغير رأيها بسرعة وأتخذ على أعلى المستويات قرار إنقاذ إسرائيل .

ففى يوم ١١ أكتوبر أذاعت وكالات الأنباء العالمية أن أمريكا «بدأت فى إرسال شحنات من السلاح على وجه السرعة إلى إسرائيل . وأن الأمر بدأ بطائرتين إسرائيليتين من طراز بوينج ، تم شحنهما بالصواريخ وبقنابل جديدة من قاعدة أمريكا فى فرجينيا ، وكان الجنود الأمريكيون يخفون العلامات الاسرائيلية على الطائرتين حتى يتم شحنهما ولما سئل قائد القاعدة عن هذه الشحنات رفض التصريح بأى شىء» .

ثم لم تمض أيام حتى كانت إسرائيل قد تلقت أسطولا جديدا بأكمله : ٤٨ طائرة فانتوم جديدة نقلت من أمريكا رأسا إلى مطار

الله في اسرائيل واعترف الأسرى الاسرائيليون في مصر بأن طيارين أمريكيين كانوا يطيرون بهذه الطائرات رأساً إلى مطارات اسرائيل ، حيث يجرى تغيير رسم نجمة داوود فوق نجمة سلاح الطيران الأمريكي بسرعة ثم تنطلق إلى القتال .

وحملت طائرات شحن أخرى إلى اسرائيل صواريخ «سايد وايندر» جو – جو وصواريخ «وول – آي» الموجهة بالتليفزيون والتى تستخدم ضد الأهداف الأرضية والقنابل المتفجرة ، المتعددة الاتجاهات التى تستخدم ضد المدرعات وصواريخ شرايك المصنوعة خصيصا لضرب شبكات الدفاع الجوي الصاروخية .

وقالت جريدة الواشنطن بوست أنه بدأ شحن ما يتراوح بين ٨٠ و٩٠ طائرة سكاي هوك إلى إسرائيل بطريق البحر ، بعد أن خسرت إسرائيل هذا الرقم تقريبا من نفس النوع من سلاح طيرانها خلال الأسبوع الأول للقتال .

وقدمت الحكومة فورا إلى الكونجرس الأمريكى مشروع قانون لاعتماد مبلغ ٢٠٠٠ مليون دولار حتى يمكن اعطاء إسرائيل الأسلحة المطلوبة لها فوراً من مخازن الجيش الأمريكى وبلا مقابل .. الا أن هذا الرقم لايشمل ماقدم لإسرائيل مثلا من شحنات أسلحة نقلتها السفن والطائرات الاسرائيلية ولايشمل طائرات

الفانتوم التى قادها الطيارون الأمريكيون أنفسهم رأسا إلى إسرائيل ...

وأذاعت وكالة رويتر من لندن أن مطارات أوروبية قد تحولت إلى معسكرات يتدفق عليها مئات الأمريكيين والأوربيين اليهود من الطيارين والفنيين لنقلهم فورا إلى إسرائيل وأن أربع طائرات جامبو مرت بمطار لندن فى يوم واحد فى طريقها إلى إسرائيل .

وفى يوم ١٥ أكتوبر كتب جورج شيرمان المحرر العسكرى لجريدة واشنطن ستار نيوز يقول : إن تقديرات المخابرات الأمريكية تشير إلى أن إسرائيل قد فقدت أكثر من ثلث قوتها الجوية الضارية وذلك حتى صباح ١٢ أكتوبر وأن خسائرها من الدبابات تتراوح بين ٥٠٠ و٦٥٠ دبابة أى ثلث قواتها المدرعة وأنه قد تقرر تعويض إسرائيل عما فقدته .

وفى نفس اليوم كتب جون فينى مراسل النيويورك تايمز الأمريكية فى واشنطن يقول : أن القرار الأمريكى الخاص بإرسال الأسلحة الثقيلة برية وجوية والأجهزة المتقدمة إلى إسرائيل قد صدر بناء على ثلاثة اعتبارات : الأول طول مدة القتال بشكل غير متوقع ، والثانى مدى الخسائر التى كانت بالجيش الإسرائيلى فى الحرب ، والثالث حجم شحنات الأسلحة السوفيتية إلى سوريا

ومصر «ويحاط شحن الطائرات والأسلحة الثقيلة الأمريكية هنا فى أمريكا بسرية بالغة وغير عادية من جانب حكومة واشنطن» .

ثم استطرد قائلا «.ويبدو أن الحكومة الأمريكية ترى انه لابد على الأقل من تعويض الطائرات الإسرائيلية التى فقدت .. إذا كان يراد أن يحافظ السلاح الجوى الإسرائيلى على قوته الضاربة ضد القوات المصرية المسلحة فى سيناء» .

على أن هذا التكتم لم يلبث أن انفضح وعرف العالم المجهود غير العادى والذى لم يسبق له مثيل الذى بذلته أمريكا عسكريا خلال هذه الأيام الحاسمة لإنقاذ إسرائيل .

ففى ٢٥ أكتوبر بعد وقف القتال نشر الصحفى الأمريكى المطلع رسالة من واشنطن (خاصة للنيويورك تايمز والأهرام) روى فيها قصة الجسر الجوى والبحرى كالتالى :

«اعترفت المصادر الرسمية فى الولايات المتحدة بأنها اضطرت إلى إقامة نظام خاص للتعجيل بإرسال الامدادات إلى اسرائيل لأن بعض حلفائها فى منظمة حلف الأطلنطى رفضوا التعاون معها فى هذا الشأن خوفاً من المقاطعة العربية البترولية لهذه الدول .

«وذكر المسئولون العسكريون أن حاملات الطائرات وطائرات الوقود التابعة للسلاح الجوى الأمريكي شاركت مباشرة في امداد اسرائيل بالأسلحة من القواعد الموجودة فى الولايات المتحدة ذاتها فقد اضطر الأسطول الأمريكى والسلاح الجوى الأمريكى إلى اقامة نظام للإمداد المستمر من الولايات المتحدة إلى اسرائيل.

«وذكر المطلعون العسكريون نموذجا على ذلك كالتالي : اقلعت طائرات السكاى هوك يقودها رجال البحرية الأمريكية من الساحل الشرقي وهبطت في جزر الازوز للتزود بالوقود ثم طارت إلى حاملة الطائرات جون كيندى المرابطة قرب جبل طارق حيث جرى تزويدها بالوقود مرة ثانية بواسطة طائرات تزويد الوقود . ثم طارت الطائرات المرحلة التالية إلى حاملة الطائرات فرنكلين روزفلت في قلب البحر الأبيض المتوسط حيث قضت الليلة هناك وفي آخر مرحلة تزودت الطائرات بالوقود من الجو في شرق البحر الأبيض فوق حاملة طائرات ثالثة هي اندبندانس قبل أن تصل مباشرة بعد ذلك إلى اسرائيل .

«وقد شملت هذه العملية ما بين ٢٠ و ٣٠ طائرة سكاى هوك وصلت إلى اسرائيل جوا بينما وصلتها حوالى ٥٠ طائرة أخرى على متن سفن النقل التابعة للأسطول الامريكى .

«وقد ظلت طائرات السكاي هوك والفانتوم مختفية بعلاماتها الأمريكية إلى أن هبطت فى اسرائيل ثم استبدلت علاماتها بعلامات اسرائيلية وعاد الطيارون الأمريكيون على متن طائرات مدنية .

«ولم تعرف بعد طريقة نقل طائرات الفانتوم إلى اسرائيل وكيف تم تزويدها بالوقود ولكن المؤكد أن عددا كبيرا خرج فى أول الأمر من القواعد الأمريكية فى أوروبا حتى اعترضت الدول الأوروبية على ذلك فلجأت إلى التزويد بالوقود من جزر الأزور ، قاعدة أمريكا وهى أرض برتغالية» .

وفي يوم ٢٤ أكتوبر نقلت وكالة اليونايتدبريس تصريحا يعلن فيه «المسئولون الأمريكيون أن الولايات المتحدة سوف تستمر فى تزويد اسرائيل بالأسلحة حتى تعلن الحكومة الاسرائيلية أنها اكتفت تماما . وأضاف المسئولون «أننا سنواصل تزويد اسرائيل بالمعونة العسكرية حتى يشعر الاسرائيليون بأنهم مسلحون بدرجة كافية فالاسرائيليون وليس الأمريكيين هم الذين سيقررون القدر الذى يعتبر تسليحاً كافياً . وقد صرح جيرى فرايد هايم المتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية بأن الجسر الجوى المتجه نحو اسرائيل لا يزال مستمرا بمعدل عشرين رحلة يوميا» .

واستطردت الوكالة تقول «وفى تل أبيب أعلن الجنرال بنيامين بليد قائد سلاح الطيران الاسرائيلى فى حديث إذاعى أن قوة سلاح الطيران الاسرائيلي تكاد تكون قد استكملت وأنها عادت إلى المستوى الذى كانت عليه يوم ٦ أكتوبر عندما بدأ القتال وصرح مصدر وثيق الاطلاع بأن الأسلحة والمعدات الأمريكية المرسلة إلي إسرائيل مستمرة بنفس المعدل وقد هبطت طائرات النقل التي تنقل هذه الأسلحة والمعدات خلال ليلة أمس فى المطارات المحددة لها وطبقا للمواعيد المحددة» .

وكان هذا بعد قرار وقف اطلاق النار بيومين .

ولعل قول المسئول الأمريكى «أن اسرائيل وليست أمريكا هى التى ستقرر القدر الذى تعتبره تسليحا كافيا» .. لعله قول لم يسبق له مثيل فى الذهاب إلى أقصى حد في تدعيم اسرائيل .

وقد ألقت جريدة الصنداى تلجراف الانجليزية ضوءا آخر على عملية الانقاذ هذه فى سلسلة تحقيقاتها عن حرب أكتوبر فقالت :

«لم يكن الموقف بالنسبة للعرب فى مثل خطورته بالنسبة لاسرائيل من حيث الامدادات العسكرية ويقول المصريون أن الاسرائيليين كان أمامهم يومان فقط ثم تنفد ذخيرتهم قبل أن يبدأ الجسر الجوى الأمريكى بطائرات «جالاكسى» الجبارة .

«لقد جهزت مائة طائرة من تلك الطائرات الضخمة التي تحمل كل منها مائة طن من الذخيرة والدبابات والأهم من ذلك الأسلحة الالكترونية الحديثة التي تتحكم الآن في ساحات القتال .

«وقد نقلت طائرات الفانتوم والسكاى هوك مباشرة إلى القواعد الاسرائيلية حيث كانت نجمة داوود توضع بسرعة على علامة سلاح الطيران الأمريكي المرسومة فوق الطائرات وكان من رأى المصريين أن هذا معناه اشتراك أمريكا فعليا في القتال .

«وقد يكون الأمر كذلك فعلا ، ولكن من الحقائق التي ما تزال غير معروفة ، أن الجسر الجوى الأمريكي قد تقرر بعد أقصى درجة من التردد . ولم يبدأ الجسر الجوى الأمريكي بالفعل إلا عندما اتصلت جولدا مائير مباشرة بالرئيس الأمريكي نيكسون بالتليفون وفي يوم - السبت ١٢ أكتوبر - أي بعد اسبوع من نشوب الحرب أعطى كيسنجر رأيه بالموافقة .

«وفي اليوم التالى كانت طائرات «جالاكسى» تطير كل ١٥ دقيقة متجهة إلى مطار اللد عن طريق جزر الأزورس وكانت الأسلحة التي تحملها تنقل مباشرة بطائرات نقل من طراز هيركول إلى القواعد الأمامية في سيناء حيث تتجه الدبابات مباشرة إلى خط القتال ..

«وكانت هناك حاجة فى الصحراء إلى الكثير من الأسلحة الأمريكية الجديدة وخاصة الصاروخ ت . و . ف . المضاد للدبابات.

وقالت مجلة «افييشن ويك» الأمريكية فى ٢٦ / ١١ أن شركة الطيران الاسرائيلية «العال» قدمت للجيش ٧٥ ٪ من عمالها كما قدمت له معظم امكانياتها وشوهدت فى مطار لندن طائرة بوينج ٧٤٧ من طائراتها وقد أزيل عنها اسم الشركة واستبدل بشعار سلاح الجو الاسرائيلى . وكانت تنقل جنودا وطيارين بملابسهم العسكرية وكانت كل من طائرتى البوينج ٧٤٧ الموجودتين لدى شركة العال تنقل إلى اسرائيل فى كل رحلة ما يوازى ٧٥ طنا . كما شوهدت طائراتها الأخرى فى عدة مطارات أمريكية وكانت أطقم التفريغ على الأرض مزيجا من المدنيين العسكريين والمتطوعين الذين جاءوا من اسكندنافيا والولايات المتحدة وكندا . وكانت طائرات ستارليفتر س - ١٤١ تغادر اسرائيل بعد ٩٠ دقيقة من وصولها . وتقول المصادر الاسرائيلية أن هذا لم يكن ممكنا لو لم يرسل سلاح الطيران الأمريكى جهازى تفريغ آليين صمما خصيصا لتفريغ هذا الطراز من الطائرات وكان سلاح الجو الاسرائيلى قد

استأجر طائرات بوينج أخرى بالأضافة إلى أسطول شركة العال الذى يضم ١٢ طائرة بوينج .

وكتب مائير كوهين [1] في ملحق جريدة «هاآرتس» الاسرائيلية في ٢١ / ١٢ / ٧٣ عن الجسر الجوى الأمريكي فقال: أن الاسم الذى أطلق على العملية كان «نيكل جراس» وقد استخدمت فيه طائرات النقل الأمريكية الضخمة . إذ قامت طائرات ستاليفتر س – ١٤١ بنحو ٤٢٠ رحلة وطائرات جالاكسي بنحو ٢٥٠ رحلة . ووصل عدد الرحلات اليومية في أواخر أيام القتال إلى ٢٨ رحلة في اليوم وكانت أحياناً توجد ١١ طائرة مرة واحدة في مطار اللد . وأرسلت أمريكا بعثة من ٣٠ خبيرا للإشراف على عمليات التفريغ والصيانة الأرضية والتزويد بالوقود.

وفي رسالة من الجبهة للمراسل الأمريكي رايموند اندرسون كتبها عندما زار الجبهة في سيناء بعد الحرب مع وفد من الزوار الأمريكيين يروى قصة أخرى فيقول : « ... وعلى هضبة قريبة، قاد ضابط مصرى زائرا أمريكي الجنسية من بين المجموعة ليريه حفرة كبيرة أحدثتها إحدى القنابل ثم

---

(١) ترجمة نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية .

أشار بيده إلى ثلاث قنابل لم تتفجر كل قنبلة منها فى حجم كرة البيسبول وقال له «هذا النوع من القنابل الوحشية ممنوع بحكم القانون الدولى . هذه بعض عينات شحناتكم من الأسلحة إلى إسرائيل .. وسوف تجد أنها تحمل تاريخ انتاجها وهو ابريل ١٩٧٣» .

وفى دراسة لمؤسسة الدراسات الفلسطينية عن المساعدات الأمريكية لاسرائيل منذ ساعة بدء القتال جاء ما يلى :

«منذ بداية القتال فى ٦ / ١٠ / ٧٣ باشرت الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بكميات ضخمة من ذخيرة المدافع والدبابات والطائرات .

وقالت جريدة جيروزاليم بوست الاسرائيلية أن طائرات شركة العال كانت تنقل هذه الذخائر من قاعدة نورفولك البحرية فى ولاية فرجينيا .

«وفى ١٢ / ١٠ / ٧٣ بدأت أمريكا فى تعويض اسرائيل عن خسائرها فى الحرب من طائرات ودبابات وللاسراع فى توصيل هذه التعويضات إلى أرض المعركة تقرر سحبها من أعتاد الجيوش الأمريكية المرابطة فى أوروبا وأنحاء أخرى من العالم (جيروزاليم بوست ١٦ / ١٠ / ٧٣) ..

وقالت الصحيفة الاسرائيلية ذاتها أن الجسر الجوى كان من الضخامة بحيث اضطرت البحرية الأمريكية إلى الاستعانة بطائرات النقل المدنية التى استؤجرت من شركات الطيران الأمريكية . وأضافت الجريدة الاسرائيلية أن ضابطا من سلاح الجو البرتغالى يخدم فى القاعدة البرتغالية الأمريكية المشتركة فى جزر الأزور ذكر أن اعدادا كبيرة من طائرات النقل الأمريكية هبطت فى تلك القاعدة وهى فى طريقها إلى اسرائيل وأنها كانت محملة «بكل ما تحتاجه الحرب» . وقال أنه شاهد فى الطائرات : دبابات وقنابل للطائرات وصواريخ موجهة وغيرها . وقالت مصادر برتغالية أخرى أن عشر طائرات بوينج وأربع طائرات نقل ضخمة من طراز جالاكسى واعدادا كبيرة من طائرات نقل من طراز هيركولس وطائرات فانتوم مقاتلة ، مرت على القاعدة فى نفس اليوم الأول من الجسر الجوى وكانت الطائرات بمعدل تصل واحدة كل خمس عشرة دقيقة .

«وفى نفس الوقت بدأت أمريكا بشحن الأسلحة إلى اسرائيل بحرا . وقد شوهدت السفينة الاسرائيلية «بن دان» وهى فى قاعدة نورفولك البحرية ، محملة بطائرات سكاى هوك وذخائر ودبابات (الديلى تلجراف ١٧ / ١٠ / ٧٣) وذكرت مجلة «تايم» الامريكية (٢٩ / ١٠ / ٧٣) أن الجسر الجوى الامريكى

استطاع نقل ٨٠٠ طن يوميا ، غير الطائرات المقاتلة والقاذفة التى كانت تصل مباشرة . هذا إلى جانب ما كانت تنقله طائرات العال . وقد أوفدت أمريكا خمسين فنيا من سلاحها الجوى إلى مطارات اسرائيل للمساعدات فى عمليات التفريغ والتركيب .

«ومن الأسلحة التى سلمت إلى اسرائيل لأول مرة صواريخ «مافيريك» جو - أرض ضد الدبابات وصواريخ «ستاندرد آرم» جو - أرض ضد محطات الرادار ، قواذف «لو» مضادة للدروع ، قنابل موجهة بأشعة ليزر وقنابل «زوكاى» .

«وفى الوقت نفسه طلب نيكسون من الكونجرس الأمريكى اعتماد مبلغ ٢٠٠٠ مليون دولار لمساعدة اسرائيل بصرف النظر عن الأسلحة التى صرفت بالفعل .

«وبالاضافة إلى ذلك صرح بنحاس سابير وزير المالية الاسرائيلى لدى وصوله عائدا إلى مطار اللد بأن اليهود فى أمريكا وعدوا لجمع مبلغ ٧٥٠ مليون دولار عن طريق الجباية اليهودية الموحدة ومبلغ ٤٥٠ مليون دولار عن طريق السندات والقروض وطلب من اليهود فى سائر أنحاء العالم التبرع بمبلغ ٥٠٠ مليون دولار أخرى ...

«وقالت المصادر الغربية على المستويات العليا أن اسرائيل كانت على حافة الهزيمة قبل الجسر الجوى الأمريكى للنقص الخطير فى المعدات والذخائر (التايمز الانجليزية ٢١ / ١٠ / ١٩٧٣) ..

فى الوقت الذى بدأ فيه السلاح الأمريكى يتدفق إلى إسرائيل ويصل مباشرة تقريبا إلى خطوط القتال فى سيناء ويعد أن ضمنت اسرائيل تعهد أمريكا باستمرار تدفق العتاد على هذا النحو الذى لم يسبق له مثيل أعطت القيادة الاسرائيلية الضوء الأخضر لعملية «الغزال» ، عملية عبور قناة السويس إلى الضفة الغربية .. وكما سبق ذكره لم تكن هذه الخطة جديدة بل أنها كانت موضوعة منذ زمن ..

وفى الأيام الأولى للقتال صرح موشى ديان أن اسرائيل ستقاتل هذه المرة غرب القناة .

وكان شارون وغيره من القادة يطالبون بها كما سبق ذكره منذ اليوم الأول ...

ولكن القيادة الاسرائيلية رفضت باستمرار ازاء العبور المصرى الشامل ومعارك الدبابات الضخمة وخسائر اسرائيل الجوية والبرية الفادحة وكما قال موشى ديان وقتها لشارون :

إذا حاولت وخسرت فلن تكون هناك قوات لنا في سيناء وستتعرض اسرائيل ذاتها للخطر ..

كان لابد أن يدخل الموضوع عنصر جديد ...

وكان هذا العنصر الجديد فى الواقع عنصرين :

الأول : هو الانقاذ الأمريكي وضمان استمراره ،

والثانى : هو اقتراب موعد لا مفر فيه من تدخل العالم لوقف إطلاق النار .

واسرائيل مشهورة ببراعتها فى تنسيق العمل السياسى والعسكرى معا ..

وقد كانت أهداف اسرائيل من فتح ثغرة بين الجيشين الثاني والثالث ، والعبور إلى غرب القناة عدة أسباب سياسية وعسكرية .

أولا – نقل القتال إلى غرب القناة بحركة مفاجئة ، تستهدف وضع القيادة المصرية فى موقف مربك بان تضطر إلى الاختيار بين الوقوع فى الحصار شرق القناة أو إعادة قواتها إلى غرب القناة وهذا هو الحد الأقصى الذى كانت اسرائيل تطمح إليه .

ثانيا – تدمير شبكات الصواريخ الموجودة على الأرض بعد أن عجز الطيران عن تدميرها . حتى يسترد طيرانها حرية العمل كاملة فوق جو ساحة القتال ...

ثالثا – أن تسبق وقف إطلاق النار ولو بنوع من النصر النفسى المحدود الذى يجعلها فيما سوف يتلو وقف إطلاق النار فى موقف أقوى مما أدى إليه قتال أكثر من أسبوعين ..

ويكشف لنا عن هذه الأهداف بالذات نوع الاسلحة التى أرسلتها إليها الولايات المتحدة فضلا عن كمياتها .

وقد فشلت اسرائيل فى تحقيق الهدفين الأولين . فلم ترتبك القيادة ولم تجد نفسها مضطرة للانسحاب إلى غرب القناة ولم يتم تدمير الجسور المقامة ولا تقليل حجم القوات الموجودة شرق القناة . ولم تدب فوضى كانت تحلم بها أشبه بانهيار ١٩٦٧ . كذلك فشلت اسرائيل فى تحقيق الهدف الثانى إذ توقف القتال وشبكات الصواريخ مازالت تحدث أثرها المدمر فى الطيران الاسرائيلى .

ولكنها حققت هدفها الثالث فى أن يقف إطلاق النار ولها قوة منتشرة فى غرب قناة السويس عدلت بها وقع الهزيمة الشاملة عليها ...

ومع ذلك فقد احتاجت اسرائيل لفتح هذه الثغرة ليس إلى قوات محدودة كانت لديها كما كان شارون يتصور ، ولكنها احتاجت إلى أن تلقى بكل ثقلها البرى والجوى فى قتال شرس لم يسبق له مثيل ، واحتاجت إلى أن تفقد فى هذه الثغرة أضخم خسائرها خلال أيام القتال كلها ..

.. واحتاجت فوق ذلك إلى : أن تتلاعب بوقف إطلاق النار ذاته ..

فحتى الساعة التى حددت لوقف إطلاق النار لم يكن لها على الضفة الغربية سوى جيب محصور غير صالح للبقاء ولكنها لم تلبث حين وقت ساعة وقف إطلاق النار أن ألقت بكل ثقلها من جديد وكانت خطتها الانتشار ولو بقوات بسيطة على أوسع دائرة ممكنة حتى تجئ قوات الطوارئ الدولية لتجدها على هذا الانتشار...

هدف رابع لم تحققه اسرائيل من هجومها ، وهو الاستيلاء على إحدى مدن القناة الرئيسية بسبب الدور الاعلامى لهذا الحدث، فركزت على مدينة السويس بعد قرار وقف إطلاق النار تركيزا رهيبا . وتعاونها فى التنسيق السياسى العسكرى أعلنت رسميا سقوط مدينة السويس فى يدها عدة مرات على

أمل أن يتحقق ذلك بالفعل حين تصل قوات الأمم المتحدة إلى الموقف . ولكن هجماتها الجوية والبرية بالمدرعات فكرت الهجوم تلو الهجوم عند مداخل المدينة الباسلة التى التحم داخلها الجيش بالدفاع الشعبي بالمواطنين العاديين في ملحمة استبسال نادرة . وبلغ من عنف الهجمات وشدة حملة الإعلام وتأكيد البلاغات الاسرائيلية أن العالم فعلا لم يصدق أن السويس لم تسقط إلا عندما وصلت قوات الأمم المتحدة إلى المدينة واذاعت ذلك بنفسها..

وخرق اسرائيل لوقف إطلاق النار بعد ساعات من قبوله ، وانتهاز الفرصة لاختلاس المكاسب ليس أمرا جديدا على اسرائيل . بل أنها أحرزت معظم توسعاتها منذ سنة ١٩٤٨ بهذا الأسلوب .

ويكفي أن نقلب بعض ما هو منشور في أوراق دافيد بن جوريون حول حكايات وقف إطلاق النار واستغلالها :

سنة ١٩٤٨ صدر من الأمم المتحدة قرار الهدنة الأولى ، وتوقف القتال بين قوات الدول العربية واسرائيل ، وكتب بن جوريون «باعلان الهدنة يوم ١١ يونيو ، انتقل زمام المبادرة إلينا !» كيف !

كانت قوات اسرائيل حتى إعلان الهدنة تحارب متقهقرة . وحين أعلنت الهدنـــة للبدء في تنفيذ قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة ، قبلت اسرائيل الهدنة لسبب آخر تماما ، هو : إعادة ترتيب قواتها ، والاستعداد للبدء هذه المرة بالهجوم ، لا بالدفاع .

« فخلال الهدنة الأولى – يقول بار زوهار المؤرخ الشخصى لبن جوريون وعلى لسانه – ضللت اسرائيل مراقبى الأمم المتحدة وجاءت السفن سرا حاملة آلاف الأطنان من السلاح والعتاد . وتسلل آلاف المهاجرين عبر شتى الطرق إلى اسرائيل . وتكونت فرق مسلحة جديدة وتأسس أول أسراب للطيران الاسرائيلي . وحين كان ممثلو الأمم المتحدة يسألونه عن رأيه في خطوط التقسيم ، كان يقول في غموض : حيث تقف قوات اسرائيل» مضمرا هجوما غادرا ينهي به الهدنة .

هكذا ، بمجرد انتهاء الهدنة الأولى ، يوم ٩ يوليو ، شنت اسرائيل هجوما شاملا على كل الجبهات ، لتحتل كل الأراضى التي تريد لها أن تكون جزءا من دولتها التي كانت في الشهر الثاني من عمرها وفي خلالها عشرة أيام ، أعلنت بعدها الهدنة الثانية ، كانت قوات اسرائيل قد دفعت القوات المصرية جنوبا ،

واستولت على مثلث الجليل الخصب كله ، واحتلت منطقة الرملة واللد والمطار الدولى فيها ، كما استولت على مدينة المسيح ، الناصرة .

وكانت الأمم المتحدة قد فرضت الهدنة الثانية فرضا ، على أن يستمر وقف إطلاق النار حتى تسوى المشكلة نهائيا ، ولكن اسرائيل قبلت الهدنة الثانية وهي تضمر شيئا آخر تماما .

فقد عطلت مرة أخرى عامدة محاولات الأمم المتحدة لتطبيق قرار التقسيم حتى بعد التعديلات التى أجرتها اسرائيل بالقوة . وفى هذه المرة لم يقف الأمر عند حد «تضليل» مراقبى الأمم المتحدة ، بل وصل إلى اغتيال ممثل الأمم المتحدة الكونت برنادوت، فى قلب مدينة القدس يوم ١٦ سبتمبر ١٩٤٨ على يد أشخاص مازالوا أحياء أحرارا مكرمين فى اسرائيل ! ذلك أن اسرائيل كانت تستعد لخرق الهدنة الثانية فى الوقت المناسب .

كانت تريد الاستيلاء على القدس ، والاستيلاء على النقب ، حتى تتم لها أول خريطة تريدها لنفسها ..

وفى أوراق بن جوريون مرة أخرى : نرى كيف أن الخطة أعدت فى سرية تامة ، وقدر العسكريون لتنفيذها عشرة أيام . وكان هدفها هذه المرة الجيش المصرى وحده .

وعرض بن جوريون الخطة في سرية تامة على قادة حزبه ثم على مجلس الوزراء . ثم أخطروا بها موسى شاريت وزير خارجيتهم الذى كان فى الأمم المتحدة وقتها لكى يستعد للعاصفة.. وبقى اختلاق السبب ..

وقرروا أن يكون المفتعل هو أرسال التموين إلى مستعمرة اسرائيلية بعيدة في النقب . قرروا ألا يرسلوا مجرد قافلة تموين كما كانت تقضى اتفاقية الهدنة بل يرسلوها مصحوبة بطابور مسلح ، فيصبح اصطدامه بالجيش المصرى حتميا ، ثم يبدأ الهجوم بحجة أن الجيش المصرى خرق شروط الهدنة ومنع وصول الطعام إلى المستعمرة الاسرائيلية البعيدة .

وبالفعل ، تحركت القافلة يوم ١٥ أكتوبر : وكان لابد أن تشتبك بقوة الحراسة المصرية الواقفة على خط الهدنة ، وفوراً قفز الجيش الأسرائيلي كله للهجوم على الجيش المصرى من كل الاتجاهات ...

وأسرعت الأمم المتحدة للتدخل من جديد ، ولمطالبة إسرائيل بالانسحاب ولكن اختيار موعد خرق الهدنة الثانية كان محسوبا بدقة : يقول دافيد بن جوريون بالنص «تقرر أن يكون الهجوم بعد النصف الثاني من سبتمبر حين تكون رئاسة مجلس الأمن

الأمريكى، فتستطيع أن تمنع صدور أى قرار عنيف ضد اسرائيل، وحين تكون انتخابات الرئاسة الامريكية قريبة فلا يستطيع الرئيس ترومان أن يخاطر باغضاب اليهود الأمريكيين» .

قال بن جوريون أن الشئ الذى كان يمكن أن تخشاه دولة جديدة هو توقيع عقوبات عليها ، ولكن هارى ترومان ، الذى أعيد انتخابه رئيسا لأمريكا ، كان قد اتصل فى مكالمة تليفونية طويلة بمدير المخابرات الأمريكية فى باريس يطلب منه أن يطمئن اسرائيل إلى أن أمريكا ستمنع أى قرار لتوقيع العقوبات عليها . ويروى بن جوريون أنه عندما علم سفير أمريكا فى باريس وقتها – الجنرال جورج مارشال : بكل رصيده الضخم – بهذا الأمر انفجر غاضبا وهدد بالاستقالة ولكن دون جدوى .

وبعد أن حققت الحملة أغراضها ، توقفت القوات الاسرائيلية ثم تم توقيع هدنة أخيرة بينها وبين الدول العربية فى فبراير ومارس وابريل . ولكن بن جوريون شن خلال هذه الهدنات هجوما أخيرا يوم ١٠ مارس فى النقب وصلت به اسرائيل إلى مياه خليج العقبة حيث يقوم اليوم ميناء إيلات .

.. وأقرب كثيرا من هذا أن نتذكر حرب ١٩٦٧ ، على الجبهة السورية بالذات ..

لقد صدر قرار وقف إطلاق النار وقبلته كل الأطراف ، قبل أن تحول اسرائيل ثقل هجومها من سيناء إلى الجولان . وببساطة أعلنت اسرائيل سقوط معظم الجولان كذبا قبل إعلان وقف إطلاق النار : أما القتال الذى دار بعد ذلك فى الجولان للاستيلاء فعلا على مرتفعاته ، فقد دار بعد وقف إطلاق النار ، وبينما وفدها ووفد الولايات المتحدة يمارس عمليات الخداع والتضليل فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن حتى تم لإسرائيل احتلال الجولان متخطية مسافات كثيرة للخطوط التى صدر عندها قرار وقف إطلاق النار.

لا شئ جديد إذن فى الكتاب الاسرائيلى للحرب والخديعة والتلاعب بالقرارات الدولية .

دروس الحرب

تحاول اسرائيل أن تجعل الانتصار العسكرى الذى أحرزته قواتنا بكفاءاتها ودمائها فى ساحة القتال صدفة أو غلطة من غلطات التاريخ .. وهى حتى عندما أعلنت عن تأليف لجنة عليا للتحقيق كانت إلى جانب محاولتها مواجهة موجة السخط لدى الرأى العام الاسرائيلى الداخلى أن تجعلها لجنة تحقيق تبحث فى «الأخطاء» التى أدت إلى هذه النتيجة ..

وكل حرب تقع فيها أخطاء بل وأخطاء لدى الطرف المنتصر والطرف الخاسر على السواء ولكن ليس كل الأخطاء هى «شخصية» تواجه بالتحقيق .

وهذا يهم اسرائيل إلى حد كبير لأنها ستظل تحاول إعادة بناء اسطورة الجيش الذى لا يهزم ، لأن مجرد احتمال هزيمة الجيش وانتصار العرب فى أى صراع ، سوف يتلوه على وجه اليقين تغير عميق فى نظرة اسرائيل إلى نفسها وإلى العالم العربى المحيط بها

. تغير لا تريد اسرائيل أن تواجهه . وواقع جديد لا تحب اسرائيل أن تتأمل أسبابه أو نتائجه .

ولذلك فمن المهم جدا أن نقف عند بعض دروس المعركة التى دارت على الجبهتين المصرية والسورية خصوصا فى إطار المقارنة بينهما وبين أي قتال عربي اسرائيلى سابق منذ سنة ١٩٤٨ وإلى الآن ...

عنصر المفاجأة :

إن اسرائيل تعترف بأثر عنصر المفاجأة فى الانتصار الذى أحرزته قواتنا ..

ولكن كما أشرنا إشارة عابرة فى غير هذا المكان فإن المفاجأة يمكن أن تكون لها صورتان ..

اسـرائيل تحـاول أن تجعلها أشـبه بمفاجأة اليقظان النائم في لحظـة غفـوة عـابرة ولكن الكثير من صفحـات هذا الكتاب توضح غير ذلك ...

فالخطة العسكرية الدقيقة التى رسمها وخطط لها ضباطنا وقيادتنا كانت قد بذلت مجهودا كبيرا لتحقيق عنصر هذه المفاجأة بالمعنى الاستراتيجى العام ..

وقد ذكرنا نماذج من عمليات التضليل الاستراتيجية التى لم تكن عفوية ولكن بذل فى سبيلها الكثير من العرق والمجهود ومن الحساب الدقيق والتقدير جزءا لا يتجزأ من الخطة العسكرية للحرب ذاتها ..

والمفاجأة بهذا المعنى حق من حق أى جيش محارب . إن المفاجأة عنصر لا تخلو منه أى حرب أيا كانت بل لا تخلو منه أى معركة صغيرة فى أثناء حرب مشتعلة بالفعل . إن نصف المعارك يكون كل خصم فيها قد أعد لخصمه مفاجأة ولو من زاوية الاقتراب منه ، أو من شرك منصوب له ، أو من احتياطى غير ظاهر ، لدخول المعركة فى ساعة معينة ...

المفاجأة .. المفاجئة ، هى تلك التى تكون حين تشن دولة ما الحرب على دولة أخرى دون أى مقدمات تبرر ذلك . كالغزو المفاجئ الذى شنه هتلر مثلا على الاتحاد السوفيتى فى الأربعينات فى وقت كان يتظاهر فيه باحترام معاهدة للصداقة وعدم الاعتداء جديدة معه ، أو مثل هجوم اليابان على بيرل هاربر القارة الامريكية فى الحرب العالمية الثانية بينما كانت وفود السلام تتفاوض فى واشنطن واحتمال قيام اليابان بهجوم ضد أمريكا وهم بعيد ..

ولكن فى حالتنا هذه كانت الحرب لاسترداد الأرض وارغام العدو على تغيير سياسته وإعادة القضية إلى سخونتها السابقة كانت هدفا معلنا على ألسنة كل مسئول ، فى دولتى المواجهة . وحالة الحرب ذاتها قائمة منذ ١٩٦٧ بوجه خاص على الأقل واسرائيل – تعقد كل يوم صفقات السلاح الجديدة ، وتضرب المدن العربية هنا وهناك بطائرات ، فهى ليست المفاجأة الشاذة . ولكنها المفاجأة العسكرية المدروسة والتى تشهد ببراعة الخطة لا بقدر العدو ...

ومع ذلك فقد جاء فى أجزاء سابقة من هذا الكتاب كيف توالت النذر فى الأسبوع السابق على القتال ، على أدنى تقدير بالنسبة لاسرائيل ، عن حشود مصرية وسورية وأجهزة تقام وأسلحة تعد وتبادلت المخابرات العسكرية الأمريكية والاسرائيلية المعلومات والتساؤلات – والتفسيرات على أعلى المستويات ، ولكن عناصر التضليل الاستراتيجى التى لعبت بها قواتنا فى احكام واقتدار ودقة بالغة فى التنفيذ هى التى ساهمت فى وأن يبقى السؤال عن نوايانا لدى العدو سؤالا حائرا ليس له جواب قاطع حتى فجر يوم الهجوم على الأقل ..

إن قيمة هذا بالنسبة لنا انه يثبت ، أن أحد أسلحة الحرب وهو عنصر القدرة على التخطيط وخداع العدو ووضع التفاصيل

اللازمة لكل ذلك ، والتي تصل إلى ضرورة معرفة كل وحدة بواجباتها القتالية حتى أصغر سرية من السرايا ، إن هذا العنصر الهام ، في امكاننا انجازه وتحقيقه ، والتفوق فيه ، لو حشدنا طاقاتنا ووفرت لها الظروف المواتية ، أو أن هذا النوع من الذكاء والقدرة على اتقان الدراسة والتفاصيل ليس صفة قاصرة على العدو ، وليس من طبيعة العرب - الأزلية - الفوضى وعدم الاتقان وانعدام الخيال ، كما قال أدب النكسة الانهزامي ، وكما ظل يردد على أسماعنا ما يقرب من سبع سنوات ...

ومع ذلك فقد استعد الاسرائيليون احتياطيا - قبيل المعركة كما سبق ذكره ، فضلا عن أنه كان لديهم ثلاثة حواجز ضد المفاجأة الشاملة مستعدة للعمل فوراً : أولها خط تحصينات بارليف بكل استعداداته وخططه وفاعليته جنوباً أو استحكاماتهم في مرتفعات الجولان الحصينة طبيعيا في الشمال ، وسلاح الطيران الاسرائيلي القوي ، وهو نوع من الأسلحة القابل للاستخدام فورا وخلال دقائق بعكس القوات البرية التي قد يحتاج زجها في المعركة إلى بعض الوقت ..

وقد استخدمت اسرائيل هذه العناصر الثلاثة فور وقوع المفاجأة ، دون أن تحقق لها الأثر المطلوب الأمر الذي يؤكد أن

المفاجأة وحدها – على أننا فخورون بها – لم يكن ممكنا أن تنجز وحدها ما انجزته بغير الصفات القتالية الأخرى التى أظهرتها قواتنا ..

هذا عن «المفاجأة» التى سبقت القتال ولكن هناك نوعاً أخر من المفاجأة هو :

المفاجأة مع بدء القتال :

لقد انتهينا من تحليل عناصر مفاجأة بدء القتال ولكن هناك مفاجأة أخرى هى مفاجأة – أو مفاجآت – القتال ذاته ...

إن هذه ناحية أخرى من المهم التأكد عليها لما تعطيه لنا من لفتة فى أنفسنا ، ولما ترد به على حرب العدو النفسية وتأثير أدب النكسة الانهزامى المدمر ...

ساعة أن تطلق الطلقة الأولى ، نكون قد عبرنا عنصر المفاجأة الأول ، ودخلنا الحرب ذاتها التى تحتاج بدورها إلى مفاجآت .

وقد كان لدى قواتنا فى هذا المجال بعض المفاجآت أيضا ...
وكان هناك إلى جانب ذلك عنصر القتال الصريح ذاته حيث لا يكون هناك ثمة مجال لمفاجآت ...

هنا أيضا نجد مفاجآت لا تدخل في دائرة ما تجريه اسرائيل من تحقيقات ، ولكنها تدخل في دائرة ما أثبتته التجربة لدينا من كفاءات وقدرات حين تتاح لقواتنا المسلحة وكفاءاتنا الفنية وعقولنا المفكرة فرصة العطاء ..

مفاجأة توصل قواتنا إلى طريق لفتح ثغرات سريعة فى السد الترابي الضخم ..

ومفاجأة معدلات السرعة التى يمكن بها لقواتنا المسلحة أن تقيم خلالها رءوس الكبارى عبر القناة ، بالساعات والدقائق لا بالأيام ..

ومفاجأة التدريب المحكم على نماذج أقيمت لدينا من حصون خط بارليف ، واكتشاف الخطط الكفيلة بالاستيلاء على أهمها فى الساعات الأولى من القتال .

ومفاجأة وجود حتى قواتنا البحرية فى أبعد الأماكن جنوب البحر الأحمر مثلا ، ساعة المعركة بعد تحركات ومناورات لم يفهم العدو مغزاها ...

ثم هناك المفاجأتان الكبيرتان ، اللتان تدخلان فى بند الكفاءة التخطيطية والقتالية معا ، المفاجأة التى هى صميم المواجهة فى المعركة :

الأولى – مفاجأة قدرة الجيش المصرى لا على أن يعبر القناة ويحطم خط بارليف فحسب ، ولكن أن يتم هذا فى أقل من ٤٨ ساعة وألا ينتهى يوم واحد على بدء القتال إلا وقد صار على الضفة الشرقية للقناة جيشان كاملان بكل قياداتهما وأسلحتهما ومعداتهما الثقيلة ..

مفاجأة بهذا الحجم وفى وجه كل العقبات والاستحكامات التى أقامتها اسرائيل عبر سنوات وتحت حجم النيران المنصبة عليها من السماء والأرض ، هى مفاجأة تدخل تحت بند الكفاءة القتالية المحض : من التخطيط إلى التنفيذ إلى بسالة القوات بجنودها وضباطها وقياداتها وروحهم القتالية العالية .

كتب هنرى تانر مراسل النيويورك تايمز يقول :

«شاهدت بنفسى منطقة المعارك فى سيناء والقوات المصرية بدباباتها ومعتادها تتدفق عبر قناة السويس . كان الجنود المصريون فى حالة معنوية عالية . وكانوا فيما يبدو غير عابئين بقذائف الطيران والمدفعية الاسرائيلية .

«لا تقلقوا إن الله معنا» هكذا صاح واحد من ثلاثة جنود شبان أمام المراسلين الذين سارعوا بالاختباء عندما انفجرت قنبلة قريبة أما المصريون الثلاثة فقد بقوا حيث هم واقفون على رأس

تبة . وكانت سيارات النقل تقف بين بطاريات المدافع المضادة للطائرات في صفوف على أرض مكشوفة تنتظر دورها في العبور دون خوف من التعرض للهجوم الجوى . وفى إحدى سيارات النقل العابرة كان ثمة جنديان شابان يقفان فوقة شحنة من العتاد ويرقصان على وقع تصفيق الآخرين . كانت فرحة النشوة بالعودة إلى الأراضي المصرية المحتلة منذ أكثر من ست سنوات ظاهرة في كل مكان ، وقد كان الانطباع الواضح الذى رأيناه فى كل مكان هو أن القوات المصرية في سيناء تساورها كلها فكرة واحدة - هي التقدم شرقا» .

والحكايات كثيرة عن الجنود الذين كانوا يرتمون بأجسادهم على الأسلاك الشائكة والألغام ليعبر زملاؤهم بسرعة ، والذين كانوا يسدون - بأجسادهم - فوهات خط بارليف لتمكين زملائهم من الاقتراب والاقتحام ، والضباط الذين كانوا يستشهدون مع جنودهم فى كل مكان ..

المفاجأة الثانية .. هي التكتيك الذى استخدمته قواتنا في القتال ذاته ، خصوصا فى صد الهجمات المضادة التى كانت تقوم بها القوات المدرعة للعدو ، واستخدام المشاة فى معارك الدبابات..

لم تكن المفاجأة هنا فى سلاح سرى نملكه ولا يعرف العدو شيئا عن وجوده ، وقد قال الكتاب الاسرائيليون أنفسهم ذلك فى تحليلاتهم لمعارك اكتوبر ١٩٧٣ . ولكن قواتنا المسلحة توصلت إلى هذا الأسلوب فى استخدام المشاة المسلحين بالصواريخ فى مساعدة دباباتهم وفى مواجهة موجات مدرعات العدو بشكل لم يتوقع العدو أن تكون له هذه النتائج المدمرة ...

السلاح لم يكن سرا ولكن الاسلوب القتالى والبسالة التى يحتاج إليها هى التى كانت مفاجأة ..

لقد امتلأت الصحف العالمية بتصريحات المسئولين والخبراء العسكريين من البلاد الكبرى يقولون أن حرب أكتوبر جعلتهم يعيدون النظر فى أساليب وأسلحة كثيرة .

وذهب البعض إلى القول بأن الدبابات التى كانت لها السيادة على أرض المعارك ، عادت تخلى سيطرتها القديمة للمشاة .

ولم يكن ذلك - بصرف النظر عن دقة هذا الحكم - إلا بفضل أسلوب استخدام المشاة حاملى الصواريخ فى مواجهة الدبابات .

ولم تكن هذه الصواريخ سرا ، وقد اعترف المراقبون العسكريون بأن الطرفين كان لديهما أنواع متشابهة من

الصواريخ المضادة للدبابات ولكن القوات المصرية استخدمت المشاة ضد الدبابات بطريقة فعالة أربكت العدو .
هذا فضلا عن معارك الدبابات الكبرى التى واجهت الأولوية المدرعة فيها من الجانبين بعضها البعض .

واستخدام المشاة ضد الدبابات فضلا عن أنه يحتاج إلى تدريب دقيق جدا فإنه يتوقف إلى حد كبير على جسارة الرجال : الذين يقفون بأجسادهم أمام تلك القلاع الفولاذية الزاحفة ..

قال مراسل عسكرى أجنبى عريق : إن مواجهة دبابة تطلق نيرانها أمر مرعب حقا ! .. وانتظارها حتى تقترب إلى مرمى السلاح الذى يحمله الجندى يحتاج إلى أعصاب من فولاذ ! بل إن صوت ومشهد انفجار الدبابة بعد ضربها عن قرب منظر يهز الابدان هزاً !

ولكن .. كانت تلك هى الظروف التى قاتل فيها ضباطنا وجنودنا لتحطيم هجمات العدو المضادة بالطائرات والدبابات معا خصوصا قبل أن تعبر أولوية المدرعات الرئيسية إلى شرق سيناء.

النظرية العسكرية ذاتها :

لقد قيل الكثير عن النظرية العسكرية الاسرائيلية التى لا تقهر..

ولكن القوات المصرية والسورية حين اتخذت قيادتها قرارهما بأن يكون الهجوم شاملا بطول الجبهة كلها حطمت هذه النظرية العسكرية الاسرائيلية وعرفت الطريق إلى أن أى نظرية لا تتميز بالكمال ، بل فيها الثغرة التى يكمن فيها مقتلها بشرط معرفة طريقة مواجهتها ..

نظرة اسرائيل إلى العرب

ما أكثر الأدب الذى كتبه الصهيونيون وأنصارهم فى العالم وكتبه الاسرائيليون لأنفسهم عن العرب قبل حرب أكتوبر ٧٣ ..

بل ما أكثر ما كتبه بعض العرب أنفسهم .. عن أنفسهم ..

لم يكن ممكنا قبل اكتوبر ١٩٧٣ ، أن نقرأ فى صحيفة اسرائيلية مثل دافار (١٠ / ١٢ / ١٩٧٣) مقالا كالذى كتبه الكاتب الاسرائيلى «أهارون غيفع» ، حول هذا الموضوع يقول فيه:

«يبدو لى أن زمن الخبراء بالنفسية العربية» وعلى اختلاف أنواعهم الذين أثروا فينا بآرائهم وتحليلاتهم قبل الحرب قد انتهى.. ومن الأفضل أن يفتشوا لأنفسهم عن مصدر آخر للرزق..

ويمكن تقسيم خبراء الأمس هؤلاء إلى ثلاث فئات . منها من اعتاد أن يعلن «لقد ولدت فى العراق . وأننى أفهم العرب» . وتضم الفئة الثانية أولئك الذين يتذكرون أيام صباهم عندما كانوا يعملون كمراقبين على الفلاحين العرب فى بيارات البرتقال فى «بتاح

تكفاه» .. أما الفئة الثالثة وهى أخطر هذه الفئات فتضم أولئك الذين درسوا الثقافة الاسلامية فى الكتب .

وفى الحقيقة لقد أثار هؤلاء «الخبراء» شكوكى فى الماضى ..

إن خبراءنا لا يشبهون - لا سمح الله - اللاساميين ، فاللاساميون يكرهون اليهود ولكن خبراءنا لم يكرهوا العرب ولكنهم استخفوا بهم ، وأحيانا ارتدى هذا الاستخفاف طابعا «علميا» .. فماذا زعموا ؟

زعموا أن العرب بحكم ثقافتهم الخاصة يتجاهلون الواقع ويقعون ضحية خيالهم وقد قدموا أكثر من مرة البرهان على ذلك من بلاغات الجيوش العربية فى حرب ١٩٤٨ وحرب الأيام الستة التى كانت كلها تنم عن خيال خصب .

ولكن الحرب الأخيرة أثبتت أن هذا الادعاء ليس صحيحا وإنما فى هذه المرة كانت بلاغات الناطق العسكرى المصرى دقيقة للغاية .

ولدى خبرائنا إدعاء آخر : أن العرب لا يفهمون إلا لغة القوة فقط . لقد كان هذا الادعاء الأساسى للخبراء اليهود الذين ولدوا فى البلاد العربية أو من القدامى الذين عملوا مع العرب فى المزارع ولكن الواقع الآن يكذب هؤلاء الخبراء ، فلم تكن هناك

مظاهرة قوة أكبر من حرب الأيام الستة .. وماذا كانت النتيجة ؟ هل رضخوا للغة القوة ؟ أم الاستعداد لحرب جديدة ؟ ..

ثم أن معلقينا - خصوصا فى الاذاعة - يخبروننا كل يوم عن الانقسامات والخلافات فى العالم العربى ، كل المؤتمرات والمشاورات وزيارات الوزراء المتبادلة ليست إلا تعبيرا عن الصراع الداخلى فى العالم العربى . وهكذا خلق لدى الجمهور الاسرائيلى انطباع بأن العالم العربي عالم منهار عاجز عن التكتل .

لا شك في أن هناك صراعات عربية داخلية ، وهناك مصالح متضاربة وصراع على السيطرة على العالم العربى . كل هذا صحيح طبعا . ولكن الواقع أثبت أن العرب يستطيعون أن يتحدوا ليس بالكلام فقط ، خذوا استخدام سلاح البترول . أن من يقرأ كلام الاستخفاف بتهديدات استعمال النفط ، التى نشرت فى الصحف الاسرائيلية قبل الحرب ، لابد أن يتساءل باستغراب : من يعيش فى عالم خيالى .. نحن أم جيراننا ؟

إن للعرب ثقافة خاصة بهم تختلف عن ثقافة الغرب . إن هذه الثقافة ثمرة تطور خلال مئات السنين ، وقد فرضت طابعها على طرق التفكير وطرق التصرف ، ولكننا بالغنا فى تقدير الخلاف بين الثقافات ، ونسى الكثيرون أن الشعوب لا

تراوح فى مكانها . إن الشعوب تتغير أحيانا بسرعة وأحيانا ببطء . ولكنها تتغير» ..

روى لي صحفي أمريكي كبير ، أنه كان قبل حرب أكتوبر بستة شهور يزور جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل ، ومعها سيمحا دينتز سفيرها في واشنطن . كان الصحفي الأمريكى يحدثها عن تشدد اسرائيل وعدائها لأمة عربية آخذة في التطور ، ولكن مائير رفضت الاقتناع بأن هناك أى تغير حقيقى فى العالم العربي .

وقال لها الصحفي : هناك شباب عرب يعملون الآن فى عدة عواصم عربية على الآلات الحاسبة المتقدمة «الكومبيوترز» وانفجرت مائير بالضحك وقال دينتز له : كومبيوترز ؟ إنها اللعبة الجديدة الباهظة الثمن التي يلعبون بها ، تماما كما شغفوا قبل ذلك بلعبة الطائرات النفاثة ثم فشلوا فيها !

ولم تهتم مائير وتبدى مظهرا للقلق ، طبقا لرواية الصحفي الأمريكي، إلا حين قال لها : أن آلاف الأطفال في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين لا هم لهم إلا التعليم والدراسة ..

العبرة ..

منذ بدأ العالم العربي يفتح جفونه في بطء على حقائق العالم الجديد ، قبل قرنين من الزمان وبعد نوم دام قرونا طويلة دقت بابه عدة تحديات كان لكل منها وقع الصدمة ، والتنبيه معا ..

عرفوا صدمة الحملة الفرنسية التي قادها نابليون إلى مصر ثم حاول أن يمتد بها إلى المشرق .. وكانت الحملة الفرنسية تحمل معها أول معلومات عن الحضارة الجديدة في أوروبا من جهة وتحمل معها أيضا أول محاولة استعمار غربية من جهة أخرى ، عرفوا مبادئ الحضارة الغربية الأولية بما فيها من علم ومعرفة وعرفوا معها جانبها الشرس ، الفهم الطامع في امتداد قوته إلى آفاق جديدة .. وكان هذا أول تحريض للوطنية المصرية ، ثم لأقطار عربية كثيرة على التمرد لا على المستعمر الجديد وحده ولكن على التفكير في نقض عبارة الظلام والاستبداد العثمانيين أيضا ..

ثم عرفوا صدمة تحالف دول أوروبا ضد محمد على الكبير، حين حاول من القاعدة المصرية الحديثة التى انشأها أن يتحدى الامبراطورية التركية من الداخل ولحساب المنطقة لا لحساب غيرها من القوى الأجنبية ، حتى فرنسا التى شجعته وساندته ودربت له جيوشه انضمت فى الساعة الحاسمة إلى انجلترا وروسيا وغيرهما إلى جانب الامبراطورية التركية المتداعية ، ضد القوة المحلية البازغة ..

وعرفوا صدمة الاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ الذى لم يتأخر كثيرا عن فتح قناة السويس ، والذى جاء فى لحظة وصلت فيها الوطنية المصرية بالثورة العرابية إلى إحدى قمم محاولاتها لطرح الحكم التركى والحصول على الحقوق الدستورية للشعب المصرى .. ورأوا الاستعمار الانجليزى الذى جاء ليبقى وكان أول ما قرر تسريح الجيش المصرى الوطنى ، وفك المصانع الحربية والبحرية وبيعها خردة وافلاس الصناعات الوطنية لحساب طوفان البضائع الأجنبية .

وعرفوا صدمة الحرب العالمية الأولى التى وعدتهم أوروبا فى بدايتها بالاستقلال إذا ثاروا فى وجه العثمانيين .. ثم ظهر أن الوعد كان خدعة وأن الغرب خلال ثورتهم كان يستعد لاحتلال بقية العالم العربى وإعادة تقسيمه وتوزيعه .. ووجد باقى العرب – كما

حدث للمصريين قبلهم - أنفسهم أمام استعمار أكثر رغبة فى إدخال بعض الاصلاحات، ولكنه أكثر شبابا وقوة من الاستعمار العثمانى ..

أما صدمة اسرائيل التى عرفوها بعد الحرب العالمية الثانية فقد كانت من نوع آخر تماما فهذا هو النصل الحاد للعالم المتقدم يقترب من رقابهم مرة أخرى .. وقد جاء هذه المرة لا ليحتل ويرحل ولكن لكى يستوطن ويبقى وينشئ قومية جديدة وحصنا مستمرا ، تتجه منه إليهم التهديدات والانذارات الكفيلة بابقائهم راكعين ، خاضعين ...

استطاعت اسرائيل أن تلحق بالعرب فى ساحة القتال سلسلة من الهزائم ، وبما أرادت بها هى ومن وراءها تعليم العرب درس الخنوع وقد ظنت بعد حرب يونيو أن الدرس قد حقق أغراضه فى النهاية ...

ولقد حاولت عشرات الكتب والدراسات والأبحاث تمزيق الروح العربية بعد تمزيق الجسد العربى وانتشرت بضاعة النظريات التى تفلسف أسباب تخلف العرب ، وعجزهم عن التقدم ، وعجزهم عن الاتقان أو حتى التنسيق فيما بينهم .

حاولوا اعتبار لحظة المحنة الشاملة وصورة الأمة العربية خلالها على أنها صورتهم الدائمة .. التي لن تتغير ...

ومن هنا كانت أهمية لحظة ٦ أكتوبر في نظري ..

لحظة أثبتت أن هزيمة الهزيمة أمر ممكن .

وأن الانتصار ممكن .

وأن العرب مثل أى شعب آخر إذا اعطيت لهم الظروف والامكانيات والمؤسسات التي تجعلهم قادرين على تحقيق ذاتهم واستخدام امكانياتهم قادرون على أن يرتفعوا إلى مستوى التحديات التي تواجههم .

وليست الحرب في ذاتها دلالة الحضارة . ولا التفوق فيها شهادة للتفوق في كل شئ . ولكن الحرب مع ذلك ، وتلك حقائق الحياة : إذا فرضت فرضا على شعب فإنها تصبح الامتحان الاكبر لقدراته ومواهبه .

قدراته على الاحتمال والصبر ، وعلى مواجهة المكاره وعلى الثبات وعلى الشجاعة الذهنية والجسدية .

ومواهبه في التفكير والخلق والابداع والاستفادة من الدروس..

والمواجهة المفروضة علينا من خصم يريد التوسع ويؤمن بالتفوق وضعتنا في هذا الامتحان المستمر ..

امتحان يجعل فى مقدمة مهماتنا وجود جيوش قومية عصرية حديثة مقتدرة ..

ومجتمعات عصرية حديثة قادرة على انجاب مثل هذه الجيوش..

.. كتلك الجيوش التى عبرت القناة : وصمدت فى مرتفعات الجولان، فى تلك الأيام المجيدة من أكتوبر ١٩٧٣ .

أين كانوا وأين كنا قبل ٦ أكتوبر ؟

لست أقصد أن أحدد أين كانوا وأين كنا بمعنى المواقع التى تقف عندها جيوشهم وجيوشنا فهى على وجه التأكيد مواقع للانطلاق نحو نضال سياسى عنيف أو نحو قتال عسكرى جديد أكثر عنفا وضراوة ..

إن الحرب لم تنته بعد .. وما أقصده هو المعنى السياسى والمعنوى والنفسى ، وهو أثر بالغ الأهمية من آثار الحروب ...

إذا كانت ثقتنا بأنفسنا ، وبقواتنا المسلحة قد صعدت ، وثقتهم فى أنفسهم ومناعة قواتهم المسلحة قد هبطت فهذه نتيجة هامة .

وإذا كانت صورتنا فى العالم قد تغيرت إلى الأحسن والهالة التى كانوا يحيطون بها أنفسهم قد شحبت فهذه نتيجة أخرى ..

وإذاكان نهوضنا للقتال غدا أسهل علينا نفسيا وعسكريا بكثير من نهوضنا به بعد ركود دام سنوات ، فهذه نتيجة هامة أيضا ، إذ سوف يحسب كل طرف فى الدنيا حساباته على أن العرب قد قاتلوا وأبلوا بلاء حسنا ، وبالتالى فأنهم يمكن أن يقاتلوا فى أى وقت ..

وإذا كانت إرادة القتال حلقات تتصاعد وتغذى روح المقاومة فى الشعوب ، بينما القعود والركون له منطقه الخاص الذى يجذب روح المجتمع إلى القاع ، فقد عادت عزيمتنا تطفو على السطح وتتنفس الحياة بطاقة أكبر على مواجهة تحديات المستقبل دون وجل .

كان ٦ أكتوبر امتحانا مجيدا عرفنا منه : وعرف العالم ، أننا نستطيع أن نهزم الهزيمة .. لا أن نرفضها فقط ونبقى ساكتين ..

وعرفنا وعرف العالم أننا وقد هزمنا الهزيمة ، نستطيع أن ننتصر ..

ليس فى ساحة القتال ضد عدو عنصرى توسعى فقط ، ولكن : أن ننتصر في كل ساحات التحديات التى يطرحها العصر الحديث على العالم العربى بأكمله ..

Add to Basket

فهرست

صفحة

رقم الايداع ٩٦/١٠٢٦٢

I.S.B.N

977- 07-0504-7

قصة وشعر

فنون

التكوين

الأبواب الثابتة

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

كتاب الهلال القادم

الحقيقة والوهم
فى
الواقع المصرى

بقلم

د. رشدى سعيد

يصدر ٥ أكتوبر ١٩٩٦

هذا الكتاب الذى بين أيدينا خطه الكاتب السياسى والمفكر القومى أحمد بهاء الدين منذ اثنين وعشرين عاما، ومازال كتابا حيا متوهجا، يحمل فى طياته دراسة جريئة ومهمة، يجب ان تطلع عليها الاجيال الجديدة..

ويصدر هذا الكتاب المهم فى مناسبتين، الأولى الذكرى الثالثة والعشرون لحرب أكتوبر، والثانية ذكرى الأربعين لرحيل الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين.

ويسجل الكاتب بدقة أبعاد ووقائع الصراع العربى - الاسرائيلى، حتى لا ننسى، وتطوى الأيام تلك البطولات.

ويعيد احمد بهاء الدين الاعتبار لحرب الاستنزاف التى بدأت فى مارس ١٩٦٩ وانتهت بوقف اطلاق النار فى ٧ اغسطس ١٩٧٠.

ونرى فى هذا الكتاب ملامح أحمد بهاء الدين وسر جاذبيته، والقبول والمصداقية التى تتمتع بها كتاباته، فسنجد انه ذلك المزيج بين الوطنية والمعرفة.

وبذلك احتل مكانته فى الحياة الفكرية والصحفية كالشهاب، معتمدا على قدراته ومواهبه .